منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
دار الأمان
الرباط
كلمة KALIMA
عالم المعرفة
للنشر والتوزيع

أركون ونقد الفكر الاسلامي

تأليف

د. عبد السلام محمد البكاري الصديق محمد بو علام

مكتبة
مؤمن قريش
mouminoulouh.blogspot.com

معالم نقدية

أركون
ونقد الفكر الاسلامي

تأليف

د. عبد السلام محمد البكاري الصديق محمد بو علام

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

كلمة KALIMA

دار الأمان
الرباط

عالم المعرفة
للنشر والتوزيع

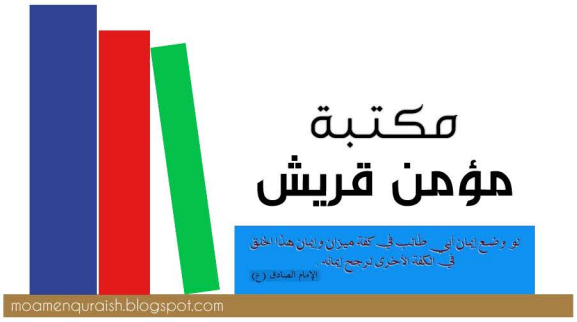

الطبعة الأولى: 1437 هـ - 2016 م

ردمك 978-614-02-1226-8

ردمك 978-9938-90-263-1

جميع الحقوق محفوظة

دار الأمان
الرباط

4، زنقة المامونية - الرباط - مقابل وزارة العدل
هاتف: 537723276 212+ - فاكس: 537200055 212+
البريد الإلكتروني: darelamane@menara.ma

كلمة
KALIMA

كلمة للنشر والتوزيع
12 نهج بيروت، 2080 أريانة - تونس
الهاتف: 0021671703355 - الفاكس: 0021671706253
البريد الإلكتروني: info@kalima-edition.com

عالم المعرفة
للنشر والتوزيع
حي باحة 02، فيلا رقم 07، تماريس، المحمدية/الجزائر
هاتف/فاكس: 96 -92-21-021
البريد الإلكتروني: alemelmaarifa@yahoo.fr

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
هاتف بيروت: 9613223227+
editions.difaf@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيّة وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيّة وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

طبع في لبنان

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الناشرين**

الإهـــداء

إلى من يعلم:

أن للقرآن الكريم حكمه الخاص في موضوع انحراف البشر بشكل عام وقد جمعته آيتان.

الأولى في سورة الأنبياء: 22/21 ﴿ قل هاتوا برهانكم، هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ﴾.

والثانية في سورة الأحزاب: 72/33 ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾.

حيث يتعاضد الحكمان في المفاهيم الآتية:

المفهوم الأول: إن سبب إعراض الناس عن الحق هو عدم معرفته.

المفهوم الثاني: إن هذا هو حال الأكثرية من الناس.

المفهوم الثالث: إن الأقلية لديها جهل مركب، أو ظلم أو ما عبر عنه في موضع غير هذا بالهوى، أي معرفة الحق وعدم اتباعه لأن الهوى سيطر على النفس، أما حال معظم الناس فإنّهم يتبعون الحق بمعرفته.

وهذا يدفع إلى المزيد من التسلح بالعلم لأن نشر العلم مهاد لدخول الناس في الإسلام أفواجا ﴿ فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون؟! ﴾ سورة يونس: 32/10.

محتويات الكتاب

الإهداء 3

المحتويات 5

نبذة عن الدكتور محمد أركون الجزائري 11

مقدمة 13

الباب الأول

- الفصل الأول: الفكر الديني والفكر العلمي: أي علاقة؟ 19

1. لا تعارض بين العقلين الديني والعلمي 19

2. الوحي المقدس والاجتهاد النّسبي 22

3. بحوث الإعجاز العلمي في القرآن والسنة 25

- الفصل الثاني: العقل النقدي والعقل الدوغمائي: خطأ التشخيص والتقويم 31

1. التاريخ الإسلامي ودعوى النقد 31

2. آفاق البحث العلمي في الإسلام 33

3. عظمة المذاهب الفقهية 36

4. علم مقارنة الأديان 40

- الفصل الثالث: عقل استطلاعي أم عقل استنساخي؟ 46

1. الخطاب الإلهي والخطابات البشرية 46

2. تضليل وتشويه 50

3. قدسية نصوص الوحي 53

4. الإيمان ووظائف العلماء 56

الباب الثاني

- الفصل الأول : دفاعا عن الهوية الإسلامية : إزالة التلبيس 63
  1 . العودة إلى الينابيع الصافية 63
  2 . هوية المجتمعات الإسلامية 67
  3 . "الظاهرة الدينية" وتهافت الحداثة 71
- الفصل الثاني : نقد الفكر الاستشراقي التحريفي 78
  1 . جلال ومثالية الفترة التأسيسية للدولة الإسلامية 78
  2 . كيف كان حال المسلمين؟ 82
- الفصل الثالث : دحض مفهوم أرخنة الخطاب القرآني 85
  1 . العقل الإسلامي 85
  2 . دعوى الأرخنة 87
  3 . جمع القرآن الكريم وتدوينه 91
  4 . القرآن الكريم منبع التحرير والتنوير والتطهير 94

الباب الثالث

- الفصل الأول : قوة الإسلام وصلاحيته الدائمة 101
  1 . صياغة الإسلام للمجتمعات المسلمة 101
  2 . المنهجية التاريخية المزعومة 103
  3 . المجتمع الإسلامي : المركز والأطراف 105
  4 . سند الفكر الأصولي الإسلامي 110
- الفصل الثاني : تهافت العلمانية والعلمنة 113
  1 . عولمة الحداثة وهيمنة نور الله تعالى 113
  2 . العقيدة الصحيحة لا الفلسفة الداحضة 118
- الفصل الثالث : الدولة الإسلامية 122
  1 . الدعاة المخلصون 122

2 . السياسة الإسلامية 124
3 . عصر التنوير الحق 130
4 . أسطع الحقائق 132

الباب الرابع

■ الفصل الأول : فيصل التفرقة بين الإسلام وغيره من الملل والنّحل 139
1 . الإسلام نقيض العلمانية 139
2 . فيصل التفرقة 141
3 . من معجم الألفاظ القرآنية 144
4 . ربّانية القرآن الكريم ومصداقيته 148
■ الفصل الثاني : الصورة الحقيقية لشخصية النبي ﷺ 150
1 . أبهى صورة 150
2 . السيرة الصحيحة 155
■ الفصل الثالث : حقوق الله وحقوق الإنسان 137
1 . أهداف العولمة والحداثة 137
2 . مقاصد الجهاد 158
3 . علم الكلام والمزاعم الواهية 161

الباب الخامس

■ الفصل الأول : مفاهيم إسلامية أصيلة 169
1 . المطلق والنّسبي من الحقائق 169
2 . السبق الإسلامي إلى إقرار حقوق الإنسان 170
■ الفصل الثاني : تهافت الحداثة الغربية ودعاوى الحداثيين 181
1 . حاجة الأمة والإنسانية إلى الدستور الإلهي 181
2 . الثوابت والمتغيرات 184
3 . المجاز وحدود التأويل 185

- الفصل الثالث : ظروف نقل القرآن الكريم وتدوينه 188
  1. من دلائل حفظ القرآن الكريم 188
  2. مساهمة المسلمين في العلم الحديث 195

الباب السادس

- الفصل الأول : ضرورة الأخلاق 199
  1. لا فصل في الإسلام بين الدين والدولة 199
  2. منذ البدء كان التّوحيد 201
  3. الأخلاق جوهر حقيقة الإنسان 204
  4. الإسلام دين الأخلاق 205
- الفصل الثاني : حقائق التقديس وادعاء العقلانية 208
  1. اندحار أخلاق الحداثة 208
  2. من الحلول الأخلاقية الإسلامية 209
  3. تأسيس الإيمان على البرهان العقلي 210
  4. بماذا تميّز الإسلام؟ 212
  5. الدين الحق 214
  6. النقد العاري عن الدليل 216
  7. العلم والإيمان 217
- الفصل الثالث : التسامح والتسيّب 220
  1. فقدان التمييز 220
  2. التسامح والتعصب 221

الباب السابع

- الفصل الأول : براهين العقيدة الصحيحة 227
  1. المدرسة الأشعرية 227
  2. اتباع العلماء أهل الذكر واجب 231

3 . الحوار والتسامح والحرية الفكرية في الإسلام..... 233
4 . السياسة الشرعية..... 237
5 . من أدلة مبدأ التسامح في الإسلام..... 238
6 . الحرية وزعم التحرر..... 243
7 . اتباع الوحي في العقائد لا الفلسفة..... 245
■ الفصل الثاني : الخطاب القرآني : البيان والبرهان..... 250
1 . البراهين القرآنية..... 250
2 . القلب والعقل..... 253
3 . ابن رشد والغزالي..... 256
■ الفصل الثالث : التحريف المُمَنْهَج..... 258
1 ـ ديْدن الاستشراق..... 258
2 . مناهج مستوردة من أجل التضليل..... 259
الخاتمة..... 263

الملاحق

■ الملحق الأول : في السياسة الشرعية..... 269
■ الملحق الثاني : في نقد العلمانية..... 275
■ الملحق الثالث : في نقد الحداثة..... 277
المصادر والمراجع..... 279

نبذة عن الدكتور محمد أركون الجزائري

(1347 ـ 1431هـ)(1928 ـ 2010 م)

ولد محمد أركون الجزائري الجنسية سنة 1347هـ/ 1928م بالجزائر وبها بدأ دراسته، ثم أتمها بفرنسا بجامعة السربون 1375هـ/ 1955م وحصل على الدكتورة بنفس الجامعة سنة 1389هـ/ 1969م تحت عنوان «الإنسية العربية في القرن الرابع الهجري».

نشأ محمد أركون نشأة استشراقية، حيث ألقت بظلالها على سائر أنشطته ونتاجه الفكري، وأصبح مساهما في تيار نقد المنهج السلفي والسلفية.

حاضر محمد أركون في العديد من الجامعات الفرنسية والعربية وظل يعمل أستاذ الفكر الإسلامي في الجامعة الفرنسية الآنفة الذكر.

من مؤلفاته: «الفكر العربي» و«الفكر الإسلامي نقد واجتهاد» وله: «تاريخية الفكر العربي الإسلامي»... وكل هذه المؤلفات وغيرها لا تخلو صفحاتها من الهجوم على الإسلام.

ويعتبر محمد أركون أحد كبار المفكرين العلمانيين الداعين إلى التعامل مع الإسلام كتابا وسنة بوجه خاص، وبمقاييس خاصة، حيث تجنى كثيرا في جل ما كتبه وما حاور به أثناء لقاءاته الكثيرة التي أجريت معه ولاسيما في كلامه عن السلف ومنهجهم إذ أكد في كتابه عن «تاريخية الفكر العربي الإسلامي» الهجوم على المنهج السلفي واعتبر موقف هذا المنهج ميثولوجيا. يراجع في هذا: «الفكر العربي» ص 47 ـ 49 ط 2. 1985، وكتابه «من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي». ص 97 ـ 98، ط 1993، دار الساقي لبنان ترجمة هشام صالح.

وحوار البدايات مع محمد أركون. أجرى الحوار محمد رفرافي ونشر في مجلة الفكر المعاصر عدد شتنبر 1989 ص 87 وما بعدها.

يراجع كذلك: «الموقف المعاصر من المنهج السلفي في البلاد العربية، دراسة نقدية» للدكتور مفرح بن سليمان القوسي، دار الفضيلة الرياض، السعودية: (390 ـ 398) ط 1. 1423هـ/ 2003م. وهي دراسة نقدية مركزة.

وكان محمد أركون لا يفتأ يمدح المستشرقين ويثني على عملهم، كما يثني على العرب الذين يحذون حذوهم. انظر كيف تعامل مع علي عبد الرازق وكتابه: «الإسلام وأصول الحكم» والأمثلة كثيرة.

وحاول محمد أركون أن يؤسس مشروعا فكريا، لكنه أصيب بالإفلاس وألَب عليه جل المفكرين الإسلاميين، ولكنه رفع درجاته عند اليسار المتطرف وعند إخوانه المستشرقين.

وقد صنف عند النقاد المحدثين في الاتجاه العلماني مع: (الدكتور زكي نجيب محمود، والدكتور هشام جعيط، والدكتور فؤاد زكرياء، والدكتور فرج فودة، وحسين أحمد أمين...).

وهذا الاتجاه، اتجاه فكري وضعي علماني يسعى إلى فصل الدين عن الحياة بكافة جوانبها، أو إقامة الحياة على غير أساس من الدين.

انتقل هذا المفكر الجزائري إلى دار البقاء يوم الثلاثاء 5 شوال 1431/ موافق 14 شتنبر 2010م بعد صراعه مع المرض في العاصمة الفرنسية عن عمر يناهز 82 سنة ونقل جثمانه إلى المغرب حيث دفن بالدار البيضاء نزولا عند رغبة زوجته المغربية. رحمه الله وغفر له. توفي وهذا الكتاب قيد الطبع.

مقدمـــة

الحمد لله الذي أظهر دينه على الدّين كله، و الصلاة و السلام الأتمان الأكملان على خيرة الله من خلقه سيدنا محمد و على آله و صحبه و حزبه.

أما بعد،

فإنّ الغاية من هذه الرّدود النّقدية إماطة اللثام عن الأغراض الأصلية من إصدار محمد أرگون لكتابه **"قضايا في نقد العقل الديني، كيف نفهم الإسلام اليوم؟"**[1] وتصحيح الأخطاء الكثيرة التي تضمنها، فالمؤلف سعى فيه إلى الإجابة عن السؤال السابق: "كيف نفهم الإسلام اليوم؟"، وهو سؤال قد يطرحه الإنسان المسلم و غير المسلم، العربي والغربي، ومن هنا كانت الإجابة عنه بالغة الأهمية لأنّ مقتضاها تقديم تصوّر معيّن عن الإسلام، في الماضي والحاضر والمستقبل، فإذا كان هذا التصور سليما مطابقا لحقيقة الإسلام كان الأثر طيّبا، والهدف نبيلا، وإذا كان العكس كان الأثر والهدف بالغيْ الضّرر و الفساد.

و قد سعينا من خلال تقديم هذه الرؤية النقدية لكتاب محمد أرگون إلى تقويم إجابته عن السؤال إياه، و محاولة تفسير منطلقاته وتوجهاته و غاياته ومناقشة مظاهر التحريف و الزلل والمغالطة التي طفح بها كل فصل من فصوله.

و معنى هذا أننا سعينا إلى " نقد النقد" في كتابه. فهو يدّعي بناء "مشروع نقد العقل الإسلامي" لكن لما كان كل نقد معقول و موضوعي و منطقي ينبني على قواعد سليمة يقبلها العقل المنصف، كان لزاماً علينا أن نتبيّن مدى استجابة "نقد" أرگون العقل الدّيني (الإسلامي) لهذه القواعد.

يحتوي كتاب "قضايا في نقد العقل الديني، كيف نفهم الإسلام اليوم؟" على خمس دراسات، تليها أربع مقابلات كان أجراها المترجم هاشم صالح مع المؤلف.

---

1. ترجمة وتعليق هاشم صالح، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الثالثة 2004.

و الدراسات الخمس هي : **"كيف ندرس الإسلام اليوم؟ التواصل المستحيل"** ، **"خرق الحدود التقليدية، زحزحتها عن مواقعها، تجاوزها : دراسة حول أعمال كلود كاهين"** ، **"الإسلام المعاصر أمام تراثه و العولمة"** ، **" إضاءة الماضي لفهم الحاضر و بناء المستقبل"** ، **"التسامح واللاتسامح في التراث الإسلامي"** .

و يضم الملحق المقابلات التالية مع محمد أركون : **" الممكن التفكير فيه/ المستحيل التفكير فيه في الفكر الإسلامي المعاصر"** ، و **" تشكل الأصولية، التفاوت التاريخي، وتوليد فكر نقدي جديد عن التراث"** و **" المثقفون العرب و الغرب : عصر التنوير، الحداثة، وما بعد الحداثة"** و **"الظاهرة الأصولية و إشكالاتها"** .

وقد قسمنا دراستنا النقدية إلى سبعة أبواب : تضمن الباب الأوّل ثلاثة فصول هي : **"الفكر الدّيني و الفكر العلمي : أيّ علاقة ؟"** و **" العقل النقدي و العقل الدوغمائي : خطأ التشخيص و التقويم "** و **"عقل استطلاعي أم عقل استنساخي؟"** . و اشتمل الباب الثاني على ثلاثة فصول هي : **" دفاعاً عن الهوية الإسلامية : إزالة التلبيس "** ، و **" نقد الفكر الاستشراقي التحريفي "** و **"دحض مفهوم أرخنة الخطاب القرآني "** . وكذلك تضمن الباب الثالث فصولا ثلاثة هي : **"قوّة الإسلام و صلاحيته الدّائمة"** و **" تهافت العلمانية و العلمنة"** ، و **"الدولة الإسلامية"** . ويحتوي الباب الرّابع ثلاثة فصول هي : **"فصل التفرقة بين الإسلام و غيره من الملل و النحل "** ، و**"الصّورة الحقيقية لشخصية النبي صلى الله عليه و سلم"** و **" حقوق الله و حقوق الإنسان "** ، و اشتمل الباب الخامس على فصول ثلاثة هي : **"مفاهيم إسلامية أصيلة "** ، و **" تهافت الحداثة و دعاوى الحداثيين"** و **" ظروف نقل القرآن الكريم و تدوينه"** . بينما تضمن الباب السادس هذه الفصول الثلاثة : **" ضرورة الأخلاق"** ، و **" حقائق التقديس و ادّعاء العقلانية"** ، و**"التسامح و التسيّب"** . أما الباب السابع و الأخير فيشتمل على ثلاثة فصول هي : **"براهين العقيدة الصحيحة"** و **" الخطاب القرآني : البيان و البرهان "** و **" التحريف المنهج "** .

إذا كانت العلمانية تعتبر الإنسان مرجعية عقدية وحيدة، فإن محمد أركون يعتمدها لتدمير العقل الإسلامي لا لنقده، و يسعى إلى ذلك بواسطة الفلسفة

التفكيكية الغربية، وتوظيف بعض العلوم الإنسانية الحديثة خاصة الأنثربولوجية الدينية، و النقد اللاهوتي، وعلم اجتماع المعرفة ، مما أدى به إلى اعتبار القرآن الكريم نصا يحال إلى لحظة زمنية تاريخية ، و إلى الدعوة إلى نزع القداسة عنه لصالح تقديس الإنسان وذلك ما يطلق عليه " **أنسنة القرآن**" أي جعله مصدرا بشريا لا مصدرا ربانيا، باعتبار الإنسان هو محور الكون و مصدر و صاحب القرار فيه.

و لا يميز أركون بين الدين الحق و غيره من الأديان الباطلة، بل يسوّي بينها كلها تحت اسم " **الظاهرة الدّينية**" لأغراض بيّنّاها في هذه الدراسة. وقد تتبعنا أقواله، قولا قولاً، ووضعناها في ميزان النّقد الشرعي و العقلي، و استخلصنا في النهاية خلاصة عن مدى تهافت رؤيته ومنهجه. وكنا نأمل أن يكون هذا العمل حافزاً لمحمد أركون كي يعيد النظر في مخطّطاته، وتصوّراته، ويتعلم النقد الذاتي المبني على أصول الحقيقة كما علمنا إيّاها الإسلام الدين الحق الذي أظهره الله على الدّين كله. ولكن توفاه الله تعالى فنرجو له المغفرة والرحمة. وبالله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

المؤلفان

البـــاب الأول

الفصل الأوّل : الفكر الدّيني و الفكر العلمي : أي علاقة ؟

1. لا تعارض بين العقلين الديني والعلمي
2. الوحي المقدس والاجتهاد النّسبي
3. بحوث الإعجاز العلمي في القرآن والسنة

الفصل الثاني : العقل النقدي و العقل الدوغمائي: خطأ التشخيص والتقويم

1. التاريخ الإسلامي ودعوى النقد
2. آفاق البحث العلمي في الإسلام
3. عظمة المذاهب الفقهية
4. علم مقارنة الأديان

الفصل الثالث: عقل استطلاعي أم عقل استنساخي؟

1. الخطاب الإلهي والخطابات البشرية
2. تضليل وتشويه
3. قدسية نصوص الوحي
4. الإيمان ووظائف العلماء

الفصل الأول

الفكر الدّيني و الفكر العلمي : أي علاقة ؟

1 . لاتعارض بين العقلين الدّيني و العلمي:

يسجل المؤلف في إشارته التمهيدية قلقه الكبير لما يسميه بسوء التفاهمات التي دفعت عددا كبيراً من القراء العرب إلى توجيه القول الباطل و التأويل الخاطئ و الهجوم اللاذع ضد ما كتب و نشر ، على حدّ تعبيره . و أضاف : **«وللأسف فهم لم يقرؤوا بإمعان و لم يجتهدوا حق الاجتهاد لإدراك ما قصدته وفهم ما عبرت عنه بمصطلحات تدفع دائما إلى التوسّع في البحث و التثبت في التفسير ، و التأويل»**[1] .

إنّ الكلام الصّريح لا يحتمل التأويل ، و التنصيص على المعاني المقصودة لا يحتاج إلى اجتهاد في التفسير ، و ما تعارض تعارضا صريحا مع القرآن الكريم والسنة المطهّرة ، فهو مردود ، مهما ادّعى أصحابه . لهذا فمنهجيتنا في الدراسة النقدية لكتاب د. محمد أركون **"قضايا في نقد العقل الدّيني ، كيف نفهم الإسلام اليوم ؟ "** هي عرض أقواله على الكتاب و السنة ، مع التدقيق في فهمها وبيان المراد منها ، حتى لا نقع في ما زعمه المؤلف من" تأويل خاطئ " . علما أنّ التأويل يكون عندما نجد أنفسنا أمام نصّ غامض أو قول يحتمل عدّة وجوه غير بيّنة . فأما إذا كان النص صريحا ، و القول واضحا ، فنحن في غنى عن التأويل . بل إنّ التقويم المباشر هو ما يقتضيه مثل هذا النص حينئذ .

و لقد دخل عن طريق حيلة فتح باب التأويل على الأمة الإسلامية ما يدعيه البعض من "قراءات جديدة " لنصوص الكتاب و السنة . و هذا خطر عظيم و ضرر جسيم . لذا ينبغي تسمية الأمور بأسمائها ، و بيان القضايا كماهي : و سيتضح

---

1 . قضايا في نقد العقل الديني ، كيف نفهم الإسلام اليوم ؟ ، ص 5 .

للقارئ الكريم في الفصول القادمة أن أركون هو الذي يحمل النصوص ما لا تحتمل ويخلط الشبهة بالدّليل ومن الذين لاحظوا ذلك أيضا د. الحسن العباقي في كتابه " **القرآن الكريم والقراءات الحداثية دراسة تحليلية نقدية لإشكالية النص عند محمد أركون**"[1]

فما هو موضوع المقالات التي جمعها أركون في هذا الكتاب؟

قال :«*إنّ المقالات التي جمعتها في هذا الكتاب تؤكد و تزيد وضوحا تلك التي نشرت قبلها و التي تتمحور حول الجدال القائم بين الفكر الدّيني و الفكر العلمي . هذا من جهة . أما من جهة أخرى، فإنها تلقي بعض الإضاءات على الممارسات الرّاهنة للفكر الإسلامي، هذه الممارسات التي تتم بمعزل عن التنظيرات الحديثة المتركّزة على الظاهرة الدّينية كما اشتغلت أو ما رست دورها في المجتمعات القديمة و المعاصرة*» [2].

فالمؤلف يضع معارضة بين "الفكر الدّيني" و" الفكر العلمي"، و"يصِمُ" الفكر الإسلامي المعاصر بالابتعاد عن التنظيرات الغربية حول ما سماه بـ "الظّاهرة الدينية".

وقد أوضح ما يقصد بالتعارض بين " الفكر الدّيني" و "الفكر العلمي"، بقوله:

«*إنّ الفكر الدّيني يستشهد بالنّصوص المقدّسة و يستمد منها الدلائل القطعية. وإذا ما واجهه أي اعتراض علمي فإنه يكتفي باتخاذ موقفين معروفين ومتداولين: إما أن ينكر صحّة الاعتراض و يصرّح بأسبقية الاستدلال الدّيني على كل ما يقدّمه البشر من بيان وتبيين. وإما أن يدّعي وجود انسجام تام بين ما يقدّمه العقل النّقدي وما يتبنّاه الإيمان، وذلك في جميع مستويات المعرفة وفروعها وأبعادها*»[3].

إنّ اعتراض المؤلف على موقف الفكر الدّيني و ردوده الرّصينة اعتراضٌ واهٍ، لأنّ الاستدلال الدّيني بالقرآن و السنّة، أي بالوحي، سابق على كل ما يقدّمه البشر فعلا، و أفضل ممّا يقدّمونه حقّا. و لأنّ العقل لا يصادم الوحي، فإنّ ثمة

1. صدر عن صفحات للدراسات والنشر ـ 2009، ص 88 ـ 96.
2. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص :5.
3. نفسه ـ ص: 5 ـ 6.

دائما انسجاما تامّا بينهما . فالعقل الصّريح و النصّ الدّيني الصّحيح صنوان لا يتناقضان . وكلما تقدّم الإنسان في دراسة الإسلام دراسة موضوعية بمنهجية علمية كلما اكتشف مزيداً من الانسجام بين حقائق الوحي و توجيهاته، واكتشافات العقل و حكمته .

إذا نظر الإنسان المفكر في ما ورد من الآيات القرآنية الحاثة على التفكر والاعتبار وتأمل مخلوقات الله عزّ و جل تبين له أنّ أوجب الواجب معرفة الله تعالى بالنظر في هذه المخلوقات . و هذه بعض الآيات المرشدة إلى هذا المقصد الإسلامي العظيم :

قال تعالى : ﴿ إنّ في خلق السموات و الأرض و اختلاف الليل و النّهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياما و قعودا و على جنوبهم ويتفكّرون في خلق السموات و الأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلا. سبحانك. فقنا عذاب النار﴾[1] .

وقال : ﴿ الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها. ثم استوى على العرش وسخّر الشمس و القمر كلٌّ يجري لأجل مسمّى يدبّر الأمر يفصّل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون وهو الذي مدّ الأرض و جعل فيها رواسي و أنهارا. و من كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين. يغشي الليل النّهار إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون وفي الأرض قطعٌ متجاورات وجنّات من أعناب و زرع و نخيل صنوان و غير صنوان يسقى بماء واحد ونفضّل بعضها على بعض في الأكل إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾[2] .

و قال : ﴿ فلينظر الإنسان ممّ خُلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب و الترائب. إنه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر فماله من قوّة ولا ناصر والسماء ذات الرجع. و الأرض ذات الصدع. إنه لقول فصل وما هو بالهزل﴾ [3]

1 . سورة آل عمران : 3 / 190 ـ 191 .
2 . سورة الرعد : 13 / 2 ـ 4 .
3 . سورة الطارق : 86 / 5 ـ 14 .

و قال: ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت؟ و إلى السماء كيف رفعت؟ و إلى الجبال كيف نصبت ؟ و إلى الأرض كيف سطحت؟ فذكر إنّما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر﴾ [1]

فهذه الآيات و غيرها تنبه الإنسان و توقظ قلبه وعقله من الغفلة وسبات الجهالة، وتدلّه على طريق العلم و البحث و النظر.

2 ـ الوحي المقدّس و الاجتهاد النّسبي:

و بالإضافة إلى تصوّر المؤلف وجود تعارض بين العقلين الدّيني و العلمي، فإنه ينسب إلى العقل الأوّل آثاراً هو أسمى من أن تصدر عنه. و هذه الآثار هي: تأخّر الإنسان وضعفه، و انحلال قيمه و مذاهبه و نظمه و مساعيه الهادفة إلى تحقيق السعادة و النجاة و سائر المطامح. هذا مع أنّ كل عاقل منصف يعلم أنّ الدين جاء بسعادة الإنسان. و المؤلف لا ينسب تلك الآثار السلبية إلى العقل الديني مباشرة، بل ينسبها إليه من باب الافتراض على قدم المساواة مع العقل العلمي، على سبيل دعوى تحليل كلا العقلين "موضوعياً". قال في هذا الصدد:

" إنّ الدراسة العلمية للظاهرة الدّينية لا تنحصر طبعا في تلك المناقشات الجارية حول القضايا السياسية و الاجتماعية و التشريعية و التربوية. بل تتعداها لكي تشمل ما يعالجه العلماء في مجال علم التاريخ و علم الاجتماع و الألسنيات والسيميائيات الدلالية و الأنتروبولوجيا و علم النفس و التحليل النفسي. ولا تزال هذه العلوم تغير طرق البحث أو تجددها، وتحوّل الإشكاليات القديمة الموروثة إلى إشكاليات مرتبطة باكتشاف علم الحياة (البيولوجيا) والكيمياء والفيزياء والتجارب الفضائية. بمعنى أن اكتشافات هذه العلوم قد غيّرت من نظرتنا إلى المادة و العالم والكون. وبما أنّ الأديان لقّنت علما يقينيا في جميع تلك المجالات، فلا بد من المقارنة بين نوعين من المعرفة أو نمطين من العقل: العقل الديني / العقل العلمي. و ليس المقصود من المقابلة التصريح بأفضلية إحدى هاتين المعرفتين على الأخرى، أو أسبقية هذا العقل على ذلك. كما لم نعد نستطيع اليوم الاعتماد

---

1. سورة الغاشية: 88 / 17 ـ 22.

على مناهج القدماء للجمع بين هذين الرأيين أو الموقفين المتضادين على غرار ما فعله الفارابي في "الجمع بين رأيي الحكيمين". وإنما نهدف اليوم إلى إبراز ما يتسم به كل عقل من المواقف و المناهج والمبادئ، والمقدمات وطرق الاستدلال والتعبير عن حقائق الأمور. كما ونهدف إلى تبيان ما ينتج عن كل واحد من هذين العقلين من انعكاسات واقعية أو تطبيقية على حياة الإنسان وإنجازاته وتقدمه وتحرّره، أو تأخّره وفشله وضعفه وانحلال قيمه ومذاهبه ونظمه ومساعيه الهادفة إلى تحقيق السعادة والنّجاة وسائر المطامح"[1].

فالإيجابي من هذه الآثار ينسبه المؤلف في مقالاته ودراساته، عادة، إلى العقل العلمي والفكر الحداثي. ويجعل السلبي من هذه الآثار من حظ العقل الديني، ومن نصيب التراث، والتمسك بثوابت الإسلام.

و إذا حللنا الخلفية التي يصدر عنها في هذا الكلام، وجدناه يقرر أنّ الاكتشافات العلمية الحديثة تجاوزت معطيات الوحي، و أنّ ما لقّنته الأديان من يقينيات أصبح موضع بحث و مساءلة ما دامت العلوم الحديثة قد غيّرت نظرتنا إلى المادة و العالم و الكون، كما قال.

قال الله تعالى: ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيّبة كشجرة طيّبة أصلها ثابت وفرعها في السماء. تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها. ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار﴾[2].

إنّ أركون لا يعتبر للدّين أو الوحي أفضلية أو أسبقية على البحث الإنساني، إذ ما دام لا ينفي العكس، فإنّه يثبته حيث لا يمكن الجمع بين النّفي و الإثبات. فإما أن يكون العقل الدّيني سابقا على العقل العلمي و أفضل منه وإما ألاّ يكون. والأدلّة التجريبية و الإعجازية و الكونية و العقلية و الفطرية، بعد الأدلة النّقلية، شاهدة ـ لاسيما في هذا العصر الذي تكاثرت فيه الاكتشافات العلمية ـ على أن العلم يؤيّد الدّين، وأنّ الاستدلال العقلي يثبت ربّانية الوحي بالأدلّة الملموسة.

1. قضايا في نقد العقل الديني، ص: 6.
2. سورة إبراهيم : 14/ 24 ـ 26.

قال الله تعالى: ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ [1]

وما دام المؤلف يتصوّر وجود تناقض بين معطيات العلم ومعطيات الوحي، أو بين ما سماه بالعقل الدّيني والعقل العلمي، فإنه يحجب نفسه عن حقائق الانسجام الكامل بين النتائج العلمية الصّحيحة الثابتة من جهة، والنّصوص الشرعية المنزّلة، أي بين العلم والوحي. إنَّ العقل، في الإسلام، مناط التكليف، ومطية التفكير. وبدونه يكون الإنسان كالحيوان الأعجم، وبدون مسؤولية.

بقي أن نشير إلى أنّ عدم تمييز أركون بين العقل بوصفه فعلا أو ملكة أو موهبة من جهة، وبين الوحي أو النّص الشرعي المنزل بوصفه كلام الله تعالى، أو بوصفه نصّا حديثيا نطق به الرّسول ﷺ ﴿ وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى ﴾ [2] هو الذي جعله يسمي كل ما يندرج في مجال الدّين بـ" العقل الدّيني". وكان عليه أن يفرق بين الوحي المقدّس و العقل المجتهد الذي يصيب ويخطئ. وما دام لم يفعل فإننا ننبهه إلى أن العقل الدّيني هو العقل الذي يصدر عن مرجعية دينية، و هذه المرجعية هي الوحي و ليس " **العقل الدّيني**" هو الوحي. إذ الوحي هو الذي لقّننا اليقينيات في مجالات الكون والحياة، وليس " العقل الدّيني". فكل عقل بشري هو نسبي محدود، يحتمل الخطأ والصواب. أما الوحي المقدّس فإنّه مطلق قطعي لا يجوز أن نحكم عليه بالمقاييس التي نحكم بها على العقل سواء أكان دينيا أم علميا.

نسجل كذلك انبهار المؤلف بنتائج العلوم الإنسانية التي ذكر في الفقرة السابقة، إلى درجة أنه يقدّمها على ما سمّاه بـ" **العقل الدّيني**" باعتبارها تغيّر طرق البحث أو تجددها، فهي، في نظره، قد غيّرت نظرتنا إلى المادة والعالم والكون. والحقيقة أنّ نظرة العلوم الإنسانية المنقطعة عن حقائق الدّين الحق نظرة مادية إلى الحياة كلها. تتراوح بين مضايق إتباع الغريزة و تثويرها، والنزعة

1. سورة فصلت: 41 / 53.
2. سورة النجم: 53 / 3 ـ 4.

العدمية والمادية ، والمنفعة العاجلة والإباحية، والغموض في المناهج والنتائج. وهي بذلك تتنافى مع حقائق الدّين، بل إنما أسست تلك العلوم ضدا على الدّين. في حين أنّ أسلمتها، وتأصيلها في العقيدة والتصور الإسلاميين يجعلها علوما صحيحة نافعة. وحينئذ تكون نظرتها إلى المادة والعالم والكون هي نفس نظرة الدّين، بل تغدو ترسانة استدلالية للعقل الدّيني تثبت حقائقه بطرقها العلمية ـ وهي حقائق ثابتة أصلا ـ وتستثمر مرجعيته في ميادينها المتنوعة.

3. بحوث الإعجاز العلمي في القرآن و السنة:

إنّ نصوص القرآن الكريم و السنة الصحيحة لا تتوافق وتتطابق كامل الموافقة والمطابقة مع النتائج العلمية الثابتة لمختلف العلوم التجريبية في عصرنا فحسب، بل قد سبقت حقائقها الواضحة اكتشاف هذه النتائج أو التوصل إليها قبل أزيد من أربعة عشر قرنا. بل قد أرشد القرآن الكريم ـ فضلا عن ذلك ـ إلى مبادئ البحث العلمي الصحيحة.

"لقد أصبح من المسلم به أنّ مجال الإعجاز العلمي في القرآن الكريم معين لا ينضب ، ففي كل وقت و آن يظهر العلم الحديث باكتشافات و إثباتات علمية قد سبق أن قررها القرآن منذ أكثر من أربعة عشر قرنا" [1].

و" من المعروف عند العلماء .. أن للبحث العلمي مبادئ لابد أن تتوفر كي يؤتي البحث ثماره المرجوة منه.

و أوّل هذه المبادئ التي لا يستقيم البحث العلمي بدونها .. حرية التفكير، وهي أعمّ وأشمل من حريّة البحث .. ولابد من أن تتوافر دون أدنى قيد، حتى ينطلق الإنسان بما وهبه الله من ملكات إلى رحاب العلم. و حرية التفكير تنبع في الأصل من مصدرين أساسين :

أحدهما : تكوين العقل الإنساني نفسه، و قد شاء الله أن يكون هذا التكوين متحررا من أي قيد يحد من حريّة تفكيره فيما يشاء .

1. الإعجاز العلمي في الإسلام ـ القرآن الكريم ـ محمد كامل عبد الصمد ـ الدار المصرية اللبنانية ؛ ص 9.

والمصدر الثاني : الضوابط الخارجية التي تؤثر على طريقة التفكير عند الإنسان، وقد تكون هذه الضوابط عقائد دينية أو دنيوية قوانين ونظما اجتماعية، وما يتولد عنها من مفاهيم وقيم تؤثر بالضرورة على موضوعات الفكر، ومنطق التفكير ومن ثم مناهج البحث وتعرضها لجوانب الموضوعات، وتتجلى الدّعوة إلى التفكير العلمي بحرية في قوله تعالى :

﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت؟ وإلى السماء كيف رفعت؟ وإلى الجبال كيف نصبت؟ وإلى الأرض كيف سطحت؟ فذكر إنّما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر ﴾[1].

و قال : ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾[2].

ثم يحدد الله عز و جل الظواهر التي يجب أن يوجه إليها الإنسان اهتمامه وتفكيره.. ويعتبر تحديد موضوعات البحث مبدأ له أهميته وضرورته فقال تعالى :

﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل و النهار و الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كل دابة و تصريف الرياح و السحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ [3]

فأي توجيه للعقل أروع من هذا التوجيه ؟

و قوله تعالى :﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرّطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربّهم يحشرون ﴾[4]

---

1. سورة الغاشية : 88 / 17 ـ 22.
2. سورة يونس : 10 / 101.
3. سورة البقرة : 2 / 163.
4. سورة الأنعام : 6 / 38 .

و يفصل الله خصائص الظواهر كي تكون عونا للإنسان في اكتشافها والاستفادة منها .. من ذلك قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾[1].

و حيث لا يجوز أن يقوم البحث العلمي على الرأي أو التخمين.. دون أن يسند الشيء إلى برهان .

و قد نهى الله و حذر عباده من أن يخوضوا فيما ليس لهم به علم .. و هذا مبدأ أساسي لا يكمل البحث العلمي إلا به قال تعالى : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم. إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا ﴾[2]

و قال : ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين ﴾[3]

و لا تستقيم الحياة البشرية و تتطور إلاّ بالبحث و الاكتشافات العلمية بجد واجتهاد ، لمجاراة سنن التقدم ، و الارتقاء إلى المستويات الأفضل. فتفرّغ البعض للعلم والبحث في المعارف ضرورة تحتّمها الحياة العلمية ، و هذا مبدأ أساسي من مبادئ البحث العلمي.. و في ذلك قال الله تعالى :

﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾[4][5] .

إنّ كثيرا من الوقائع و الحقائق لا يمكن الوصول إلى وجه الحق فيها إلاّ من خلال الوحي .

1. سورة النور: 24 / 43 ـ 44.
2. سورة الإسراء: 17 / 36.
3. سورة لقمان: 31 / 6.
4. سورة التوبة : 9 / 122.
5. الإعجاز العلمي في الإسلام ـ القرآن الكريم مرجع سابق ص 34 ـ 37.

و لنمثل لهذا بقصة ذي القرنين .

قال تعالى: ﴿ ويسألونك عن ذي القرنين. قل سأتلو عليكم منه ذكرا إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا، فأتبع سببا حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوما. قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا. قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا ثم أتبع سببا حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا كذلك. وقد أحطنا بما لديه خبرا ثم أتبع سببا حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا. قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا . قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما. آتوني زبر الحديد. حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال آتوني أفرغ عليه قطرا فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا. قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا. وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا. وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعا. أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء. إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا ﴾ [1].

ألم يقف المؤرخون والمفسرون أمام هذه القصة العجيبة، وكثير منهم حاولوا بيان ما فيها من مبهمات وتحديد تفصيلاتها التاريخية والواقعية، وجاءوا في ذلك بأقوال غالبها من القصص الإسرائيلي و أخبار أهل الكتاب، وفيه جملة من أخبار خرافية وأباطيل وترهات.

1. سورة الكهف: 18 / 83 ـ 102.

و بعض هؤلاء خصّها بتأليف و فصّل و حدّد المكان و الزّمان و الأحداث والأبطال و الوقائع.

والحقيقة أنه لا يقع حدث إلاّ بإذن الله، و لا يحصل شيء إلاّ بإذن الله، و لا يزول حاكم إلا بإذن الله ولا يملك إلا بإذن الله، و لا ينتصر جيش إلا بإذن الله، ولا تسود أمّة إلا بإذن الله، ولا تنهض أمّة إلا بإذن الله، ولا تزدهر حضارة إلا بإذن الله، قال تعالى: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾[1]

وتنتهي سيرة ذي القرنين النموذج الطيب للحاكم الصّالح بتمكين الله له في الأرض، وتيسير الأسباب له، فيطوف الأرض شرقا وغربا، ولكنه لا يتجبّر، ولا يطغى ولا يبطر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغنم المادّي و استغلال الأفراد والجماعات والأوطان، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق، ولا يسخر أهلها في أغراضه ومصالحه و أطماعه، بل ينشر العدل في كل مكان يحل به و يساعد المختلفين و يدرأ الظلم و العدوان دون مقابل، و يستخدم القوّة التي يسّرها الله له في التعمير والإصلاح ودفع العدوان و إحقاق الحق. ثم يُرجع كل خير يحققه الله على يديه إلى رحمة الله وفضل الله، ولا ينسى و هو في إبان سطوته قدرة الله وجبروته و أنه راجع إلى الله[2].

و بيّن صلاح عبد الفتاح الخالدي ما في هذه القصة العجيبة من الإشكاليات العامة، والتفصيلات اللغزية المحيّرة، و مصادر القصة في الأحاديث الصحيحة. وناقش البخاري و ابن حجر العسقلاني. و ناقش بناء السد في الأحاديث الصحيحة و بيّن وجه الدلالات في الأحاديث، وخروج يأجوج و مأجوج في نفس السياق. ثم سأل عن ذي القرنين من هو ؟ و هل يمكن أن تحدد شخصيته؟ وذكر رأي سيد قطب في ذلك و أشهر الأقوال في تحديد شخصية ذي القرنين، و هل كان معاصرا لنبي الله إبراهيم عليه السلام؟

1. سورة الكهف : 18 / 84.

2. «في ظلال القرآن» ـ سيد قطب ـ 4 / 2293. و«مع قصص السابقين في القرآن». د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم دمشق ط 4 ـ 1425 / 2004. ص 448 ـ 547.

إنَّ الوحي هو العمدة في معرفة حقائق هذه القصة. و كما قلنا : هناك أمور وحقائق ووقائع لاحصر لها لا يمكن للإنسان أن يعرف الحق بصددها إلا من طريق الوحي، ومهما حاول الوصول إلى معرفتها بعقله لم يمكنه ذلك.

وعودا على بدء، نقول إن بحوث الإعجاز العلمي في القرآن و السنة، تؤكد باستمرار التطابق الكلي بين النتائج العلمية الصحيحة و النصوص القرآنية والحديثية. و من هذه البحوث : "**الإشارات العلمية في القرآن الكريم**" للدكتور كارم السيد غانم، و"**التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن** " لحنفي أحمد، و"**القرآن و إعجازه العلمي**" لمحمد إسماعيل إبراهيم، و" **الإسلام في عصر العلم** " لمحمد العمراوي، و"**معجزات الرسول، ألف معجزة من معجزات الرسول**" للدكتور مصطفى مراد، و"**مع الطب في القرآن الكريم**" لدياب و قرقور، و"**المعجزة العلمية في القرآن و السنة**" لعبد المجيد الزنداني و"**السنة والعلم الحديث**" لعبد الرزاق نوفل، و" **من روائع الإعجاز في القرآن**" للفندي محمد جمال الدين، و"**موسوعة الإعجاز العلمي في الحديث النبوي**" لعبد الرحيم المرديني ...

ويكفي أن نقول إنّ الإشارات العلمية الدقيقة في القرآن الكريم تبلغ 1200 آية، دون العلوم الإنسانية.

الفصل الثاني

العقل النقدي و العقل الدوغمائي: خطأ التشخيص و التقويم

1. التّاريخ الإسلامي و دعوى النقد:

يوجّه المؤلف سهام نقده إلى "المسلمات المعرفية" التي تستند إليها كتابة التاريخ الإسلامي.

قال: "*ولا تزال تلك المسلمات المعرفية الضمنية تؤثر تأثيرا كبيرا على كتابة المسلمين اليوم لتاريخ ما يسمونه " الإسلام " ، دون أن يميزوا بين ما فرضه* ***العقل الدوغمائي*** *على تصوراتهم للماضي البعيد و القريب و بين ما يفتحه الخطاب القرآني من آفاق عديدة متجددة للتفكير و التأويل و المعاني الاحتمالية والإبداعات الرمزية*" [1].

فما هو العقل؟

قال ابن منظور رحمه الله: « *العقل [. . .] ضد الحمق [. . .]، رجل عاقل و هو الجامع لأمره و رأيه، مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه [. . .] والعقل التثبت في الأمور ، و العقل القلب و القلب العقل، و سمي العقل عقلا لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك ، أي يحبسه ، وقيل: العقل هو التمييز الذي به يتميز الإنسان من سائر الحيوان ، و يقال: لفلان قلب عقول و لسان سؤول ، وقلب عقول فهم، و عقل الشيء يعقله عقلا فهمه ، . . .* »[2]

و الإسلام هو الدين الخاتم الذي بعث الله به محمدا صلى الله عليه و سلم. قال تعالى: ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ [3]

1. قضايا في نقد العقل الديني، ص 7.
2. لسان العرب ـ دار صادر ـ بيروت الطبعة الأولى ـ د. ت ج 11، ص 458 ـ 460.
3. سورة آل عمران : 3 / 19.

و قال: ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه ﴾ [1]

و قال: ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ [2]

و قال: ﴿ وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ [3]

و قال: ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين ﴾ [4]

إذن فالله سجانه هو الذي سمى دينه الذي ارتضاه لعباده بالإسلام، و ليس هذا الدّين مجرد " ما يسمونه بالإسلام " ! فهذه التسمية ليست وضعية و لا جزافية ولا أن الناس تواضعوا ـ فيما يتواضعون عليه من تسميات ـ فأطلقوها.

ويضع المؤلف ما يسميه بـ **"العقل النقدي"** مقابل **"العقل الدوغمائي"** الذي وصف به تلك المسلمات. علما أنّه لا يعتبر ما كتبه المؤرخون المسلمون أمثال ابن خلدون، والمسعودي ، وابن الأثير، والطبري، وابن كثير، وابن حيان القرطبي، وابن خلكان، وابن عبد الحكم، وتقي الدين المقريزي، ولسان الدين بن الخطيب، وابن حزم الأندلسي، والواقدي، وابن الجوزي، والذهبي، وغيرهم، تاريخا للإسلام، وإنما هو لشيء يدّعى أنه "الإسلام" ! كما هو واضح من الفقرة السابقة. والحق أننا إذا أخذنا كتابا من هذه الكتب التاريخية وجدناه يؤرخ للأحداث التي مرَّ بها العالم الإسلامي منذ البعثة المحمدية، بل منها ما يقدم نظرة عامة عن تاريخ الإنسانية قبل ذلك مثل كتاب "البداية والنهاية" لابن كثير، وهو كتاب موثوق مفيد نافع منضبط بقواعد الشريعة، متبع للآثار الصحيحة. لا ما يريده أركون وأتباعه وأضرابه من تأويل و نقد يمررون من خلالهما رؤية متغرّبة دخيلة لذلك التاريخ، ويقرأون في ضوئها القرآن الكريم مدّعين اقتفاءهم لما يفتحه من آفاق عديدة متجددة كما قال المؤلف.

ومع أننا لا نعتبر كل ما كتب من التاريخ الإسلامي فوق النقد، إلاّ أننا ندعو في كل عملية نقد لهذا التاريخ، إلى اعتماد المنهج الإسلامي سواء في الكتابة أو

1. سورة آل عمران: 3 / 84.
2. سورة الأنعام: 6 / 126.
3. سورة المائدة: 5 / 4.
4. سورة الزمر: 39 / 22.

في التفسير وفق ضوابط التصور الإسلامي للتاريخ، و انطلاقا مما صح من النصوص. إذ لا يجوز تجاوز النصوص القطعية الثّبوت، إلى إسقاط تأويلات تخمينية و ادّعاء إعادة كتابة التاريخ مع ذلك.

إن التاريخ الإسلامي لا يبدأ مع البعثة المحمدية فقط، بل يمتد إلى بدء الخليقة، عندما أوصى آدم عليه السلام أبناءه بالإسلام. و كان على المؤلف أن يدرس ما اشتمل عليه القرآن الكريم من قصص هو القصص الحق، قال تعالى: ﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾ [1]

وهو قصص من غيب الماضي، و هو من علم الله. و منه: قصص الأنبياء مع أقوامهم قصة بقرة بني إسرائيل، وقصة هاروت و ماروت، و طالوت، والذي مرّ على قرية، و تيه بني إسرائيل، وابني آدم، و أصحاب السبت، والذي انسلخ من آيات الله، و أصحاب الكهف، وأمّ موسى، وقارون، و لقمان، وسبأ، وأصحاب القرية، ومؤمن آل فرعون، وأخيرا أصحاب الأخدود.

إنّ لله حكمة وراء كل وضع ووراء كل حال، و مدبر هذا الكون كله المطلع على أوله و آخره، المنسق لأحداثه و روابطه، هو الذي يعرف الحكمة المكنونة في غيبه المستور، الحكمة التي تتفق مع مشيئته في خطّ السير الطويل لهذا الكون[2].

2 . آفاق البحث العلمي في الإسلام:

قال أرگون :«الواقع أن العقل الدوغمائي أغلق ما كان مفتوحا ومنفتحا، وحوّل ما كان يمكن التفكير بل ويجب التفكير فيه إلى ما لا يمكن التفكير فيه. ونتج عن ذلك تغلب ما لم يفكر فيه أثناء قرون طويلة على ما يجب التفكير والإبداع فيه. وبعبارة أخرى، يمكن القول بأن نزعة التقليد للمذاهب الأرثوذكسية و تكرارها قد تغلبت على إعادة التقييم لجميع المذاهب الموروثة والمسلمات التعسفية التي انبنت عليها. لقد تحدثت عن تلك المسلمات المعرفية في بحوث عديدة سابقة. واعتبرتُها بمثابة المنظومة المعرفية التي أصبحت مرجعية

1. سورة الأعراف: 7/ 176.
2. مع قصص السابقين في القرآن ـ مرجع سابق ـ ص 595.

مشتركة و ضرورية لما يسمى بـ" السياسة الشرعية" أو "اللاهوت السياسي"La théologie politique . و هذا اللاهوت هو المنافس المعارض للفلسفة السياسية la philosophie politique في الفترة الكلاسيكية من تاريخ الفكر الإسلامي (أي المرحلة الممتدة من القرن الثالث إلى الخامس الهجري) و ينبغي أن نذكر بهذا الصدد أن الفلسفة السياسية قد تشكلت بعد الحملة الفلسفية الحديثة التي حصلت في أوروبا ضد السياج الدوغمائي المغلق الذي شكله اللاهوت المسيحي »[1].

هل أغلق العقل الإسلامي ـ فعلا ـ ما كان مفتوحا و منفتحا ؟

إنّ الآفاق التي توسع فيها نظر أقطاب هذا العقل هي التي شقت للإنسانية الطريق نحو التقدم العلمي منذ عصر النهضة .ولاشك أن دعوة الإسلام إلى العلم، و البحث، و الاجتهاد، و السير في الأرض، و طلب الحكمة، و الإصلاح، و تعمير الأرض، دعوة تفتح هذه الآفاق باستمرار و لا تسدها .

و قد كان علماء الإسلام ـ سواء في مجالات العلوم الشرعية أو في مجالات العلوم الطبيعية ـ على وعي بهذا الفتح الذي فتحه الإسلام أمام المعرفة الإنسانية فهبوا للدؤوب على البحث و التحصيل و الاكتشاف. و هذه أسماؤهم خالدة في تاريخ الفكر الإنساني شاهدة على ذلك.

إن البحث العلمي في الحضارة الإسلامية بحث متحرر من كل القيود التي تتنافى مع حرية النظر و الموضوعية و الواقعية و الوضوح و الابتكار.و ما يجب أن نصفه بالدوغمائية هو الجمود على الأفكار المستوردة غير المناسبة لطبيعة المرجعية الإسلامية لأمتنا، و التحجر في الدعوة إلى التبعية، و الانسلاخ من جذور الهوية الإسلامية بدعوى "النقد " أو " العقل النقدي" . هذا العقل الذي يتطلب ـ هو نفسه ـ نقدا جذريا، يكشف خلفياته الاستلابية، ورؤيته العلمانية، و تهافته المنهجي.

---

1. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص 7.

لقد نبه الإسلام إلى ما للعلم من أثر في حياة الإنسان فرداً وجماعة فأمر به في أول آيات نزلت في القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿ بسم الله الرحمان الرحيم اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم ﴾[1] . وقال: ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب ﴾[2]

كما أقسم جل جلاله بالقلم دلالة على منزلته الرفيعة السامية في قوله: ﴿ بسم الله الرحمان الرحيم. ن والقلم وما يسطرون ﴾[3]

و قد جعل الرسول الأعظم العلم فريضة فقال : **(طلب العلم فريضة على كل مسلم)**[4].

إن الإكثار من ذكر العلم و الفكر و العقل في القرآن ظاهرة تستلفت النظر بشكل بارز ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾[5]. ﴿ قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾ [6]. ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾[7]. ﴿ إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾[8]. ﴿ قل انظروا ماذا في السموات و الأرض ﴾[9].

و من ثم فإن المتأمل يدرك أن الإسلام يفرض على المسلم أن يفكر، و يفرض عليه أن يتعلم، و أن العلم و الفكر جزءان من شخصية المسلم، في الوقت اللذان هما عند غير المسلم شهوة يتسلى بها ، أو باب معاش يرتزق منه، أو هواية عند بعض الأفراد، و إذ يفرض الإسلام طلب العلم ، فلأن بالعلم يعرف أن الإسلام حق ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد ﴾ [10].

1. سورة العلق: 96 / 1 ـ 5.
2. سورة الزمر: 39 / 9.
3. سورة القلم: 68 / 1.
4. من حديث أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله.
5. سورة النحل : 16 / 12.
6. سورة الأنعام: 6 / 97.
7. سورة النحل: 16 / 69.
8. سورة الروم: 30 / 22
9. سورة يونس: 10 / 101.
10. سورة سبأ: 34 / 6.

و العلم إدراك الشيء بحقيقته عن يقين، و العليم من أسماء الله الحسنى.

لقد بعث الله محمدا نبيا في قومه و رسولا إلى العالمين جميعا ليحمل إليهم الدين القيم و الشرع القويم. و في رسالة هذا الرسول صلى الله عليه و سلم أمران:

- أمر ديني.
- أمر دنيوي

وهما متلازمان لا ينفصلان، قوامهما الحكم وطبيعتهما السلطة، فكيف يقوم حكم دون مقوماته، وكيف تسير سلطة بغير جماعتها من أهل الاختصاص وأولي الأمر والنهي ؟! وكل من الحكم والسلطة لابد لهما من طائفة من الناس لتدبير شؤونهما يتولون سياسة الدولة، و رعاية مصالح البشر. وهذا لا يكون إلا بالعلم والفكر والعقل وهو ما يدعو إليه الإسلام إذا تدبرنا كل مقاصده. فهل تغلبت نزعة التقليد للمذاهب الأرثوذكسية و تكرارها على إعادة التقييم لجميع المذاهب الموروثة و"المسلمات التعسفية" التي انبنت عليها كما زعم المؤلف في حضارة تمجد العلم والفكر ؟!

3. عظمة المذاهب الفقهية:

وهل تقوم مذاهب الأئمة الأربعة (مالك وأبو حنيفة والشافعي وأحمد) على مسلمات تعسفية ؟!

إنّ الجواب المنطقي الصّحيح أن هذه المذاهب تقوم على مصادر التشريع الإسلامي التي اعتمدها أصحاب المذاهب بدءا بالمصدرين الرئيسين: الكتاب والسنة، وانتهاءً بالعرف و سد الذرائع، والأصول الأخرى. إنّ القرآن الكريم والسنة النبوية مصدران ربّانيان حقائقهما لا تعسف فيها، بل هي ضد التعسف، إذ تدعو إلى استخدام العقل بمنهج سليم، وتدل على أمهات الاستدلال الصحيح وقواعده، وتقيم البراهين بالطرق المعروفة عند علماء العقيدة والشريعة على اليقينيات التي تفتح العقل الإنساني لتأملها. وهي بذلك و مع ذلك تفتح باب الاجتهاد، و توجه إلى حرية الرأي، و احترام الغير في المناظرة أو المدارسة،

والاعتماد على الدليل و الدليل و حده، سواء أكان نقليا أم عقليا أم تجريبيا. إذ ما لا دليل عليه، غير مقبول في الفكر الإسلامي. و كلام أرگون السابق مما لا دليل عليه، فهو مردود. حيث قام الدليل القاطع على نقيضه.

لقد كان الإمام مالك رضي الله عنه يقول: «*لا يؤخذ هذا العلم من أربعة، ويؤخذ من سواهم: لا يؤخذ من سفيه، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو الناس إلى بدعته ولا من كذاب يكذب في أحاديث الناس و إن كان لا يتهم على حديث رسول الله ﷺ ولا من رجل له فضل و صلاح و عبادة إذا كان لا يعرف ما يحمل ويحدث به*» [1].

" و هذا كتاب (الرسالة) أول كتاب ألف في (أصول الفقه) بل هو أول كتاب ألف في (أصول الحديث) أيضا. قال الفخر الرازي في مناقب الشافعي (ص 57) : " كانوا قبل الإمام الشافعي يتكلمون في مسائل أصول الفقه، ويستدلون ويعترضون، ولكن ما كان لهم قانون كلي مرجوع إليه في معرفة دلائل الشريعة ،و في كيفية معارضاتها و ترجيحاتها، فاستنبط الشافعي علم أصول الفقه، ووضع للخلق قانونا كليا يرجع إليه في معرفة مراتب أدلة الشرع. فثبت أن نسبة الشافعي إلى علم أدلة الشرع كنسبة أرسطاطاليس إلى علم العقل "

و قال بدر الدين الزركشي في كتاب البحر المحيط في الأصول (مخطوط) : "الشافعي أول من صنف في أصول الفقه، صنف فيه كتاب الرسالة، وكتاب أحكام القرآن، واختلاف الحديث، وإبطال الاستحسان، وكتاب جماع العلم، وكتاب القياس"[2]

فهذا من نماذج انفتاح و إبداعية العقل الفقهي الإسلامي.

قال الشاعر:

عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى ✿ ومن يشتري دنياه بالدين أعجب

و أعجب من هذين من باع دينه ✿ بدنيا سواه فهو من ذين أعجب

1. الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء ـ ابن عبد البر ـ ص 16.
2. كتاب الرسالة ـ للإمام المطلبي محمد بن إدريس الشافعي ـ من مقدمة محققه وشارحه د. أحمد محمد شاكر، المكتبة العلمية بيروت ـ لبنان ـ ص 13.

و يكفي للدلالة على مدى الانفتاح و الحرية الفكرية في المذاهب الفقهية الإسلامية ما نقل عن الإمام الأكبر أبي حنيفة رحمه الله و هو قوله :«*هذا الذي نحن فيه رأي لا نجبر أحداً عليه ، و لا نقول : يجب على أحد قبوله بكراهية ، فمن كان عنده شيء أحسن منه فليأت به*»[1] . و من ذلك أن رجلا سأل الإمام مالك رحمه الله عن مسألة ذكر أن قومه أرسلوه يسأله عنها من مسيرة ستة أشهر . قال مالك : فأخبر الذي أرسلك بأني لا علم لي بها ، قال الرجل : ومن يعلمها ؟ قال مالك : من علمه الله قالت الملائكة : ﴿ لا علم لنا إلا ما علمتنا ﴾[2] .

فالحرية الفكرية منضبطة بالمسؤولية و الأمانة . و عظمة المذهب المالكي تتمثل في عدة جوانب علمية و إنسانية ، منها تعدد مصادر التشريع التي انفتح عليها ، و فتح العقول لاستيعابها و استثمارها ، و في هذا الصدد قال الشيخ أبو صالح محمد السكوري الفاسي (ت 653 هـ) :

" إن الأدلة التي بنى عليها مالك مذهبه ستة عشر : نص الكتاب ، و ظاهر الكتاب (وهو العموم) و دليل الكتاب (وهو مفهوم المخالفة) ، ومفهوم الكتاب (وهو باب آخر) ، و تنبيه الكتاب (و هو التنبيه على العلة كقوله تعالى : ﴿ فإنه رجس أو فسقا ﴾[3] ، و من السنة أيضا مثل هذه الخمسة ، فهذه عشرة . والحادي عشر الإجماع ، والثاني عشر القياس ، والثالث عشر عمل أهل المدينة ، والرابع عشر قول الصحابي ، والخامس عشر الاستحسان ، والسادس عشر الحكم بسد الذرائع ، واختلف قوله في السابع عشر وهو مراعاة الخلاف ، فمرة يراعيه ومرة لا يراعيه ، قال أبو الحسن : ومن ذلك الاستصحاب[4] وكذلك عدها سبعة عشر الشيخ حسن مشاط[5] .

---

1. الانتقاء لابن عبد البر ـ مرجع سابق، ص 140.
2. سورة البقرة : 2 / 32.
3. سورة الأنعام : 6 / 145.
4. البهجة شرح التحفة للتسولي، كتاب القسمة : 2 / 133.
5. الجواهر الثمينة : ص 117.

و قال الحجوي : إنها بلغت عشرين كما يأتي و أضاف ـ عند ذكره قول الصحابي ـ "المصالح المرسلة" و " شرع من قبلنا " و قال " فصارت الأصول عشرين"[1]. و هذا ما تلقفه عن القرافي في الفروق[2] و قال ابن السبكي :" إن أصول مذهب مالك ، تزيد على الخمسمائة"[3].

قال الحجوي :«ولعله يشير إلى القواعد التي استخرجت من فروعه المذهبية ، فقد أنهاها القرافي في فروقه إلى خمسمائة و ثمانية وأربعين ، وغيره أنهاها إلى ألف والمائتين كالمقري وغيره، لكنها في الحقيقة تفرعت عن هذه الأصول . والإمام لم ينص على كل قاعدة قاعدة، و إنما ذلك مأخوذ من طريقته و طريقة أصحابه في الاستنباط»[4][5].

و كان إمامنا مالك بن أنس رحمه الله أثبت الأئمة في حديث أهل المدينة عن رسول اللهﷺ و أوثقهم إسنادا و أعلمهم بقضايا عمر بن الخطاب و أقاويل ابنه عبد الله رضي الله عنهما ، و عائشة زوج الرسول رضي الله عنها و أصحابهم من الفقهاء السبعة : سعيد بن المسيب، و سليمان بن يسار، وأبي بكر بن عبد الرحمان، وخارجة بن زيد ، وعبيد الله بن عبد الله بن مسعود، و عروة بن الزبير ، و محمد بن القاسم رضوان الله عليهم أجمعين ، و بأمثاله قام علم الرواية و الفتيا ، و قد حدث وأفتى و ألف أوّل كتاب في الحديث : " الموطأ" الذي توخى فيه إيراد القوي من الحديث الشريف، و بوّبه على أبواب الفقه فأحسن و أجاد وأفاد، و اعتبر الموطأ ثمرة جهد لمالك في مدة أربعين عاما ، و هو أوّل كتاب في الحديث و الفقه ظهر في تاريخ التأليف، ووافق على ما جاء فيه سبعون عالما من معاصري المؤلف. و مع ذلك فحين أراد الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور كتابة عدة نسخ منه و توزيعها على الأمصار الإسلامية و حمل الناس على الالتزام بما فيه

1. الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي : 1 / 385 ـ 393.
2. الفروق: 1 / 128 .
3. طبقات الشافعية الكبرى.
4. الفكر السامي ـ مرجع سابق: 1 / 387 .
5. مجلة الواضحة العدد 3، 1426هـ ـ 2005م، عنوان الدراسة "أصول الاستدلال عند الإمام مالك" للدكتور الحسين آيت سعيد، ص. 70-71.

من الفقه حسما للخلاف كان الإمام مالك رحمه الله أول من اعترض على هذا العمل، و قال للمنصور: يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا ، فإن الناس قد سبقت لهم أقاويل و سمعوا أحاديث و رووا روايات وأخذ كل قوم بما سبق إليهم و أتوا به من اختلاف الناس ....[1]"

أليست في كل هذا آيات واضحات على مدى الانفتاح و الحرية الفكريين في الفقه الإسلامي؟ و كذلك هي نماذج الأئمة الآخرين الدّالة على عظمة الإبداعية، و قوة الاجتهاد، و سعة المذاهب، و حرية الفكر.

إن تاريخ الفكر الإسلامي لم يكن مطبوعا بتقليد المذاهب الموروثة بل هو مليء بتجليات الاجتهاد و الإبداع و إبداء الرأي في مختلف الجوانب.

و إن ما دفع أركون إلى تسطير تلك الاتهامات هو مجرد تبعيته للثقافة الغربية تبعية عمياء، فهو ـ كغيره من دعاة التغريب و الغزو الفكري ـ يتصور أن ما حدث في أوروبا أو الغرب يجب أن يحدث مثله في بلاد الإسلام . وكما ثار الفلاسفة على اللاهوت المسيحي و" سياجه الدوغمائي " يجب أن يثور هو وأمثاله على اللاهوت الإسلامي، وعلى الفكر الإسلامي المستند إلى هذا اللاهوت. يقول في ختام الفقرة السابقة : "وينبغي أن نذكر بهذا الصدد أن الفلسفة السياسية قد تشكلت بعد الحملة الفلسفية الحديثة التي حصلت في أوروبا ضد السياج الدوغمائي المغلق الذي شكّله اللاهوت المسيحي "[2].

4 . علم مقارنة الأديان:

ثم قال:" لا يزال معظم الباحثين (من مسلمين و غير مسلمين) يكتبون تاريخ الفكر الإسلامي بمعزل عن التاريخ المقارن للأديان والأنظمة اللاهوتية والفلسفية. وقد بيّنت أن كلود كاهين والباحثين الذين يشاركونه في استشعارهم بضرورة نقد المصادر القديمة قبل استعمالها لكتابة التاريخ، يتبنون المعجم الخاص بـ" السياسة الشرعية " دون أن يقارنوه بمعجم اللاهوت السياسي المشترك للأديان" المنزلة " ثم

1 . الفكر السامي ـ مرجع سابق ـ 1 / 336 . بتصرف.
2 . قضايا في نقد العقل الديني ـ ص : 7

بمعجم الفلسفة السياسية الحديثة قبل وبعد انفصاله عن المعجم اللاهوتي القديم الذي لا يخلو منه أي دين من الأديان. ومن المعلوم أن هذا الثاني قد انتصر على الأول في أوروبا. ويمكن الجزم هنا أيضا بأن الإطار المعرفي الذي يتشبث به الباحثون في الفكر الإسلامي و الدارسون للمجتمعات المنعوتة بالإسلامية لا يزال مرتبطا و متأثرا بالإطار المعرفي الإسلامي الموروث أكثر مما هو مرتبط بما كنت قد دعوته بالعقل الاستطلاعي أو المستقبلي la raison émergente . وأقصد به العقل الحديث الذي يطمح إلى التعرف على ما منع التفكير فيه وأبعد عن دائرة الاستطلاع و الاستكشاف لكي تبقى مشروعية أنواع السلطة و قداسة أنواع الحاكمية مؤثرة في المخيال الديني والسياسي تأثيرا ميثولوجيا، تقديسيا، تأليهيا، مهما كانت الظروف التاريخية و الأطر الثقافية و البيئات الاجتماعية والأوضاع الاقتصادية"[1].

نقول : إن علم مقارنة الأديان و نقدها علم إسلامي أصيل ، فقد سبق العلماء المسلمون كابن حزم وابن تيمية، و ابن القيم ، والشهرستاني ، وغيرهم إلى تأسيسه. وأما الدعوة إلى كتابة تاريخ الفكر الإسلامي ضمن التاريخ المقارن للأديان فيجب أن نتساءل عن الهدف منها ؟ فإذا كان الغرض المسبق هو إسقاط حيثيات ظروف تلك الأديان والأنظمة اللاهوتية والفلسفية و انعكاساتها على تاريخ الفكر الإسلامي، فهذا مالا يقبله المنهج العلمي السليم. وأما إذا كان الهدف هو المقارنة العلمية الموضوعية بين التاريخين فهذا شيء مشروع، وإنه ليكشف فعلا عن ملاءمة نتائج الفكر الإسلامي الصحيح للفطرة الإنسانية لأنه فكر نابع من مصدري الإسلام الرئيسين القرآن و السنة. و يكشف، في نفس الوقت، عن تناقضات الأديان المحرفة ـ و إن كانت أصولها الصحيحة سماوية ـ والأديان الوضعية ، وكلا التحريف و الوضع متضارب مع الفطرة الإنسانية النقية المطبوعة على توحيد الله سبحانه كما قال النبي ﷺ : **(كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة**

1. نفسه ـ ص : 8.

جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء)[1] وهذه الفطرة متلائمة مع الشريعة الإسلامية الحنيفة.

لقد أنزلت التوراة قبل الإنجيل . و لما نزل الإنجيل اضطهد اليهود المؤمنين به بشكل لا مثيل له في التاريخ تقريبا ، ولما نزل القرآن الكريم عاداه أهل التوراة وأهل الإنجيل إلاّ من هدى الله منهم ، وما ذلك إلاّ لأن القرآن قصّ عليهم فيه الله سبحانه أكثر الذي كانوا فيه يختلفون ، وفضح تحريفهم و تبديلهم و إخفاءهم ونسيانهم و تلبيسهم و كذبهم . قال تعالى : ﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعدما عقلوه وهم يعلمون** ﴾[2] .

و قال :﴿ **وقالت اليهود عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله. ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله، أنى يؤفكون. اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم . وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا. لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون** ﴾[3] .

فهذه التنبيهات القرآنية و مثيلاتها هي المنطلق الصحيح لكل مقارنة بين الإسلام واليهودية والنصرانية وذلك ما تؤكده الدراسات النقدية الحديثة في هذا الميدان .

وكان على أركون أن يقرأ ـ و بهدوء ـ رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين وجواب القاضي أبي الوليد الباجي عليها[4] ، و فيها بعد التعريف بالرسالة التعريف بالباجي ودعوته إلى توحيد الأندلس ، و ما بينه و بين ابن تيمية وابن حزم.

إن هدف أركون من الدعوة إلى مقارنة المعجم الخاص بـ " السياسة الشرعية" بمعجم اللاهوت السياسي المشترك للأديان " المنزلة " ، ثم بمعجم الفلسفة

---

1. أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وصححه واللفظ للبخاري.
2. سورة البقرة : 2 / 75 .
3. سورة التوبة : 9 / 30 ـ 31 .
4. دراسة وتحقيق الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي، دار الصحوة للنشر والتوزيع. القاهرة 1406 / 1986 وهي في 115 صفحة.

السياسية الحديثة قبل وبعد انفصاله عن المعجم اللاهوتي القديم الذي لا يخلو منه أي دين من الأديان ـ كما قال ـ هو بالفعل تذويب المعجم الأول (الخاص بالسياسة الشرعية الإسلامية) في دعاوى ما سماه بـ " اللاهوت السياسي المشترك للأديان والفلسفة الحديثة " إلخ حتى يتسنى لدعاة الحداثة الغربية إحكام القبضة على آليات إنتاج المعرفة في المعجم الإسلامي، وتطويعه لما تمليه السياسات الاستعمارية الثقافية الجديدة خاصة في مناخ العولمة المتوحشة.

إن السياسة الشرعية ـ كما بينها علماء فقه السياسة في الإسلام ـ لا تجعل الحاكمية لأحد غير الله سبحانه. و هذا وحده يبطل ما زعمه المؤلف من أن المعجم الخاص بالسياسة الشرعية يمنع التفكير في أمور معينة لكي " تبقى مشروعية أنواع السلطة و قداسة أنواع الحاكمية مؤثرة في المخيال الديني و السياسي تأثيرا ميثولوجيا ، تقديسيا ، تأليهيا . . . . " [1]

إن أي انحراف عن النهج القويم للسياسة الشرعية يؤدي لا محالة إلى إضفاء ما وصفه المؤلف. لكن ليس هذا بسبب " المعجم الخاص بالسياسة الشرعية"، ما دام معجما مستمدا من أحكام الشريعة، بل هو نتيجة الطغيان والاستبداد مما يستدعي الإصلاح طبقا لمقتضيات السياسة الشرعية وقواعدها لا الرجوع إلى فلسفات غربية مبنية على الهوى والمصلحة العاجلة والعلمانية والأطماع الاستعمارية.

قال د. إسماعيل الخطيب : " لا يعرف شرع مزج بين المصالح الدينية والدنيوية وصير هذه عين هذه، وبين قانون الاجتماع البشري والعدالة التامة بوجه يعم جميع المصالح الاجتماعية كالشرع الإسلامي.

و لذلك كان الخليفة الأعظم عندنا رئيسا دينيا و دنيويا معا، فهو جامع وظيفتين عظيمتين و لذا عرفوا الإمامة العظمى بأنها رياسة عامة في الدين و الدنيا توجب للمتصف بها أن يطاع فيما يستطاع.

ثم إن الفقه الإسلامي هو بأمر إلهي فالعمل به طاعة لله، و عدم العمل به معصية متوعد عليها في الدنيا و الآخرة"[2].

1. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص : 8.
2. في فقه السياسة ـ الطبعة الثانية، تطوان 1429 ـ 2008، ص 16 ـ 17.

و كما عرف د. إسماعيل الخطيب الفقه ، عرف السياسة و فقهها الذي هو نتاج العقل المسلم في تفاعله مع الوحي الإلهي ـ القرآن و السنة ـ فهما واجتهاداً و استنباطا للقواعد و الأحكام التي تضبط حركة الحياة الاجتماعية في جوانبها العديدة ،"و هذا الفكر يقبل إعادة النظر و المراجعة و التعديل و التطوير على ضوء معطيات الواقع الاجتماعي و السياسي في كل مرحلة و ذلك وفق الضوابط الإسلامية و في إطار التمييز بين الثابت و المتغير في الإسلام عقيدة و شريعة " على حد تعبير د. فوزي خليل في كتابه " **دور أهل الحل و العقد في النموذج الإسلامي لنظام الحكم** "[1].

و أكد المؤلف أن الفقه تناول بالبحث و الدراسة جميع النواحي التي تتطلبها الدولة سواء منها ما ينظم علاقة الأمة الإسلامية بالأفراد الأجانب المقيمين بها أو المتعاملين مع أفرادها ، و هو ما يسمى حديثا بالقانون الدولي الخاص ، أو كان ينظم علاقات الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم مما يسمى القانون الدولي العام، أو كان ينظم العلاقات الداخلية في الأمة، عاما كالقانون الدستوري و الإداري والمالي والجنائي أو خاصا كالأحكام المتعلقة بالأسر و سائر القوانين المدنية و التجارية وما يتعلق بذلك كله من نظم المرافعات .

و من المصادر المطبوعة التي يمكن للقارئ الرجوع إليها للتعمق في فقه السياسة "كتاب الخراج" لأبي يوسف (113 ـ 182هـ) و"الأحكام السلطانية" لأبي الحسن الماوردي (364ـ450هـ)و "الذهب المسبوك في وعظ الملوك" لمحمد الحميدي (420ـ 488هـ) و"التبر المسبوك في نصيحة الملوك" لأبي حامد الغزالي (451ـ505هـ) و "سراج الملوك" لمحمد بن الوليد الطرطوشي (451 ـ 520هـ) و"السياسة الشرعية في إصلاح الراعي و الرعية" لابن تيمية (661 ـ 728هـ) و"الطرق الحكمية في السياسة الشرعية" لابن قيم الجوزية (696ـ751هـ) و"إكليل الكرامة في تبيان مقاصد الإمامة " لسيد صديق حسن خان (توفي سنة 1307هـ) و"التراتيب الإدارية" ، لعبد الحي الكتاني (توفي سنة 1382هـ)

---

1. ص 64.

و من النماذج النبوية لتطبيق مبدأ الشورى أن النبي صلى الله عليه و سلم استشار أصحابه في الخروج إلى المشركين في غزوة أحد ، فاختلف مع فريق منهم و كانوا أكثر عددا ، و هم القائلون بلزوم الخروج مع أنه كان ﷺ يرى مع فريق آخر غير هذا الرأي ، و لكنه أخذ برأي الأكثرية و خرج . وهكذا وضع الرسول ﷺ أول أصول حكم الشورى ، و لو كان في رأي الأقلية رجحان ، فقد كان رأي النبي ﷺ أرجح في غزوة أحد في العام الثالث من الهجرة ، ولكنها الضرورة السياسية لتعليم الأمم و ترسيخ روح الشورى و احترام رأي الأكثرية الغالبة[1] .

1 . ينظر ، في هذا الصدد ، كتاب «فقه السيرة ، دراسات منهجية علمية لسيرة المصطفى عليه السلام وما تنطوي عليه من عظات ومبادئ وأحكام» د . محمد سعيد رمضان البوطي ، دار الفكر . ص : 241 ـ 242 .

الفصل الثالث

عقل استطلاعي أم عقل استنساخي؟

1. الخطاب الإلهي و الخطابات البشرية:

إن ما سماه المؤلف بـ" العقل الاستطلاعي "والاستكشافي" و"الإبداعي" لا يعدو أن يكون ـ عند التمحيص ـ عقلا اتباعيا، أو قل هو عقل استنساخي لمنطلقات وفلسفات أجنبية. وأما العقل الإبداعي فلا يمكن أن يتحقق مع التنكر للاجتهادات العلمية المتراكمة في الفكر الإسلامي، ودون استثمار الحقائق القرآنية والسنية في إنتاج المعرفة وتطوير العلوم قبل ذلك.

قال أركون: «*إن العقل الاستطلاعي الجديد يكافح على جميع الجبهات، وإنه لا ينحاز للغرب أو للشرق، إلى الدين أو الدنيا، إلى سياسة شرعية لاهوتية أو فلسفة إيجابوية علمانوية. بل إنه ينتمي إلى مذهب الاتهام الفلسفي المنهاجي البناء، هذا المذهب الذي يشك في كل ما ينطق به العقل و يحاول تأسيسه كمذهب لا مذهب سواه أو بعده، ثم يفرضه الإنسان بالقوة على الإنسان ! ويعلم هذا العقل منذ الكفاح الذي انطلق فيه التيار المعروف بالمعتزلة في قضية خلق القرآن، أنه لا سبيل البتة للعقل البشري أن يتوسط بين الخطاب الإلهي / والخطابات البشرية، دون أن يضع الأول في السياقات الدلالية و القوانين البلاغية و الوسائل الاستنباطية و المبادئ المنطقية التي تتصف بها الثانية*»[1].

قلنا إن ما يسميه المؤلف عقلا استطلاعيا ما هو إلا عقل استنساخي إتباعي تقليدي، يقلد دعوات الفكر الغربي. و لذلك فهو عقل مغرب أو مستلب. و من ثم فإن زعم أركون أن هذا العقل لا ينحاز للغرب غير صحيح.

---

1. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص9 .

فهذه منطلقاته و استشهاداته و غاياته كلها تدل على انحيازه إلى الغرب ثقافة ورؤية و منهاجا. و كذلك ما ادعاه من عدم الانحياز إلى الدنيا لا يصح، إذ لو كان منحازا إلى الدين لاتخذ منهاجه نبراسا له في التصور و النقد والتقويم. و الحال أنه يناهض الدين. و أما زعمه أن هذا العقل لا ينحاز لفلسفة علمانوية فباطل أيضا وقد صرح قبل قليل بأن اللاهوت السياسي يستند إلى مرجعية ذات مسلمات تعسفية، حسب زعمه (أو ما سماه بالعقل الدوغمائي)[1].

ويدل على انحيازه للعلمانية أو العلمانوية كثير من أقواله في كتبه، و منها هذا الكتاب. وما سماه بـ " الاتهام الفلسفي المنهاجي البناء" فإنما الهدف منه خلخلة ثوابت " العقل الديني" و مساءلة مرجعيته، و بالتالي تيسير نشر دعوات التغريب و العلمنة و اللادينية بين المنتمين إلى المجال التداولي لهذا العقل، وهم المسلمون. و آلية هذا الاتهام المغرض الشك كما صرح أركون بذلك. و يكشف المؤلف عن مرجعية من مرجعياته ـ أو على الأقل ـ عن نموذج من نماذج التشكيك والمساءلة الخارجة عن حدود الشرع إلى ما لا يجوز للعقل البحث فيه و ما هو فوق طور العقل . وهذا النموذج هو المعتزلة كما أشار إلى ذلك خاصة في موقفهم من قضية خلق القرآن الكريم.

ونحلل الآن قوله: «أنه لا سبيل البتة للعقل البشري أن يتوسط بين الخطاب الإلهي / والخطابات البشرية، دون أن يضع الأول في السياقات الدلالية و القوانين البلاغية و الوسائل الاستنباطية و المبادئ المنطقية التي تتصف بها الثانية».[2]

قال الله تعالى: ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾[3]. وقال: ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها؟! ﴾[4]. وقال: ﴿ أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين ﴾[5] و قال: ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾[6].

1. ينظر حديثه السابق عن «اللاهوت السياسي» (السياسة الشرعية) مقابل الفلسفة السياسية...
2. قضايا في نقد العقل الديني. ص: 9.
3. سورة القمر: 54 / 17 .
4. سورة محمد: 47 / 24 .
5. سورة المؤمنون: 23 / 68.
6. سورة ص: 38 / 29.

و ما دام الله عز و جل أنزل القرآن الكريم لهذه الغاية الشريفة التي هي وظيفة سامية للعقل، فلاشك أنه وهبه من الوسائل ما ييسر له هذا العمل التدبري. ومن ذلك إتقان علوم البلاغة و اللغة و البيان و الدلالات وعلوم القرآن من ناسخ ومنسوخ وأسباب النزول و غيرهما وعلوم الحديث خاصة ما ساعد منها على تفهم مقاصد الآيات و هو التفسير بالمأثور. فالقرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، و لفهمه لابد من إتقان هذا اللسان، وإتقان العلوم المتصلة به، ودراسة العلوم التي اشترط العلماء الإحاطة بها لمن أراد تفسير كتاب الله العزيز.

ونحن لا نقول كما قال المؤلف: إن العقل البشري لا سبيل له إلى أن يتوسط بين الخطاب الإلهي و الخطابات البشرية إلا بأن يضع الخطاب الأول في شروط إنتاج الخطابات الثانية، فهذا غير صحيح، إذ لا ينبغي أن ينسى أرگون أن للتفسير مرجعية مأثورة، و قواعد مضبوطة قائمة على تفسير القرآن بالقرآن أولا ثم بالحديث ثانيا ثم بأقوال الصحابة و التابعين ثالثا، وهذا ما يوفر للمفسر زادا مأثورا هو المنطلق المحكم السليم لكافة التفاسير المقبولة. فلا يمكن لتفسير مقبول أن يناقض تفسيرا قرآنيا (أي ما فسر القرآن من القرآن نفسه) أو تفسيرا سنيا (أي تفسير النبي ﷺ) أو قاعدة لغوية صحيحة، أو عرفا تداوليا مما تعارفت عليه العرب في خطاباتها. فقبل قانون وشروط اللغة، ثمة التفاسير المأثورة. وبهذا لا يتيه التدبر أو ما سماه المؤلف بالتوسط بين الخطاب الإلهي (القرآن الكريم) والخطابات البشرية في شروط هذه الخطابات، بل يستفيد منها في التدبر محترما شروط و حدود التفسير المقبول كما أشرنا إليها آنفا. وإنما يتيه في الخطابات البشرية من حاول قراءة القرآن الكريم قراءة وضعية منقطعة عن الإرشادات التفسيرية الإلهية و النبوية والسلفية. ولاشك أن هذه المحاولة تحكمها العلموية والعلمانية اللتان يقوم عليهما منهجها الخاطئ لقراءة القرآن الكريم قراءة حداثية. فيضيع أصحابها المرجعية التفسيرية المأثورة ويقعون فريسة التوهمات والتخرصات المنكرة.

و قد تزايدت هذه القراءات الحداثية الضالة مع تزايد الغارة الغربية على العالم الإسلامي في هذا العصر، وهي قراءات بأقلام مستشرقين و كتاب عرب متغربين ينتسبون إلى بلاد المسلمين!

إن القرآن الكريم حث الإنسان على استعمال عقله، وجعل من لم يستعمله أدون من الحيوان. قال تعالى: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها. أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾[1] ومثل هذا التأكيد على ضرورة التفكير كثير في القرآن والسنة وأقوال الفقهاء. لكننا نجد في نفس الوقت لدى العلماء وعيا عميقا بحدود العقل. فعلى سبيل المثال: عن ابن شبرمة قال: دخلت أنا وأبو حنيفة على جعفر بن محمد بن الحنفية فسلمت عليه، وكنت له صديقا. ثم أقبلت على جعفر و قلت له: أمتع الله بك. هذا رجل من أهل العراق و له فقه و عقل. فقال لي جعفر: لعله الذي يقيس الدّين برأيه؟ ثم قال: أهو النعمان؟ فقال أبو حنيفة: نعم أصلحك الله. فقال جعفر: اتق الله ولا تقس الدين برأيك، فإن أول من قاس إبليس، إذ أمره الله بالسجود لآدم فقال: ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾[2].

ثم قال لأبي حنيفة: أخبرني عن كلمة أولها شرك و آخرها إيمان؟ فقال أبو حنيفة: لا أدري. قال جعفر: هي لا إله إلا الله. فلو قال: لا إله، ثم أمسك، كان كافرا. فهذه كلمة أولها شرك و آخرها إيمان. ثم قال له: ويحك أيهما أعظم عند الله: قتل النفس التي حرم الله أو الزنا؟ قال: بل قتل النفس، فقال جعفر: قبل في قتل النفس شاهدين، و لم يقبل في الزنا إلا أربعة، فكيف يقوم لك قياس؟ ثم قال: أيهما أعظم عند الله: الصوم أو الصلاة؟ قال: بل الصلاة. قال:" فما بال المرأة إذا حاضت تقضي الصيام و لا تقضي الصلاة؟ اتق الله يا عبد الله ولا تقس...."[3].

---

1. سورة الأعراف: 7/ 179.
2. الأعراف: 7/ 12.
3. إعلام الموقعين عن رب العالمين ـ ابن قيم الجوزية: 1/ 255 ـ 256.

2. تضليل وتشويه:

إن أرگون الذي يكتب معظم كتاباته باللغة الفرنسية و هي موجهة أولا إلى من يتقنون هذه اللغة، و في مقدمتهم أهلها في البلاد الفرنكفونية، إنما يروج تصورات خاطئة عن الإسلام، و القرآن الكريم، والسنة النبوية، وتاريخ الفكر الإسلامي، وبالتالي يمكننا القول إن سوء فهم الغربيين للإسلام ناجم عن عوامل عديدة منها مثل هذه الكتابات الموجهة إليهم بالدرجة الأولى، لا حسب لغته فقط، بل حسب طبيعة خطابها و منطلقاتها و غاياتها و مضامينها كذلك. فهي من الغرب و إلى الغرب ترجع. وقد روج لها في البلاد العربية مترجم أعمال محمد أرگون إلى اللغة العربية د. هاشم صالح. لكننا لا ننكر أن مع هذا التضليل و التشويه هناك علماء و حكماء من الغرب أنصفوا الإسلام و تسلحوا بمبادئ للرد على الحملات التشويهية في أوروبا و أمريكا. و من الكتب التي جمعت بعض أقوالهم كتاب للدكتور حسيني حسيني معدى بعنوان " شهد شاهد من أهلها، علماء و حكماء من الغرب أنصفوا الإسلام" [1]. وكتاب " قالوا عن الإسلام ـ رسائل إلى سلمان ر شدي من كبار مفكري وفلاسفة العالم المسيحي"[2] لسيد حافظ أبي الفتوح جمع فيه جملة من آراء الفلاسفة و المفكرين والمستشرقين الغربيين و آراء الأدباء و الشعراء المسيحيين. وهو يتألف من 198 صفحة. وكتاب "شهادات وإشادات علماء الغرب وأدبائه بقدر الإسلام و نبيه الكريم ﷺ"[3] للصديق بن محمد بن قاسم بوعلام.

إن مقولات وأحكام محمد أرگون تؤكد انتماءه إلى مدرسة الاستشراق في صيغة تحكيم العلوم الإنسانية الحديثة في قراءة الإسلام، وما يسمى بنقد العقل الإسلامي. وهي حلة برّاقة مزركشة بـ"الوعود" لكنها تظل مجرد دعاوى تتكرر في ما سماه المؤلف ـ وهو يبدئ في ذلك ويعيد ولا يمل من الإعادة ـ بـ" مشروع نقد العقل الإسلامي " .

---

1. دار الكتاب العربي دمشق ـ القاهرة ط 1 ـ 2007.
2. صدر عن مكتبة مدبولي ـ القاهرة 1409 / 1989.
3. لم ينشر بعد.

و هذا ما لاحظه د.الحسن العباقي أيضا حيث قال: "لا مبالغة إذا قلنا إن هذه الخاصة (يقصد آفة التكرار في كتابات أركون) هي الأجلى على الإطلاق في كتب أركون ليس على مستوى الأفكار فحسب، بل على مستوى الفصول والمباحث أيضا حيث تجد فصولا ومباحث معينة في أكثر من كتاب، أما ما يتعلق بالأفكار والاستشهادات فقد يكررها أكثر من مرة في المؤلف الواحد، ولا يجد أي حرج في ذلك، بل إنه يدافع عنه، و يأتي له بالشواهد..."[1].

يقارن أركون بين الأدبيات الإسلامية التراثية أو التقليدية واسعة الانتشار ـ حسب وصفه ـ و ما يسميه بالكتب العلمية التي تقدم صورة تاريخية أو واقعية موضوعية عن الإسلام [2]. كأن الكتابات التي تشمل التراث التفسيري والحديثي والفقهي والصوفي و الأصولي الإسلامي إلخ... بعيدة عن الواقع والموضوعية ومليئة بما يخالف العلم والمنطق والتاريخ!

وهذا خطأ في التقويم، بل تعتيم و تمويه يجب التنبيه إليه، والتأكيد على أن تراث المعرفة الإسلامية مبني على قواعد علمية سليمة، ومستمد من نصوص الشريعة السمحة، وله قوانينه المنهجية الدقيقة، وضوابطه العلمية الصحيحة.

فهو يُراعي الواقع والمنطق العلمي السليم والوقائع التاريخية الثابتة التي لا تراعيها ادعاءات المستشرقين و غيرهم ممن يدعون وضع قراءات جديدة تأتي بما لم يأت به الأوائل و تكون جديرة بالواقعية و الموضوعية مع أن أصحابها لا يفقهون من قواعد و آليات و ضوابط التراث الإسلامي و نصوصه التأسيسية الشرعية إلاَّ القليل!

ولو كانت تلك "المناهج العلمية" التي طالما تغنى بها المؤلف في كتبه و التي تنتمي إلى العلوم الإنسانية الغربية تحترم الحقيقة و الموضوعية لما انتقد أركون نفسه مواقف أصحابها من الإسلام و المسلمين. فكيف ينتقدها و يتغنى بها في ذات الوقت ؟ هذا ما لا يقبله العقل السليم.

---

1. القرآن الكريم والقراءات الحداثية ـ مرجع سابق، ص: 96.
2. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص: 18.

قال:" فالشيء المتوقع هو أن يحارب الباحث العلمي الأحكام المسبقة أو الكليشيهات المكرورة و يفككها، لا أن يتبناها و يرسخها!.. لقد اصطدمت أنا شخصيا ببعض هؤلاء الزملاء المستشرقين أو المستعربين، و بينهم أناس مشهورون جدا (ولكن لا أريد أن أذكر أي اسم هنا) . لقد صدمت بهم و بمواقفهم المتشنجة تجاه كل ما هو عربي أو مسلم. و هي مواقف مضادة للروح العلمية التي يفترض بأنهم يطبقونها في مجال البحث العلمي"[1].

ويعبر المؤلف عن سعيه لنسف قواعد العقائد و اليقينيات بقوله :" أحلم بجمهور مستعد لتلقي البحوث الأكثر انقلابية و تفكيكا لكل الدلالات والعقائد واليقينيات الراسخة. فهذه البحوث الريادية أو الاستكشافية هي وحدها القادرة على فتح الأبواب الموصدة للتاريخ" [2] !

وقال : " وإذا كنت ألح على هذا التوجه أكثر من الباحثين الآخرين، فإن ذلك عائد إلى انشغالي منذ زمن طويل بتأويل النص المقدس أو الذي قدسه تراكم الزمن و مرور القرون. أقول ذلك و أنا أعلم أن الغاية المستمرة لهذا النص المقدس تكمن في ترسيخ معنى نهائي وفوق تاريخي للوجود البشري"[3].

إن هذا القول يضع قدسية نصوص الوحي (القرآن و السنة) بين قوسين، بل ويجعلها مستهدفة بالبحث النقدي الذي يريد صاحبه نزع تلك القدسية عنها، وإفراغها من المعنى الإلهي أو التفسير السماوي الرباني لوجود الإنسان في هذه الحياة. و كثيرا ما سمعنا مثل هذه الدعوات إلى القراءة التاريخية لنصوص الإسلام المقدسة، قراءة تنزع عنها " مفارقتها" للتاريخ، كما يزعم أصحابها، وتستنطقها أو تفككها بوصفها معطى تاريخيا، لا بوصفها نصوص وحي، وذلك قصد مجاوزة ما وصفه المؤلف بالمعنى النهائي وفوق التاريخي للوجود البشري. إذ البديل لدى أصحاب هذا الطرح هو التفسير المادي أو الوضعي الذي تدعو إليه الفلسفات الغربية بما فيها" العلوم الإنسانية".

1. نفسه، ص: 20.
2. نفسه، ص: 20.
3. نفسه، ص: 21.

3. قدسية نصوص الوحي:

ومما يدل على أن ما يكتبه أركون لا يجد قبولا لدى المتلقي المسلم لمنافاته لثوابت الإسلام ـ عقائد و شرائع و تصوّرات و قيما ـ وكذلك بسبب ما ينطوي عليه ذلك النقد المزعوم من نزعة تشكيكية أفصح عنها المؤلف عدة مرات، قوله: " أما من الناحية الإسلامية فإن المثقفين مضطرون للتركيز على هويتهم الإسلامية ولإشهارها حتى لا يشتبه بهم. وهذا ما يمنعهم من التفكير النقدي بالملابسات الإيديولوجية التي ينطوي عليها كل انتماء عاطفي للهوية. وهكذا نجد أن التواصل مع كلا الجمهورين: الأوروبي و الإسلامي يصبح متعذرا بل ومستحيلا نظرا لحاجاتهما المتناقضة و تصوراتهما المتضادة عن الظاهرة نفسها. وهكذا يخسر باحث مثلي كلا الجمهورين ولا يعود له جمهور لا هنا ولا هناك!"[1].

إن الغرض من النزعة التشكيكية في هذه الكتابات خلخلة اليقينيات، وتفكيك الأسس التي يقوم عليها الإسلام! وهذا ما يجعلها مرفوضة أصلا وفرعا لدى القارئ المسلم.

أما لماذا لم تلق كتابات أركون ترحابا لدى المثقف الغربي نفسه فلأنه يصنفه غصبا عنه ـ كما قال ـ في فئة " المثقفين المسلمين ". أي أن الغربيين لا يرضون من أركون و أمثاله إلا بالتنصل حتى من صفة " المسلم". ولذلك قال مصدوما بهذا الموقف الغربي: " لماذا يلح الأوروبيون، أو الغربيون بشكل عام، على إلصاق هذه الصفة (صفة المسلم) بأولئك المثقفين الذين بذلوا جهودا كبيرة و متواصلة من أجل التوصل إلى مرحلة الحرية و الاستقلالية و المسؤولية الفكرية؟ لماذا يلصقونها على أولئك الذين حاولوا إقامة مسافة نقدية بينهم و بين أنفسهم أو بينهم و بين قناعاتهم الذاتية الأكثر حميمية والأكثر رسوخا منذ مرحلة الطفولة ؟ ألا يدركون مدى الثمن الذي ندفعه إذ ننخرط في الدراسة النقدية للتراث الإسلامي و ننفصل عن عصبياتنا الأكثر طبيعية و مشاعرنا الأكثر معزة على قلوبنا ؟ فما إن يحمل الواحد منا اسما مسلما أو عربيا حتى يصبح مشتبها به

1. نفسه، ص: 21.

من الناحية العلمية. يكفي أن يكون اسمك " محمد" مثلي أنا لكي تصبح غير قادر على التقيد بقواعد البحث العلمي خصوصا إذا ما كان مطبقا على الإسلام !"[1].

قال الله تعالى: ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم. قل إن هدى الله هو الهدى . ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير﴾[2].

إن قداسة نصوص الوحي الإسلامي (القرآن و السنة) ذاتية ربانية لم يضفها الناس عليها، بل تحملها هي ذاتها في حقيقتها، بخلاف "القداسة" التي أضفتها المجامع الكنسية على النصوص المحرفة "للكتاب المقدس" . ولاشك أن إسقاط مفهوم "القداسة" وحمولتها في الفكر الغربي الديني ، ومفهوم "سحب القداسة" عن هذه النصوص كذلك في النقد الغربي (العلماني) لا شك أن إسقاط هذين المفهومين على مفهوم "قدسية" نصوص الوحي الإسلامي هو ما جعل المؤلف يعتبر هذه القدسية من إضفاء الناس على تلك النصوص ! وهذا من نتائج الاستلاب الفكري والتقليد الأعمى للمناهج الغربية و التصورات العلمانية الخاطئة، ومقارنة الأديان مقارنة لا تأخذ بعين الاعتبار الفروق الواضحة بين نصوص الوحي الصحيحة والنصوص المحرفة التي يدعي أصحابها قدسيتها وهي عارية عنها !

"فحين يغض الباحث طرفه عن بعض الخصائص اللصيقة بدين أو مذهب ما، والحاسمة في القضية التي يتناولها بدعوى الحياد و عدم الانحياز يكون منحازا للأديان أو المذاهب أو اللغات أو الفلسفات الأخرى على حساب تلك، ويضرب العلمية في عمقها، لمساواته ما لا يخضع للتساوي، وهذا ما يفعله أركون حين يلغي أي خصوصية للإسلام مقابل غيره من الأديان، و للقرآن مقابل غيره من الكتب المقدسة، ومن أمثلة ذلك موقفه الآتي : "أقول إن القرآن ليس إلا نصا من جملة نصوص أخرى، تحتوي على مستوى التعقيد نفسه و المعاني الفوارة الغزيرة

1. نفسه، ص: 21 ـ 22.
2. سورة البقرة: 2 / 120 .

كالتوراة، والأناجيل، و النصوص المؤسسة للبوذية أو الهندوسية" [1] فهل هناك حياد في تسوية القرآن بالتوراة ؟ وقد أثبتت البحوث العلمية المقدمة من اليهود قبل غيرهم أنه كتاب يروي تاريخ بني إسرائيل[2] ولا علاقة له بالوحي، أو بالأناجيل التي سميت بأسماء مؤلفيها، وتحتوي من التناقضات على ما يوجب القول بتاريخيتها و بشريتها، أو بالنصوص المؤسسة للبوذية أو الهندوسية مع أنها أقوال و حكم، و الأولى البحث وربما التنقيب عما يمكن أن يجمع بينها وبين القرآن، و الأرجح أنه ليس هناك غير كونها مقدسة عند أصحابها، مثلما هو مقدس عند المسلمين.

فهل في مساواة القرآن بها حياد وعدم انحياز؟!

سيكون جواب أركون لا محالة أن هذا الكلام منبعث من قناعات إيمانية، تغلب الانتماء العاطفي على المنطقية و العلمية الضروريتين في هذه البحوث بينما لا يخفى أن أكبر ما يطعن في العلمية تعميم الأحكام على المواضيع المختلفة، كما هو الشأن في تعامله مع القرآن كأي نص ديني آخر، لكونه مقدسا عند أصحابه"[3].

قال الله تعالى: ﴿ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾[4]

وقال: ﴿ سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك، يحرفون الكلم من بعد مواضعه ﴾ [5]

وقد تحدث الشيخ العلامة رحمت الله بن خليل الرحمان الكيرانوي العثماني الهندي في كتابه " إظهار الحق" ضمن الفصل الثاني من الباب الأول "في بيان أن أهل الكتاب لا يوجد عندهم سند متصل لكتاب من كتب العهد العتيق و الجديد"

---

1. الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، ص 35 ـ 36.
2. سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، دار الطليعة بيروت الطبعة الرابعة 1997 بترجمة وتقديم حسن حنفي مراجعة فؤاد زكرياء، ص 277 وص 283.
3. القرآن الكريم والقراءات الحداثية ـ مرجع سابق ـ ص 45.
4. سورة النساء: 4 / 46.
5. سورة المائدة: 5 / 41.

تحدث عن ضرورة السند المتصل للكتب السماوية، وبين أن أسفار التوراة ليست متواترة لانقطاع سندها، وأن فيها أغلاطا كثيرة، و أن الاضطراب شامل لمعظم أسفارها و بخاصة كتب الأنبياء الملحقة بها، و ضرب أمثلة على ذلك، ثم بين ضعف سند الأناجيل واختلاف النصارى في صحتها، و أن هذا يفقد كتب العهدين الثقة فيها، ويسقط الاحتجاج بفقراتها. وبيّن في الفصل الثالث من نفس الباب أن هذه الكتب مملوءة بالاختلافات و الأغلاط، وأبطل في الفصل الرابع ادعاء أهل الكتاب إلهامية كتبهم بسبعة عشر وجها، وبين الاختلافات بين الكاثوليك و البروتستانت في صحة هذه الكتب، ثم استشهد بأقوال علمائهم على عدم إلهاميتها، كما بين اختلاف متى و مرقس في التحرير، و أن التوراة الأصلية و الإنجيل الأصلي مفقودان قبل بعثة سيدنا محمد ﷺ.

وتعرض في الباب الثاني لإثبات التحريف في كتب العهدين بجميع أنواع التحريف: التحريف اللفظي بالتبديل،و التحريف اللفظي بالزيادة، والتحريف اللفظي بالنقصان[1].

فلا تجوز المساواة بين هذه الكتب المحرفة و بين القرآن الكريم الذي نقل إلينا بالسند المتصل، وبالتواتر القطعي اليقيني، فهو محفوظ بحفظ الله كما قال سبحانه: ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[2]. وقال: ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[3].

4 . الإيمان ووظائف العلماء:

و من ردود الفعل الغربية على كتابات محمد أركون ما حكاه بقوله: "أو يقولون لي بشكل معاكس و انتقادي: ما الذي تفعله؟ أنت تردد بشكل ناقص الأفكار و المواقع و الانتقادات نفسها التي كنا نحن الغربيين قد بلورناها تجاه

---

1. إظهار الحق ـ 4 مجلدات ـ دراسة وتحقيق وتعليق الدكتور محمد أحمد محمد عبد القادر خليل ملكاوي دار الحديث ـ القاهرة.
2. سورة الحجر: 15/ 9.
3. سورة فصلت: 41/ 42.

تراثنا الديني منذ زمن طويل: أنت لم تأت بشيء جديد. كل ما تفعله شيء تافه، مللنا منه، عفا عليه الزمن. اذهب وصدر هذه الأفكار الساذجة إلى أبناء قومك، فلا ريب في أنهم بحاجة إليها. أما نحن فقد تجاوزناها منذ عدة قرون. فأنتم لم تشهدوا الحداثة ولم تعرفوها"[1]. "وأنت تنتحل كانط أو تسرقه إذ تتحدث عن نقد العقل الإسلامي (على غرار نقد العقل الخالص أو نقد العقل العملي....)، إنك تسرقه بشكل مبتذل وغير دقيق"[2].

فهذا من تبرؤ المتبوعين من التابعين المنبهرين!

ويرى المؤلف أن على الإيمان أن يصغي إلى ما يقوله العقل وما توصلت إليه علوم الإنسان و المجتمع، كأن حقائق الوحي يجب أن تخضع لهذه العلوم، لا أن على هذه العلوم أن تستلهم تلك الحقائق و تسترشد بها بل وتنطلق من قواعدها الثابتة، لأنها قواعد ربانية، وحقائق إلهية.

قال أركون: «في هذه الفئة بالذات (يقصد الفئة الجامعية الأكاديمية) يظهر المثقفون الذين يجهرون صراحة بإيمانهم و يعبرون عنه بطريقة نقدية مملاة عليهم من قبل الهاجس الروحي و الأخلاقي أكثر مما هي مملاة عن طريق الالتزامات الفكرية لعقل لا يتراجع عن ممارسة مسؤوليته حتى في المجال الذي يدعوه اللاهوتيون (أو الفقهاء) بالوحي. ولا أقصد بذلك بأنه يمكن لهذا العقل أو ينبغي عليه أن يملي حله (أو رأيه) على الإيمان. ولكن ما يستطيع هذا العقل أن يقوله انطلاقا من آخر ما توصلت إليه علوم الإنسان و المجتمع من بحوث ينبغي أن يصغي إليه الإيمان أو يهضمه»[3].

كثيرا ما يحيل أركون إلى المعتزلة، داعيا إلى استئناف حركتهم، وهم كما قال عنهم ألفريد جيوم في دراسته "الفلسفة وعلم الكلام" [4]:

1. قضايا في نقد العقل الديني-ص: 23.
2. نفسه، ص: 23.
3. نفسه، ص: 27.
4. دراسة منشورة في كتاب «تراث الإسلام» تصنيف وإشراف أرنولد، ترجمة جرجس فتح الله، ط1، بيروت سنة 1972.

"إن عبارة قال الله تعالى ما كانت تقوى على إسكات المعتزلة. بالعكس فقد كانوا يلحون في أن تفسر لهم المقصود بكلمة "الله" و بكلمة "قال" ... فعندهم أن علم الكلام يجب أن يكون موضوع التحقيق العقلي.

وقوة الحركة الاعتزالية مردها جهود أولئك الذين حاولوا أقصى ما في طوقهم إقامة علم الكلام الإسلامي على أسس ثابتة من الفلسفة مصرين في الوقت نفسه على أن تكون تلك الأسس منطقية ثم الانسجام بينها و بين الفلسفة التي يجب أن تدرس بوصفها من صميم العقيدة الدينية" !

إن أركون يتصور أن على الإيمان أن يوسع أفقه لهضم ما يسميه بـ" التفنيدات " التي كشفت عنها علوم الإنسان و المجتمع، ويقول بصراحة "في ما يخص المجال الإسلامي نلاحظ أن عدد المثقفين النقديين الذين يقبلون بأن يوسعوا إيمانهم ويدمجوا فيه كل التفنيدات التي فرضها التاريخ على كل أنظمة العقائد / واللاعقائد هو نادر جدا" [1].

لكن المؤلف لا يقدم لنا ولو تفنيدا واحدا من هذه التفنيدات المزعومة. بل الحق أن الوحي سبق الاكتشافات العلمية بإعجازه العلمي الباهر. والمؤلف يعتقد بالإضافة إلى هذا بأن وظيفة علماء الإسلام في المجتمعات الإسلامية لا تعدو" تقديم المشروعية لأنظمة سياسية خالية من المشروعية أو تعاني من نقص موجع في المشروعية" و"تقديم الأمل للطبقات الاجتماعية البائسة أو الجماهير الجائعة التي لا تملك شيئا يذكر"[2].

أليس ما ادعاه المؤلف ترديدا لمعنى مقولة ماركس الخبيثة "الدين أفيون الشعوب"، بصيغة جديدة ؟ ! والحال أن دور العلماء ـ حفظهم الله ـ في المجتمع الإسلامي هو التنوير والتوجيه، وحماية الدين، عقيدة وشريعة وأخلاقا، والبحث العلمي (الاجتهاد) والتربية الدينية السليمة، وتوحيد المجتمع حول دستور الإسلام، وترسيخ قيم الدين الخالدة. وفي ذلك حلول حقيقية لمشاكل الفقر

1. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص: 27.
2. نفسه، ص 27.

والجهل والمرض والانحراف والمعضلات الاجتماعية الأخرى. كما أن دعوتهم إلى تحكيم شرع الله في الحياة، و الحكم بما أنزل الله تعالى، والعمل بالسياسة الشرعية والشورى، وسعيهم إلى تحقيق ذلك في المجتمع دليل على أن المؤلف افترى عليهم عكس ما هم عليه. فللعالم في الإسلام وظائف تنويرية وتقويمية وتربوية وتنموية في المجتمع، وليس يسعى إلى تخدير الشعب و مباركة الظلم والاستبداد.

قال النبي ﷺ :**(العلماء ورثة الأنبياء. وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر)**[1].

وقال ﷺ : **(إنما بعثت معلما)**.

وقال ﷺ : **(فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم، إن الله وملائكته وأهل السموات و الأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلمي الناس الخير)**[2].

وقال ﷺ : **(إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)**[3].

وقال ﷺ : **(الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله تعالى وما والاه وعالما أو متعلما)** [4].

ويصرح المؤلف، مرة أخرى، بأنه يستهدف بنقده نصوص الإسلام الأكثر قداسة أو ما سماه بـ"مضامين الإيمان الأكثر قداسة"، وأنه طبق هذا المنهج النقدي "على الأشكال الأكثر مشروعية للتضامن التاريخي مع مجتمعي وشعبي وأمتي(. . .) وهذا ما لا أزال مستمرا في فعله بالقياس إلى كل مستويات الإسلام وتجلياته بما فيها الظاهرة القرآنية، بل وأولها الظاهرة القرآنية"[5]

1. من حديث طويل رواه أبو داود والترمذي.
2. رواه الترمذي. وقال حديث حسن.
3. أخرجه مسلم.
4. أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن.
5. قضايا في نقد العقل الديني-ص: 29.

لقد تضمن القرآن الكريم الرد على من حاول التطاول عليه. قال تعالى: ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ﴾[1].

وقال: ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾[2].

ليس هدف أركون من هذا النقد الذي لا ولن يقبله المسلمون بأي حال لأنه موجه إلى النصوص المقدسة المحفوظة التي تعلو فوق كل نقد لأنها من الله سبحانه ليس هدفه منه خلخلة أسس اليقينيات الإسلامية فقط، بل يهدف كذلك إلى تقديم خدمة للعلوم الإنسانية الغربية حيث عبر عن ذلك بقوله:

«فأنا أريد تقوية الوظيفة النقدية للعلوم الاجتماعية وإعطاءها مصداقية أكبر من خلال تطبيقها على مثال آخر غير المثال المسيحي الأوروبي. وهذا يساهم في بلورة روح علمية جديدة تنطبق على كل الثقافات و التراثات البشرية وليس فقط على التراث الأوروبي»[3].

إنه يهدف إلى ذلك دون وعي بخصوصية النصوص الإسلامية المقدسة التي تتميز بربانيتها وصحتها ووثوقها وقطعيتها وتواترها وحفظها عن النصوص المسيحية المحرفة التي استهدفها النقد الغربي من قبل، فالمؤلف يقوم بمجرد استنساخ ما يسميه بـ "المنهج النقدي" دون تمييز بين الموضوعات التي يطبق عليها هذا المنهج، أي بين نصوص بشرية قابلة للنقد (وهي نصوص محرفة)، وبين النصوص الربانية التي تسمو على كل نقد. وهو يريد أن يقدم خدمة للعلوم الاجتماعية الغربية ولو على حساب الحقيقة، حقيقة الإسلام ونصوصه الصحيحة الثابتة.

---

1. سورة الأنعام: 6/93.
2. سورة الإسراء: 17/88-89.
3. قضايا في نقد العقل الديني-ص: 31.

الباب الثاني

الفصل الأوّل : دفاعاً عن الهوية الإسلامية: إزالة التلبيس

1. العودة إلى الينابيع الصافية
2. هوية المجتمعات الإسلامية
3. "الظاهرة الدينية" وتهافت الحداثة

الفصل الثاني : نقد الفكر الاستشراقي التحريفي

1. جلال ومثالية الفترة التأسيسية للدولة الإسلامية
2. كيف كان حال المسلمين؟

الفصل الثالث: دحض مفهوم أرخنة الخطاب القرآني

1. العقل الإسلامي
2. دعوى الأرخنة
3. القرآن الكريم منبع التحرير والتنوير والتطهير

الفصل الأول
دفاعاً عن الهوية الإسلامية:
إزالة التلبيس

1 ـ العودة إلى الينابيع الصافية:

يقول المؤلف إنّ البحث عن الأصالة الإسلامية بحث دائم التكرر في كل تجليات النزعة الإصلاحية الإسلامية، ويفسر حركة الإصلاح بأنها «عملية متكررة من الأسطرة والأدلجة لما كان الإسلام العباسي قد حوّره أصلا وحوّله إلى لحظة تد شينية للإسلام بصفته "الدين الحق"»[1].

وردّنا على هذا الكلام هو أنّ الإسلام هو الدّين الحقّ فعْلا وحقا وصدقا. ولا داعي لأن يضع أركون هذه العبارة بين مزدوجتين.

قال الله تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدّين كله ولو كره المشركون﴾[2]، وقال جل من قائل: ﴿يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾[3].

وقال: ﴿ألا لله الدّين الخالص﴾[4].

وقال: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدّين كله، وكفى بالله شهيدا﴾[5].

وقال: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدّين كله، ولو كره المشركون﴾[6].

---

1. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص: 32.
2. سورة التوبة: 9/ 33.
3. سورة النور: 24/ 25.
4. سورة الزمر: 39/ 3.
5. سورة الفتح: 48/ 28.
6. سورة الصف: 61/ 9.

وليس العباسيون ـ أو غيرهم ـ هم الذين أسطروا وأدلجوا هذه الصّورة (اللحظة التدشينية) للإسلام، بل إنّ الإسلام الحق مسطور في نصوص القرآن الكريم ـ كما رأيت ـ بوصفه الدّين الحق الذي لا يقبل الله تعالى غيره، وكذلك في نصوص السنة النبوية الصّحيحة. وليست العودة إلى الينابيع الصّافية بمستحيلة بل هي ممكنة وواقعية ومحمودة ومطلوبة. قال النبي ﷺ: «إنّ الله يبعث لهذه الأمّة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها»[1].

فأيّ أسطرة أو أدلجة في العودة إلى الأصول الصّحيحة، وما كان عليه السلف الصّالح علما وعملاً وتقوى وخلقا، من أجل إصلاح الأوضاع المنحرفة الرّاهنة؟!

ليس هذا حلمًا طوبا ويًا كما يتصوّر البعض بل هو تطلّع ممكن التحقق، وسعي محمود مشروع.

ومن جهة أخرى، نقول من جديد إنّ اعتبار المؤلّف الإسلام تراثًا من بين التراثات الأخرى، هو الذي جعله يتعامل معه كما يتعامل الباحث مع أيّ تراث إنساني. فهو لا يدرسه بوصفه دينا سماويًا له مصادر ربّانية هي الوحي (القرآن والسنة).

ومع أنّه يدعو إلى تطبيق مناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية على هذه المصادر، فإنّه يعترف ـ من حيث لا يحب ـ بإفلاس هذه العلوم الغربية في معالجة قضايا المجتمع الإسلامي. حيث قال:

«في الواقع، إنّ الفشل السياسي لعدد كبير من الأنظمة بعد الاستقلال يمثل أيضا فشلا لهذه المجتمعات التي ظهرت فيها هذه الأنظمة. يضاف إلى ذلك أنّ هذين الفشلين يدلاّن إمّا على استقالة العلوم الاجتماعية أمام هذه المشاكل المعقدة التي لم تستطع تشخيصها، وإما على النّواقص النظرية لما كان بيربورديو قد انتقده تحت اسم العقل السكولاستيكي، وإما على كلا الشيئين معًا»[2].

1. أخرجه ابن حجر في فتح الباري بشرح البخاري: 13 / 295 الطبعة السلفية.
2. قضايا في نقد العقل الديني، ص: 33.

وقال: «يحصل ذلك في الوقت الذي لا تستطيع فيه علوم الإنسان والمجتمع حتى أن تهدّئ من روع الناس عن طريق تقديم تفسيرات مطابقة وذات مصداقية للظاهرة.. أقصد: لا تستطيع أن تهدئ من انتفاضتهم وشكوكهم ويأسهم في مجتمعات أعتقد أنها سوف تكون مستفيدة من ظاهرة العولمة»[1].

عند النظر في الهوية الإسلامية للمجتمعات الإسلامية، لا يمكننا إلاّ أن نلاحظ أنّ هذه الهوية ضاربة بجذورها في المرجعية الدّينية لهذه المجتمعات (القرآن الكريم والسنة الطاهرة) كما أنّها مترسّخة في التاريخ واللغة والثقافة الإسلامية والتراث الإسلامي، وهذه أسس محدّدة بيّنة محفوظة، يمكن تربية النّاشئة على مقوّماتها التي هي بالضبط مقوّمات الهوية الإسلامية. وهذا كله يدحض ما زعمه المؤلف ضارباً المثل بالمجتمعات المغاربية إذ قال:

«من المعلوم أنّ المجتمعات المغاربية تحاول بلورة هويات قومية عن طريق الترقيع أو اللملمة من هنا وهناك. أقصد بالترقيع أخذ عناصر معيّنة من ماض مجهول، ومن تراثات غير محدّدة بشكل جيد، ومن التعلق بدين طقسي جدا وغير مفكر فيه حتى الآن (أي غير مفهوم وغير مدروس)، ثم أخيرا أخذ عناصر متفرّقة أو متشتتة من الحداثة. وهي عناصر عرضة للخلاف الشديد»[2].

لاشك أنّ المؤلف يقلب الحقائق ويصوّر الأمور بصورة معاكسة لواقعها.

قال تعالى: ﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾[3].

وقال: ﴿ قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾[4].

---

1. نفسه، ص: 34.
2. نفسه، ص: 36.
3. سورة آل عمران: 3 / 137.
4. سورة الأنعام: 6 / 11.

وقال: ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾[1].

وقال: ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ﴾[2]

وقال: ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير ﴾[3].

وقال: ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين ﴾[4].

ليس الإسلام دينًا طقسيا خاليًا من الرّوح، والسموّ الرّوحي؛ بل الإسلام يُوازن بين الرّوح والمادة، ويجمع في عباداته بين السموّ الرّوحي والعبودية أو الخضوع البدني، بين الامتثال الظاهر والانقياد أو الاستسلام الباطن. وكل شرائع الإسلام تنطق بهذا التوازن العظيم بين الدّين والدنيا، بين الرّوح والمادة، بين الظاهر والباطن، بين الحقيقة والشريعة، وذلك بخلاف الأديان الأخرى التي غلّبت إمّا جانب الرّوح فكانت رهبانية خالصة، وإمّا جانب المادّة فكانت جثمانية محضة أو مادّية طاغية.

والدّليل على عمق التوجّه الرّوحي في الإسلام تاريخ التصوّف الإسلامي، والممارسة الرّوحية العميقة لأقطابه وأتباعه، ونقصد التصوف السنّي لا ما انحرف عنه من الأقوال والسلوكات. كما أن الدليل على التوازن ـ الذي أشرنا إليه ـ هو السنّة والسيرة النبويتان وهما أبلغ تجسيد وأحق تطبيق للإسلام. إذ تتسمان بالوسطية والاعتدال وإعطاء كل ذي حقّ حقّه، كما قال المصطفى ﷺ: «إنّ

1. سورة النحل: 16 / 36.
2. سورة النمل: 27 / 69.
3. سورة العنكبوت: 29 / 20.
4. سورة الروم: 30 / 42.

لنفسك عليك حقا، ولعينك عليك حقا»[1] والإسلام يرقى بالمسلم روحياً إلى مرتبة الإحسان: **«أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»** [2]. وهذا سموّ روحي رفيع، وصفاء قلبي رائع بديع.

ثم إن الإسلام ليس ديناً غير مفكر فيه كما ادّعى أركون حتى الآن، بحيث انتظر أهله أكثر من أربعة عشر قرنا حتى يجيء هو ليفكر لهم أو بدلا عنهم في دينهم!

بل الإسلام دين مدروس ومفهوم ومفكر فيه، منذ البعثة المحمدية إلى اليوم. ولو حاول أركون أن يحصي عدد المؤلفات العظيمة التي كتبت في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وحتى من علماء غربيين ومستشرقين فضلا عن علماء الدّين، حول فهم الإسلام والتفكير فيه لتطلّب منه ذلك مدّة طويلة لا نستطيع تحديدها. لقد أيقظ الإسلام نفسه عقول المؤمنين به للتّفكير فيه إذ حثّهم على التفقّه وطلب العلم ودراسة الدّين، بالإضافة إلى دراسة المخلوقات وقوانين الكون، وكان ثورة على الجهل والاستبداد والظلم والغطرسة العمياء في نفس الوقت.

2. هوية المجتمعات الإسلامية:

ما الذي يحدّد هوية المجتمعات الإسلامية؟

إنّ الذي يفعل ذلك هو مرجعيتها نفسها، أي مقوّماتها الذاتية، التي تنتمي إليها، وليس ما يحدّدها هو الدراسات الإنسانية. ولذلك فقد أخطأ المؤلف عندما قال: «ينبغي أن نعطي حق الكلام للمؤرّخين وعلماء الاجتماع والأنتربولوجيا من أجل تحديد الهوية بشكل واقعي وصحيح، مع الأخذ بعين الاعتبار كل العناصر (أو الفئات) الموجودة في المجتمع»[3]. إنّ أغلب القائمين على هذه العلوم الإنسانية علمانيون أو متغرّبون، أو مستشرقون، ولو أنّ العلوم الإنسانية تمّت

1. من حديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه 3/52، والنسائي في سننه 4/215.
2. من حديث جبريل المشهور. وهو في صحيح مسلم.
3. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص: 36.

أسلمتها وتوجيهها وجهة ربّانية إسلامية، ثم طبّقت بموضوعية على هذه المجتمعات لكانت النتيجة التي يتفق عليها الباحثون في إطارها هي أن هوية مجتمعاتنا هوية إسلامية أوّلا وأخيرا، وأن العناصر الأخرى المشكلة للوجود السكاني في هذه المجتمعات تندرج في هذه الهوية، وتصب فيها ولا تصادمها أو تنفصل عنها، وإن كان بعض المغرضين يسعون إلى هذا التصادم أو الانفصال بدعوى الدفاع عن حقوق الإنسان وحقوق الأقليات والتعددية الثقافية وما إلى ذلك. أما أن يسعى هؤلاء المتغرّبون العلمانيون إلى تطبيق تلك الدراسات الإنسانية (العلوم الاجتماعية) على هذه المجتمعات منطلقين من خلفيات غربية علمانية هي وليدة الفكر الاستعماري الاستلابي فإن النتيجة ستكون ـ غصبا للحقيقة وإرغاماً للواقع وافتراءً على التاريخ ـ شيئا آخر. وهنا سنكون أمام تعسّف بصبغة شبه علمية. وهو تعسف يسعى أصحابه إلى تفتيت وحدة البلدان الإسلامية، وتفكيك أوصالها، وتشتيتها في متاهات هويات متقاتلة، بخلاف ما يريده لها الإسلام من وحدة قائمة على أرسخ الأسس. قال الله تعالى: ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾[1] وقال: ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾[2]. وقال: ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعدما جاءتهم البيّنات وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾[3]. وقال: ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾[4]. وقال: ﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ﴾[5]. وقال: ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾[6] وقال النبي ﷺ: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم

1. سورة آل عمران: 3 / 110.
2. سورة البقرة: 2 / 143
3. سورة آل عمران: 3 / 105
4. سورة آل عمران: 3 / 103.
5. سورة الحجرات: 49 / 10
6. سورة الأنفال: 8 / 46.

كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[1] هذا هو المنهج الأعظم الأقوم الذي يسمو إليه الإسلام بالمسلمين، ضدا على دعوات التفريق ونعرات التمزيق.

وزعم أركون أنّ الإسلام واللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية لم تتوصل سياسيا في المغرب الكبير إلى مرتبة ووظائف المكونات الرّسمية للهويات الخمس القومية إلا بعد الاستقلال (أي بين عامي 1956 و1962)[2].

واضح أنّ المؤلف قد ألغى بهذا الزعم الباطل أربعة عشر قرنا أو يزيد من السيادة السياسية للإسلام في هذه البلاد المغاربية ـ كما في مشرق العالم الإسلامي ـ سيادة مبنية على مقوّمات هذا الدّين الرّوحية والعقدية والتشريعية واللغوية والثقافية والحضارية. ولسنا ندري كيف سوّغ المنهج العلمي المزعوم عند أركون القفز على هذه الحقائق التاريخية! لقد صهر الإسلام كل القوميات والمكوّنات في بوتقة روحه، وترجمت سيادته السياسية في هذه المجتمعات تلك الرّوح الجماعية المُوَحَّدة على أرض الواقع. والإسلام يَجُبّ ما قبله.

فلم يكن تاريخ المغرب العربي تاريخ صراع بين أقليات متناقضة ونزاع أو تطاحن بين هويات متعددة، ونعرات عرقية متباينة، بل كان الإسلام الذي آمن به سكان هذه البلاد ولا يزالون يوحّدهم ويسمو بتطلعاتهم إلى ما فوق تلك الانتماءات الأرضية الضيّقة.

من جهة أخرى، يدعو أركون إلى التفكير في الشروط اللاهوتية لصلاحية إعادة استخدام الإسلام في الوظائف السياسية والقانونية والاجتماعية والاقتصادية انطلاقا من الدولة الحديثة، كما يدعو إلى التفكير في الشروط الفلسفية لإمكانية مثل هذا الاستخدام (هل هو ممكن؟ هل هو صالح؟ هل هو مستحب؟ وكيف؟...).

1. أخرجه الإمام البخاري في كتاب الأدب.
2. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص: 38.

خير إجابة عن هذه التساؤلات كلام الله تعالى وهدي رسوله الكريم ﷺ، حيث قال الله عز وجل: ﴿ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون؟! ﴾[1]. وقال: ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾[2]. وفي آية أخرى: ﴿ هم الفاسقون ﴾[3] وفي آية ثالثة: ﴿ هم الظالمون ﴾[4]، وقال سبحانه: ﴿ أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا؟! ﴾[5] وقال: ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾[6]

وقال ﷺ: (تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك)[7].

وقال: (تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي: كتاب الله وسنتي)[8].

وقال: (ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة...)[9].

قال الله عز وجل: ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[10]. وقال: ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾[11].

---

1. سورة المائدة: 5 / 50
2. سورة المائدة: 5 / 44.
3. سورة المائدة: 5 / 47.
4. سورة المائدة: 5 / 45.
5. سورة الأنعام: 6 / 114.
6. سورة النساء: 4 / 65.
7. أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين: 1 / 182، 229.
8. أخرجه الإمام البغوي في مصابيح السنة 2 / رقم الحديث 1841.
9. من حديث أخرجه أبو داود في سننه.
10. سورة الروم: 30 / 30.
11. سورة النحل: 16 / 97.

وقال: ﴿ إنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنّ لهم أجراً كبيراً ﴾[1].

وقال: ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إنّ الله يحب المحسنين ﴾[2].

وقال: ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله. فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾[3].

وقال: ﴿ الحق من ربك فلا تكن من الممترين. فمن حاجك فيه من بعدما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين ﴾[4].

وكما بيّن القرآن الكريم والسنّة الطاهرة صلاحية هذا المنهج الربّاني الإسلامي لسعادة الإنسان واستقامة الحياة ونفع الخلق وسلامتهم ونجاتهم، بيّنت آيات وأحاديث أخرى أنّ الانحراف عن هذا المنهج سبب الشّقاء والتخبّط والاضطراب والفساد. فهل بعد هذا البيان بيان؟!

3. «الظاهرة الدينية» وتهافت الحداثة:

يدعو المؤلف المغاربة إلى أن يفكروا بالظاهرة الدّينية لا أن يفكروا بالإسلام مباشرة وذلك ليساهم الفكر المغاربي ثقافيا وتاريخيا في البلورة الجارية حاليا للحداثة[5].

وهذا في الحقيقة شغل للمسلمين عن دينهم الحق بأمور لم يأمرهم بها ربّهم. بل ما أمرهم به هو دراسة كتابه العزيز وسنة نبيّه الكريم أي فهم وتطبيق الإسلام، لا السعي وراء سراب «الظاهرة الدينية» الهلامية والتي تدخل فيها البوذية

1. سورة الإسراء: 17 / 9.
2. سورة البقرة: 2 / 195.
3. سورة آل عمران: 3 / 64.
4. سورة آل عمران: 3 / 60 ـ 61.
5. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص: 39.

والهندوسية والمجوسية وغيرها من الخرافات ، قصد المساهمة في الحداثة الغربية التي تتناقض أصولاً وفروعًا مع الإسلام الدين الربّاني الخاتم.

فالحداثة الغربية مفصومة عن الدّين، مناهضة له، وهي دنيوية علمانية، لا أخلاقية، نفعية ضيّقة الأفق، قاطعة مع التراث دون تمييز بين النافع السليم منه والضارّ المدخول.

وكما تشهد على تهافت الحداثة الغربية مبادئها الفلسفية يشهد عليه كذلك واقع تطبيقها في البلاد الغربية، حيث الانحلال الأخلاقي، والأزمة الرّوحية، وسوء تطبيق العلم في ميادين شتى (أسلحة الدمار الشامل، الاستنساخ إلخ) والتفكك الأسري، وفصل الدّين عن الدّولة، والحرّية الفردية المفرطة، والليبرالية المتوحشة، والانحصار في ضيق الدّنيا، واستغلال المرأة وتشييئها. وهذا بخلاف ما يفتحه الإسلام للإنسان من آفاق واسعة، وما يمنحه من كرامة دينية سامية، ومكانة رفيعة في الحياة، وما ينظم به الأسرة والمجتمع والدولة من قوانين شرعية إلهية صالحة مَرِنة إنسانية وما يرشده إليه من مناهج في البحث والتدبر والاستنباط والتأمّل، وما يقوّيه في داخله من طاقة روحية وصفات أخلاقية، وما يحققه له ـ إذا التزم بالشريعة الإسلامية ـ من سعادة في الدنيا وفوز في الآخرة.

أفيذهب المسلمون يبحثون عن «الظاهرة الدينية» ويتركون إسلامهم من أجل أن يقال إنهم يساهمون في الحداثة الغربية؟!

قال الله تعالى: ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها، قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير؟ اهبطوا مصرًا فإن لكم ما سألتم. وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾[1].

وقال: ﴿إن الدّين عند الله الإسلام﴾[2].

1. سورة البقرة: 2/61.
2. سورة آل عمران: 3/19.

وقال: ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه. وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾[1] وقال النبي ﷺ: (من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي، ولا تزال من أمّتي أمّة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك)[2] ولم يقل ﷺ «يفقهه في الظاهرة الدّينية» التي الإسلام أحد تجلياتها كما زعم أركون.

ودعا النبي ﷺ لسيدنا عبد الله بن عباس فقال: (اللهم فقهه في الدين (أي الإسلام) وعلمه التأويل)[3].

إن أركون يخطئ عندما يضع الإسلام على قدم المساواة مع أديان محرّفة، أو وضعية، كالمسيحية المحرّفة والبوذية واليهودية المحرّفة والهندوسية، في حين أنّ الإسلام هو الدّين الحقّ، وكتابه القرآن الكريم ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[4] ورسوله: ﴿ خاتم النبيئين ﴾[5] و﴿ رحمة للعالمين ﴾[6]. ولهذا فالإسلام مهيمن على الأديان كلها. قال الله تعالى: ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله. وكفى بالله شهيدا ﴾[7]. وقال: ﴿ ذلك الدّين القيّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[8].

---

1. سورة آل عمران: 3 / 85.
2. متفق عليه أخرجه الإمام البخاري في صحيحه 1 / 164 كتاب العلم 3 ـ والإمام مسلم في صحيحه 2 / 718 كتاب الزكاة 12.
3. متفق عليه عند الإمام البخاري في صحيحه 7 / 100 كتاب الفضائل، وعند الإمام مسلم في صحيحه 4 / 1927.
4. سورة فصلت: 41 / 42.
5. سورة الأحزاب 33 / 40.
6. سورة الأنبياء: 21 / 107.
7. سورة الفتح: 48 / 28.
8. سورة يوسف: 12 / 40.

4 . اللغة العربية والإسلام:

ويدعو المؤلف ـ تحت تأثير مفاهيم التعدّدية والاختلاف والتحرّر أو تحت تأثير فهمها فهماً غربيا ـ إلى التمكين للهجات العربية والبربرية على حساب اللغة العربية الفصحى. وهذا الآن هو المسار الذي تسير فيه بعض المجتمعات العربية للأسف الشديد. فاللغة العربية تتعرض للمحاربة وللتضييق والتهميش إمّا باعتماد لغة أجنبية (لغة المستعمر) بدلها في الإدارة والتعليم والاقتصاد والإعلام إلخ، أو بتغليب اللهجات (عربية أو بربرية) عليها.

يقول المؤلف في هذا الصدد محاولا توهين الأساس الدّيني لانتشار اللغة العربية بين المسلمين عبر التاريخ: «يمكننا أن نتحدّث بهذا الصدد عن وجود خسارة لغوية في المغرب الكبير. لماذا؟ لأن «اللهجات» العربية والبربرية مدعوة للانقراض على المدى المنظور. نقول ذلك على الرغم من أنها تشكل اللغة الحية المتكلمة في الحياة اليومية. وأما الفرنسية، التي هي لغة حية وناقلة للحداثة، فمصابة بالشين أو بالعيب لأنها لغة المستعمر السابق. وأما اللغات الأجنبية الأخرى فتجد صعوبة في فرض نفسها، ما عدا الإنجليزية. يمكن القضاء على اللهجات المحكية بعد فترة من الزمن عن طريق تعميم استخدام اللغة العربية الفصحى. بل ويمكن للحضارة المعلوماتية أن تختصر هذا الزمن أو تزيد من تسارعه. ولكنهم سوف يشيعون في الوقت ذاته العقبات المعرفية المتعلقة بالإرث اللاهوتي الثقيل للغة التي اختارها الله في القرآن. كانت هذه المحاجّة قد ضغطت دائما بشكل إيجابي لصالح التصور الذي يمتلكه العرب ـ المسلمون عن الدّين واللغة (...) وأمّا المسلمون الذين يتبعهم بعض المستشرقين فيكتفون باستغلال الامتياز اللاهوتي لاستمرارية اللغة التي استخدمت لأول مرّة في الوحي»[1].

إنّ اللغة العربية هي لغة الوحي حقا، ولا يزيدها ذلك إلا عبقرية، وصلاحية، ومردودية، وجمالية. ولا شك أنها محفوظة بحفظ القرآن الكريم، ومهما حاول

1. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص: 40 ـ 41.

أعداؤها إبدالها بلهجات محلية، أو الحديث عن لغة وسطى لا هي بالفصيحة ولا بالعامية، فإنهم يبتعدون في الحقيقة عن مفتاح تقدم وازدهار الأمة، إذ لابد للنهضة الإسلامية من أمرين أساسيين: تجديد فهمنا وتطبيقنا للدين، وعودتنا إلى ينابيعه الصافية، من جهة، وتجديد اللغة بإحياء كنوزها الزاخرة، وتفجير طاقاتها الكامنة من جهة أخرى وهي دو نماشك في مستوى كل التحديات وقد حققت في هذا العصر التكنولوجي مواكبة إبداعية رائعة لمستجداته.

إنّ معرفة أسرار اللغة العربية تغتني بدراسة القرآن الكريم، الذي وجّه الأدب العربي وتاريخه، والفكر الإسلامي وفلسفته؛ فهو ينبوع الحياة الثقافية والفكرية والأدبية والجمالية عند العرب وغيرهم. وهو منهل الأساليب الجميلة والبيان المشرق فقد جدد فن الخطابة وأعطى الشعر والنثر أسمى المعاني والأغراض والمقاصد والصّور.

واللغة العربية دائمة بدوام القرآن الكريم، وقد منحها قوة التعبير وجزالته، وروعة وكثرة الأساليب البلاغية.

فدعوة من حاربها دعوة بائرة خاسرة باطلة، وسوقها خربة زائلة، أفلس أهلها، وإننا لنربأ بعاقل أو مفكر يعي ما يقول ويكتب أن يسلك مسلك محاربتها الوخيم.

إنّ لغة القرآن الكريم هي لغة قريش الأصلية التي سادت اللغات الأخرى فحفظها القرآن من الضياع، ووسع نطاقها، وهذّب ألفاظها وأساليبها وبفضل انتشار الإسلام أصبحت اللغة الرسمية لكثير من الدول الإسلامية.

ومع هذا يرى محمد أركون أن اختيار اللغة العربية والثقافة العربية مقوّمين للهوية أدى إلى إفقار التعبيرات الثقافية للفئات الناطقة بالعربية والبربرية والكردية والأرمنية والقبطية الواقعة داخل النطاق الرسمي العربي أو التركي أو الفارسي[1].

1. نفسه، ص: 41-42.

إما أن يتبع المسلمون فكر الحداثة الغربية أو يكونوا تحت طائلة أن يرمي أركون تاريخهم منذ ظهور الإسلام وحتى القرن التاسع عشر داخل دائرة النظام الفكري القروسطي[1] بمعنى أن نظام الحداثة الغربية، في نظره، متفوق على تلك الحقب التاريخية كلها بما فيها أعظم حقبة في تاريخ الإنسانية: العهد النبوي والعهد الراشدي. وهذا خطأ في التصور والإدراك، كما أنه خطأ في التقدير والتقويم. وهو يدل إما على عدم دراسة أركون لهذا التاريخ الإسلامي كما ينبغي، وإما على تعمده طمسه تحت تأثير انبهاره بحداثة الغرب. وقد جرت العادة عند الباحثين العلمانيين الحداثيين العرب على نعت التاريخ الإسلامي بالقروسطي ويقصدون بهذا النّعت معنى قدحيًا، ويدعون إلى التخلص من ثقل هذا التاريخ، دون أن يميزوا فيه بين الوحي القرآني والسني والعهدين النبوي والراشدي والقمم الإسلامية التاريخية العظيمة الوضيئة في شتى المجالات من جهة وبين أخطاء بشرية وتعسفات أو عادات جاهلية ما أنزل الله بها من سلطان من جهة أخرى.

وبالإضافة إلى هذا، يزعم المؤلف أن «الاستخدام الأسطوري أو المؤسطر هو الذي يهيمن على خطابات المناضلين السياسيين (أي الأصوليين)، وإنما أيضا على السلطة العقائدية التي يمارسها كبار رجال الدين (أو العلماء). كما ويهيمن على الكتب والبرامج المدرسية المقررة منذ المرحلة الابتدائية وحتى الجامعية مروراً بالإعدادية والثانوية كما ويهيمن على وسائل الإعلام من مسموعة ومرئية ومكتوبة. كما ويهيمن على المحادثات الجارية يوميا بين مختلف أنواع البشر أيا تكن مستوياتهم الفكرية. على هؤلاء جميعا يهيمن خطاب واحد جبار عن الدين أو عن التراث»[2]

وخلاصة ما قاله المؤلف أن المسلمين لا يعرفون عن الإسلام إلا الأساطير! وفحوى هذا الكلام أنهم ما عليهم إلا أن يتعلموا الإسلام الحقيقي من محمد

1. تنظر ص 44 من كتابه «قضايا في نقد العقل الديني».
2. نفسه، ص: 45 ـ 46.

أركون ليعلموه للناس في الجامعات والمدارس وعبر وسائل الإعلام وفي المجامع العلمية !

هكذا يضرب الغرور بأطنابه في فكر منبهر بحداثة غربية مسدودة الآفاق. وهكذا تطمس الحقائق، وتقلب الوقائع رأسا على عقب، إرضاءً لشعور الانبهار، وخدمة لفلسفات غربية خاطئة، وعملاً من أجل التمكين لحداثة لا يقبلها الإسلام.

فالمسلمون إلى اليوم لم يعرفوا عن الإسلام إلا الأساطير ! ومحمد أركون وحده يعرف عنه الحقائق ! فأين فهم السلف الصالح القويم للإسلام؟ ! وأين فقه العلماء الأعلام إذن؟ !

يقصد المؤلف بمشروع نقد العقل الإسلامي كما قال «مشروعًا علميًا شموليا، جماعيا، يخترق كل الخصوصيات الثقافية والعلوم الضيقة ويتجاوزها. إنه المشروع الذي يهدف إلى القراءة التحليلية، المقارنة، الاسترجاعية ـ المستقبلية، أو التراجعية ـ التقدمية لكل أنظمة الفكر والتراثات الثقافية المكتوبة أو الشفهية والتي كانت قد انتشرت وترعرعت وتنافست من حوض البحر الأبيض المتوسط»[1].

وسنرى، كلما تقدمنا في هذه الدراسة النقدية، الاعتماد الواهي لمشروعه على رؤية مستوردة متهافتة، ومنهجية مضطربة مموّهة.

1. نفسه، ص 46 ـ 47.

الفصل الثاني
نقد الفكر الاستشراقي التحريفي

1. جلال ومثالية الفترة التأسيسية للدولة الإسلامية:

حاول محمد أركون أن يصوغ منهجية استشراقية نعتها بالجديدة. أي منهجية لا تنطلق من مدرسة الاستشراق التقليدي، وإنما من مدرسة الاستشراق الجديد الذي يعتمد ما سماه أركون النقد التاريخي لا «الموضوعاتية التاريخية المتعالية» (تاريخ الأفكار التقليدي). وهو إذ ينطلق من المنطلق الاستشراقي متمثلا في أحد نماذجه وهو المستشرق الألماني جوزيف ڤان إيس يقلده فيما سماه بإسباغ الصبغة التاريخية على الفترة التأسيسية للفكر الإسلامي بدل نزعها كما فعل مؤرخو هذه الفترة. ويشرح ذلك مترجم الكتاب هاشم صالح بقوله:

«هنا يقدم أركون مصطلحين أساسيين هما: إسباغ الصبغة التاريخية / ونزع الصبغة التاريخية، أو الأرخنة / ونزع الأرخنة. فمؤرخو العصر العباسي نزعوا الصبغة التاريخية عن فترة الإسلام الأولى وشخصيات الصّحابة والأحداث الكبرى التي حصلت آنذاك وحوّلوها إلى أشياء نموذجية، مثالية، تتعالى على التاريخية. ثم يجيء جوزيف ڤان إيس لكي يسبغ الصبغة التاريخية على كل ما كانت قد نُزعت عنه هذه الصبغة منذ قرون طويلة. من هنا الطابع الثوري الذي لا ينكر لأعمال ڤان إيس وكل النقد التاريخي الحديث.

ولكن عملية الأرخنة هذه سوف تزلزل الوعي الإسلامي المعاصر المتعوّد على النّظرة التبجيلية أو التقديسية للتراث. وسوف يشهد هذا الوعي عندئذ أزمة حادة تشبه أزمة الوعي الأوروبي عندما طبق النقد التاريخي على المسيحية»[1].

أليس هذا استنساخًا كليا لـ «منهجية» هذا المستشرق؟

---

1. قضايا في نقد العقل الديني - ص 49.

ومن الغريب أن كثيرا من المتغربين العرب هم تلاميذ مخلصون للجمعية الشّرقية الألمانية التي أسست سنة 1845 إبان مؤتمر المستشرقين الألمان في مدينة درمشتاد. وقد جعلت من أهم أغراضها إصدار مجلة للدراسات الشرقية[1].

إنه التقليد الأعمى. ويتبيّن من هذه الموسوعة الاستشراقية مدى تهافت كثير من المثقفين العرب ولهاثهم وراء المستشرقين الألمان.

لننظر الآن في طبيعة هذه المنهجية التي دافع عنها أرگون وغايتها.

إننا نلاحظ أنها تستهدف الفترة التأسيسية لا للفكر الإسلامي فقط، بل للمجتمع والدولة والعقيدة والأخلاق والشخصية المسلمة كذلك، بمعنى أنّ هذه الفترة تمتد من إرهاصات النبوة ثم نزول الوحي والسيرة النبوية إلى حياة الصحابة ثم التابعين وتابعيهم إلى أن انتشرت جيوش الفتح الإسلامي شمالا وجنوبا، شرقا وغربا، واتسعت رقعة العالم الإسلامي، وازدهرت الدولة والحضارة الإسلاميتان. ولاشك أن هذه مرحلة التأسيس العظيمة التي وصفها النبي ﷺ بقوله: **(خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب)**[2].

ومن هنا نشأت الحياة الدينية الإسلامية، ودعا الإسلام الناس إلى الإيمان بالله وحده، ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ﴾[3]. كما دعاهم إلى التأمل في الكون: ﴿ أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم. فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾[4]. ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ﴾[5]، والخضوع لله وحده والانقياد لأوامره، ثم الخضوع لحاكم واحد أوجب الإسلام طاعته مادام على الحق: ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾[6].

---

1. تراجع «موسوعة المستشرقين» للدكتور عبد الرحمان بدوي ص 113 ـ 115 ط 1984، دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان.
2. أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.
3. سورة النساء: 36/4.
4. سورة الأعراف: 185/7.
5. سورة يس: 37/36.
6. سورة النساء: 59/4.

وهذه القرون الثلاثة الأولى هي التي عاش فيها السلف الصالح. ولاشك أن هذه الفترة التي شهد لها بالخيرية سيد البشرية ﷺ، قد امتازت بمعجزات وكرامات وإنجازات وشخصيات وأحداث تجلت فيها آثار الإيمان واليقين، وأخلاق النّبوة، وصفات المتقين. فاكتست من القدسية والجلال ما لا يمكن إنكاره بأي حال، وتحت أي ذريعة تنسب إلى البحث العلمي من باب الحق الذي يراد به الباطل، والسفسطة والمحال.

ولم يكن مؤرخو هذه الفترة يضفون التقديس والإجلال من عندياتهم على تلك الوقائع والشخصيات؛ بل إن القرآن الكريم نفسه تضمن آيات تشهد للنبيﷺ ولصحبه الكرام بالرضا الإلهي والفتح الرباني والرسوخ العلمي والتقوى العالية، والمعجزات والكرامات. وهذا كله من فضل الله تعالى على خير قرون هذه الأمة الإسلامية. وقد بلغ علماء السير والمغازي ثم المؤرخون المسلمون درجة رفيعة من التحري والنقد والتمحيص كانوا بها رواد المنهج التاريخي الصحيح، وشداة ودعاة النقد التاريخي الدقيق. ولذلك فهم لم يزيدوا شيئا من عندهم، وإنما نقلوا الأخبار الصحيحة بطرق النقل الموثوقة بعد النقد والتمحيص.

فإذا أخذنا أصح الكتب بعد القرآن الكريم وهو الجامع الصحيح للإمام البخاري رحمه الله، وجدنا أنه جمع فيه وفق شروط علمية دقيقة الأحاديث الصحيحة التي اشتملت على تاريخ هذه الفترة التأسيسية من معجزات النبي ﷺ الثابتة وكرامات الصحابة رضي الله عنهم الموثوقة. ولا نعني بالكرامات مجرد خوارق العادة، بل كذلك الأخلاق العالية التي أكرمهم الله عز وجل بها فكانوا متميزين بأسمى الأخلاق، ونعني بها كذلك الشخصيات الفذة التي كانت وراء تلك الأحداث العظيمة التي سجلها التاريخ الإسلامي.

فإن يكن في هذا تقديس وتبجيل فهما تقديس وتبجيل موضوعيان صحيحان لا مجرد خيال زائف.

لقد تألقت في عهد الرسول ﷺ أول حكومة إسلامية منظمة، دستورها القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وشريعتها ومبادئها نبراس يضيء الطريق

للخلق لتظل أسس الإسلام راسخة قويّة. وأتيح للعرب من بعد أن يستولوا على ممالك كسرى وقيصر وبلاد المغرب وإسبانيا الغربية. وكان للامتزاج الذي حصل من هذه الفتوحات أثر في ظهور الحضارة الإسلامية التي هيأت السبيل لصعود الإنسان في مراقي التمدن البشري، وتحول الأعراب إلى خلفاء وأمراء وقضاة وقواد أبانوا عن مواهب عقلية عالية ومقدرة وذكاء فائقين. وكانت معاملتهم الحسنة لغيرهم سببا في دخول كثير من غير المسلمين في دين الله أفواجا.

وشملت الدولة الإسلامية في آخر عهد صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم جزيرة العرب وبعض بلاد الشام، واحترمت عادات البلاد التي انصهرت في دولة الإسلام، ودخلت دار الإسلام بالصلح. فلم تسلب مليكا ملكه، ولا أميرا إمارته، بل دعت إلى تنفيذ شريعة الإسلام، فمن صالح ودخل دار الإسلام كان ملكه محفوظا وكان من بين أمراء الممالك العربية الموحدة أمير يهودي على إمارة تيماء وأمير نصراني على إمارة أيلة، وأمير مثله على إمارة دومة الجندل، ومنهم أمير نجران النصرانية وكان في الدولة الإسلامية. ولم يكن شعار الدولة حاجزا لحرية الأديان ولا مغيرا على أحكامها، ولا ظالما للمتدينين بها. فكانت اليهودية دينا محترما في جنوبي اليمن وبعض أجزاء الشام، وكانت النصرانية دينا محترما ومصانا في الجزيرة العربية وباقي بلاد الشام، كما كانت المجوسية منتشرة لدى أهالي البحرين في الجنوب [1].

لهذا عندما يحاول محمد أركون وأستاذه المستشرق ڤان إيس نزع القدسية والمثالية عن تلك الفترة التأسيسية بدعوى إسباغ الصبغة التاريخية عليها، فإنما يفعلان ذلك لكي يقدما العهد النبوي والعهد الرّاشدي وعصر التابعين تقديما ماديا تاريخانيا يفسر كل شيء بأسباب أرضية مادية، ولا يأخذ بعين الاعتبار ما وراءها من عناية ربانية، ومعجزات إلهية، وهداية نبوية، وصحبة مباركة، ويقين يدك الجبال، وتربية روحية خرجت للعالم هؤلاء الأبطال الذين لم يشهد لهم التاريخ مثيلا.

---

1. من أحسن ما يمكن الاطلاع عليه في هذا الموضوع كتاب «دستور الحكم والسلطة في القرآن والشرائع» للأستاذ رأفت شفيق شنبور الطبعة الأولى 1954/1373 بيروت لبنان.

وإذا نزعت القدسية والمثالية عن هذه الفترة التأسيسية ونظر إليها في حدود الأسباب الأرضية المادية، بقطع النظر عن أي علاقة لها بالسماء، وعن أي صلة لها بالله سبحانه، وبإمدادات الغيب والنصرة الإلهية لهذه الفئة المؤمنة التي ستضطلع بأعباء نشر هذا الدين في الدنيا، سهل على أتباع هذه النظرة المادية أن يتعاملوا مع الإسلام كدين وضعي، في حين أنه دين سماوي، وسهل عليهم كذلك، أن يطبقوا عليه ما يسمونه بالنقد التاريخي الذي طبقوه على المسيحية المحرفة

وغايتهم البعيدة إبعاد المسلمين عن دينهم، والتقليل من شأنه في أعينهم. حتى تصبح نظرتهم إليه نظرة المتجول في متحف يضم تحفا عفا عليها الزمان، ولم تعد صالحة لعصر الحداثة والمادية الغربية!

ولذلك فهم يحاولون الوصول إلى هذه الغاية بنزع نظرة التّبجيل والتقديس والإجلال من عقول وقلوب المسلمين، وإبدالها بنظرة تاريخية نقدية كما يزعمون! وأنّى لهم ذلك!

2. كيف كان حال المسلمين؟

ولا بأس أن نضرب مثلا بما كتبه صاحب «عيون الأخبار» المؤرخ الكبير ابن قتيبة[1] وهو يعبر عن شهادة الخصوم في أخلاق المسلمين. قال: «قدمت منهزمة الروم على هرقل - وهو بأنطاكية - فدعا رجلا من عظمائهم فقال: ويحكم أخبروني، ما هؤلاء الذين تقاتلونهم؟ أليسوا بشرا مثلكم؟ قالوا: بلى - يعني العرب المسلمين.

قال: آنتم أكثر أم هم؟

قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافا في كل موطن.

قال: ويلكم فما بالكم تهزمون كلما لقيتموهم؟ فسكتوا.

فقال شيخ منهم: أنا أخبركم أيها الملك من أين تؤتون.

قال: أخبرني.

قال: إذا حملنا عليهم، صبروا، وإذا حملوا علينا صدقوا، ونحمل عليهم فنكذب، ويحملون علينا فلا نصبر.

---

1. عيون الأخبار - ابن قتيبة: 1/126-127.

قال: ويلكم فما بالكم كما تصفون، وهم كما تزعمون؟
قال الشيخ: ما كنت أراك إلا وقد علمت من أين هذا.
قال له: من أين هذا؟

قال: لأن القوم يصومون بالنهار، ويقومون بالليل، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ولا يظلمون أحدا، ويناصفون بينهم، ومن أنّا نشرب الخمر، ونزني، ونركب الحرام، وننقض العهد، ونغصب ونظلم، ونأمر بما يسخط الله، وننهى عما يرضي الله، ونفسد في الأرض. قال: صدقتني، والله لأخرجن من هذه القرية، فمالي في صحبتكم خير وأنتم هكذا.

قالوا: نشهد الله ـ أيها الملك ـ تدع سورية وهي جنة الدنيا وحولك من الروم عدد الحصى والتراب ونجوم السماء ولم يؤت عليهم»

ونضرب مثلا آخر بقصة أكثر وقعا ذكرها الفندلاوي وهي في تاريخ الطبري، وفي حياة الصحابة [1] نقلا عنه، تحت عنوان «قوم لو يحاولون الجبال لهدوها».

وهذه هي القصة: «عندما فتحت مدائن كسرى على المسلمين، وتوغل العرب في أرض العجم أرسل ملكهم «يزدجرد» رسولا إلى ملك الصين يستنجد به على العرب، ومن عادة الملوك أنهم ينجد بعضهم بعضا عند الأزمات، ولما عاد الرسول عاد مثقلا بالهدايا من قبل الصين. وقال يزدجرد: «لقد سألني عن القوم الذين غلبونا على البلاد»، وقال: «إنك تذكر قلة منهم، وكثرة منكم، ولا يبلغ أمثال هؤلاء القليل الذين تصفهم منكم فيما أسمع من كثرتكم إلا بخير عندهم، وشر فيكم.

فقلت: سلني عما أحببت إن شئت.

فقال: أيوفون بالعهد إذا عاهدوا؟

قلت: نعم.

قال: وما يقولون لكم قبل أن يقاتلوكم؟

1. 4/648.

قلت: يدعوننا إلى واحدة من ثلاث: إما أن نتبع ديننهم، فإن أجبنا أجرونا مجراهم، لنا مالهم وعلينا ما عليهم، أو الجزية، والمنعة، أو المنابذة.

قال: كيف طاعتهم أمراءهم؟

قلت: أطوع قوم لمرشدهم.

قال: فما يحلون وما يحرمون؟

فأخبرته أنهم يحرمون الخبائث، والفواحش، والأضاليل وكل منكر وشر.

فقال: أيحرمون ما يحلون، أو يحلون ما يحرمون؟

قلت: لا، فهم مؤمنون بأن شريعتهم ثابتة خالدة بكتابهم المنزل الذي يعتقدون أنه في حفظ الله له أثبت من الأرض، وأبقى من السماء، وقاعدتهم: أن لا طاعة لمخلوق بمعصية الخالق.

قال: فإن هؤلاء لا يهلكون أبداً حتى يحلوا حرامهم، فيصبح الشر عندهم خيرا، ويحرموا حلالهم فتصبح الفضيلة عندهم رذيلة. ثم قال: أخبرني عن لباسهم، فأخبرته أنهم يقولون: ﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾[1].

فقال: أخبرني عن مطاياهم.

فقلت: العقل والمشورة وحكمتهم المأثورة: «أن من أعجب برأيه ضل ومن استغنى بعقله زل».

قال: ما الذي وصل إلى علمكم من معاملتهم؟

قال: يتقيدون بما أمرهم به رسولهم، وهو أن أحدهم لا يحيف على من يبغض، ولا يأثم فيمن يحب، يعترف بالحق وإن لم يشهد عليه، ولا يغلبه الشح عن معروف يريده.

فكتب ملك الصين مع الرسول إلى يزدجرد: «إنه لم يمنعني شيء أن أبعث إليك بجيش أوّله بمرو وآخره بالصين، ولكن هؤلاء القوم الذين وصفهم لي رسولك لو يحاولون الجبال لهدّوها، ولو خلالهم سربهم أزالوني ماداموا على ما وصف، فسلمهم وارض منهم بالمساكنة ولا تهجهم ما لم يهيّجوك».

1. سورة الأعراف: 26/7.

الفصل الثالث
دحض مفهوم أرخنة الخطاب القرآني

1. العقل الإسلامي:

يجب أن نؤكد أولا أن العقل الإسلامي عقل يستمد أسسه وثوابته وآلياته العميقة من المرجعية الدينية (الكتاب والسنة)، ولذلك يتميز بمجاله التداولي الخاص الذي يقوم على التصور الكلي الإسلامي للكون والحياة والإنسان، وعلى مناهج قرآنية في البرهنة العقدية وأخرى في الاستدلال العلمي (التجربة والمشاهدة والمقارنة والاستنباط والاستقراء). والثوابت الدينية التي يقوم عليها العقل الإسلامي هي التي تصونه من الزيغ، والشطط، وانحراف التصور والحكم لا في ما يتعلق بالمسائل الجزئية التي تتطلب أحكاما معينة ولا فيما يتعلق بالقضايا الكلية. وبهذا فهو عقل يطبعه الشمول والدقة وسلامة المناهج من الزيف وتخلص الغايات من اتباع الأهواء وقد بين ذ. عبد السلام البكاري في كتابه «تأصيل العقيدة وتأويل آياتها عند علماء المغرب خلال القرنين (5 ـ 6 هـ)»[1] دواعي التأويل وحوافزه. وفي الفصل الأول من هذا الباب ذكر دلائل أهمية العقل في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. وفيه تعريف العقل، والعقل في القرآن الكريم. وبه جدول يتضمن ما ورد في القرآن من الآي حول هذا الموضوع مرتبة الترتيب التنازلي في تعداد 49 آية. وختم الفصل بالحديث عن العقل في السنة، وخلاصة موجزة عنه.

وتحدث ذ. الصديق بوعلام في كتابه «فضل العلم ومزية العلماء»[2] حديثا مفصلا عن العقل والعلم ومكانتهما في الإسلام، مؤسسا كلامه على الأدلة النقلية وتحليل النصوص.

1. طبعة دار أبي رقراق، الرباط 2005 ص، 133 ـ 149.
2. صدر عن منشورات "إدگل" الرباط 2005.

والهوى نقيض العقل. وفي اللغة: هوى الشيء هويا: سقط من أعلى إلى أسفل. وهوى النجم: غرب. وهوى هواء: تردى وهلك. وهوت المرأة: ثكلت ولدها. وبهذا فسرقوله تعالى: ﴿ فأمه هاوية ﴾[1]. كما أن الهاوية بمعنى المكان المنخفض كثيرا، والذي لا يرجع من سقط فيه، أو هي اسم من أسماء جهنم. وهوى فلان إنسانا: أحبه. واستهوى الشيء فلانا: أعجبه، وشغل به، وهواه. واستهوى فلانا: أثر فيه حتى جعله يتقبل رأيه بسهولة. والهوى: الميل والعشق، ويكون في الخير والشر. أو بمعنى ميل النفس إلى الشهوة والجمع أهواء. والهواء: الغاز المحيط بالكرة الأرضية. وقوله تعالى: ﴿ والمؤتفكة أهوى ﴾[2] أي القرية المتقلبة على من فيها سقوطا من أعلى إلى أسفل. وقوله تعالى: ﴿ وأفئدتهم هواء ﴾[3] أي قلوبهم خالية من الفهم كالهواء أي الخلاء الذي لا شيء فيه.

فالعقل الإسلامي محصن بالعقيدة والشريعة من الانزلاق وراء الأهواء. أفلا يحق أن ننعته بالصواب والاستقامة، مادام يشتغل في إطار آفاق التنوير الشرعي أي ضمن حقائق الوحي؟

وفي اللغة: أوحى إليه وله: أشار وأومأ، أو كلمه كلاما خفي على غيره، أو بمعنى كتب إليه، وأمره أو بعثه، وأوحى الله إليه: أرسله أو ألهمه، والوحي: كل ما يلقى في القلب في يقظة أو منام ليعلمه، أو ما يوحيه الله تعالى إلى أنبيائه؛ أو بمعنى الإشارة أو الرسالة أو الكتابة. وقوله تعالى: ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب ﴾[4]. أي يكلمه بالإلقاء في القلب إلهاما أو مناما أو بدون أن يرى من يكلمه.

قال تعالى: ﴿ فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ﴾[5]. وورد لفظ الوحي في سورة النحل (68/16) والإسراء (39/17) ومريم (11/19) وفصلت (12/41)

1. سورة القارعة: 9/101.
2. سورة النجم: 53/53.
3. سورة إبراهيم: 53/14.
4. سورة الشورى: 51/42.
5. سورة إبراهيم: 13/14.

والنجم (10/53) والزلزلة (5/99) والمائدة (111/5) والنساء (163/4) ويوسف (109/12) والنحل (43/16) والأنبياء (25.7/21) وآل عمران (44/3).. وذكر هذا اللفظ في القرآن أربعا وثلاثين مرة.

والعقل الإسلامي بخلاف العقل المسيحي الذي ينطلق من «مبادئ عقدية» غير صحيحة ولا ثابتة ولا يقبلها العقل السليم.

2. دعوى الأرخنة:

تحدث المؤلف عن منهجيته التفكيكية من جهة وعن المنهجية التقليدية التجميعية من جهة أخرى وقال: «في ما وراء المشاكل التي يطرحها تاريخ الفكر والثقافة رحت ألح أيضا في كتابي «قراءات في القرآن» على الضرورة الملحة التالية: أرخنة الخطاب القرآني نفسه. وهذه الأرخنة سوف تكون نقطة الانطلاق لإعادة تحديد المكانة اللغوية، والدلالية، والأنتربولوجية واحتمالا اللاهوتية للوحي. وهذه عملية دقيقة وحرجة لأنها تخص ليس فقط التجسيد القرآني لما يدعوه اللاهوتيون بالوحي، وإنما تخص أيضا التجسيد التوراتي والإنجيلي»[1].

وعلق مترجم هذا الكتاب على كلام صاحبه بقوله: «بمعنى أن ظاهرة الوحي سواء أكانت توراة أم إنجيلا أم قرآنا ينبغي أن تدرس بالطريقة نفسها. وعندما يدعو أركون إلى أرخنة الخطاب القرآني نفسه فإنه لا يفعل أكثر مما فعله علماء أوروبا منذ القرن التاسع عشر بالنسبة للتوراة والأناجيل. ولكن الكشف عن تاريخية النصوص المقدسة عملية عسيرة وحرجة جدا جدا. فهي تصطدم بالوعي الإيماني ـ التقديسي للمؤمنين التقليديين المتعودين منذ مئات السنين على صورة لا تاريخية عن النص المقدس... ولا ريب في أن هذه العملية سوف تكون أصعب العمليات الجراحية التي سيواجهها الوعي الإسلامي في العقود المقبلة من السنين»[2].

1. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص 53.
2. نفسه، ص 53.

- ***أولا***، كان يتوجب على المؤلف أن يلم بالظروف التي تم فيها نزول القرآن الكريم وحفظه وتدوينه وجمعه وتبليغه.
- ***ثانيا***، كان يتوجب عليه أن يلم بعلوم القرآن الكريم أو الدراسات القرآنية وهي متعددة ومتكاملة.
- ***ثالثا***، كان عليه أن يتسلح بسلاح قوي يمكنه من إزالة الإشكالات ودفع الشبهات التي أثارها أساتذته المستشرقون ليكون قادرا على تجاوزها وعدم الوقوع في أحابيلها.
- ***رابعا***، كان عليه أن يتسلح بالقدرة على إدراك مواطن العبرة والحجة والبرهان من القرآن الكريم.
- ***خامسا***، كان عليه أن يستعين على فهم النص القرآني بكل الأدوات المساعدة على الفهم والتفسير.
- ***سادسا***، كان يجب عليه أن يعرف مدارس التفسير وتاريخها ليتعامل مع القرآن الكريم بوعي وعلم.
- ***سابعا***، كان عليه أن يدرك حكم نزول القرآن الكريم منجما، وكيفية التدرج في التشريع من حيث مبدأ نزوله ومدته وطريقة هذا النزول وأماكنه.
- ***ثامنا***، كان عليه أن يقوي إيمانه بمعرفة بعض حقائق المعجزة القرآنية اللغوية والتشريعية والعلمية.
- ***تاسعا***، كان يتوجب عليه أن يطلع على الجهود التي بذلها علماء الإسلام، كل في مجال اختصاصه العلمي، لخدمة القرآن الكريم.

والقاعدة الأصولية التي لا ينبغي نسيانها هي: «يرجع في كل فن إلى أربابه».

ولاشك أن مفهوم «الأرخنة» في كلام المؤلف يعني البحث عن أصول تاريخية للنص المقدس أي النظر إليه من منظور أرضي صرف، وغض النظر عن أصله أو مصدره السماوي (الوحي الرباني). وهذا قول لا يقبله المؤمن. ولذلك سارع أركون إلى الاعتراف بما يلي:

«إني أعرف أن الأمثلة التي ضربتها هنا أيضا لن تقنع أولئك الذين يتبعون العقل السكولاستيكي وحده. وسوف تقنع بشكل أقل حراس الأرثوذكسية الأشداء والمؤمنين التقليديين غير المهيئين لمثل هذه المناقشات النظرية والمصطلحات الشديدة الوعورة من الناحية التقنية»[1].

وهذا مجرد تبرير لذر الرماد في العيون، وتمويه بالقول بوعورة المصطلحات ودعوى الصرامة التقنية. وإلا فإن الهدف الحقيقي هو ترويج التصور المادي الأرضي لمفهوم الدين، ونزع القدسية عن نصوص الوحي، بل محاولة طمس ذلك بالبحث عن الجذور التاريخية، وحصر «النص المقدس» في شروط التاريخ!

وأنى لأصحاب هذا المسلك تحقيق ذلك، والقرآن الكريم والسنة الصحيحة كلاهما يحمل في ذاته أدلة ربانيته وقدسيته. فالقرآن الكريم مهيمن على التاريخ موجه له، والسنة هي الوحي الثاني.

ولكي يدرك القارئ الكريم مدى خطورة ما يقصده أركون ننقل هنا نص ما كتبه عن أحد المؤلفات في هذا المجال أي ما سماه بـ«أرخنة الخطاب القرآني». قال: «وسوف أغتنم فرصة صدور كتاب زميلتي جاكلين شابي لكي أقوم بهذا العمل. فقد أصدرت في العام الماضي كتابا بعنوان «رب القبائل ـ إسلام محمد». يمثل هذا الكتاب أطروحة الدكتوراه التي قدمتها الباحثة في السوربون. وقد حاولت أن تقرأ بطريقة تاريخية محضة وصارمة ما كانت قد دعته بالقرآن المكي. قلت بطريقة تاريخية صارمة لأنها لم تعبأ إطلاقا بالاعتبارات اللاهوتية أو الروحية. إن تطبيق القراءة التاريخية المحضة على الكلام الذي أصبح نصا مقدسا ومؤسسا لأمة واسعة من المؤمنين، أقصد أمة المسلمين، يمثل تحديا نظريا ومعرفيا أكثر إثارة من الناحية الفكرية وأكثر إنتاجية من الناحية الثقافية من محاولة جوزيف ڤان إيس. لماذا؟ لأن المستشرق الألماني الكبير لم يشتغل إلا على النصوص الثانوية، أو بالأحرى نصوص الدرجة الثانية التي لم يعتبرها المسلمون في يوم من الأيام بمثابة كلام الله. بمعنى آخر فإنه لم يشتغل على القرآن وإنما على النصوص الثانية التي

1. نفسه، ص 53.

تجيء بعده من حيث الأهمية. على الرغم من أنها لم تعتبر بمثابة كلام الله إلا أنها متفرعة بدرجات متفاوتة عن الكلام الذي أصبح نصا أولا، أي القرآن»[1].

وعلق المترجم هاشم صالح على هذا الكتاب بقوله: «يمثل هذا الكتاب أكبر عملية أرخنة للنص القرآني حتى الآن في اللغة الفرنسية»[2].

واضح إذن أن هذا العمل الاستشراقي يستهدف تغييب الأصل الإلهي للنص القرآني، بمحاولة إضفاء الاعتبار المادي الضيق التاريخي الأرضي عليه، والتعامل معه كوثيقة أفرزتها التطورات التاريخية.

والملاحظ أن أركون لا يقوم إلا باستنساخ هذا الاتجاه الاستشراقي والعمل على الترويج له، بين المثقفين العرب. ولم يعلم أن المصدر الرباني للقرآن الكريم أول ما يؤمن به قارئه الذي سلمت فطرته وعقله منذ اللحظة الأولى. وهذا بالنسبة للمؤمنين بديهة لا تحتاج إلى دليل. إذ هي مصدر الأدلة. فالقرآن الكريم يحمل براهين ربانيته في إعجازه ومعانيه وعلومه وأحكامه وحكمه وأمثاله وقصصه وإشاراته وكل كلماته وحروفه. وأما بالنسبة لغير المؤمنين فإنهم ينبهرون بروعة القرآن الكريم البلاغية والتشريعية والإعجازية العلمية بعد دراسته. ووجوه الإعجاز في القرآن عديدة منها الإعجاز البياني والتشريعي والعلمي والعددي. قال الله تعالى: ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾[3].

حصل هذا الانبهار والاندهاش والشعور بالروعة القرآنية وقت نزول الكتاب العزيز لدى العديد من صناديد قريش، وفي المراحل المتتالية من تاريخ الإسلام، وهو يحصل اليوم على أوسع نطاق في العالم المعاصر لدى علماء الغرب.

---

1. نفسه، ص 54.
2. نفسه، هامش ص 54.
3. سورة يونس: 37/10.

فمحاولة أركون المشار إليها سابقا محاولة فاشلة داحضة. قال الله تعالى: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم حم والكتاب المبين، إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين ﴾[1]. وقال: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم المص كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴾[2]. وقال: ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[3]. وقال: ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾[4] إلى غير هذه الآيات التي تثبت ربانية مصدر القرآن العظيم.

قال تعالى: ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾[5].

3. جمع القرآن الكريم وتدوينه:

ومن ترهات ما خطه قلم مترجم كتاب أركون في هامش الصفحة 54 قوله أيضا: «المقصود بالكلام الذي أصبح نصا أن القرآن كان في البداية كلاما شفهيا تلفظ به النبي أمام أصحابه وأتباعه لأول مرة في ظروف محددة تماما. وقد ظل القرآن كلاما شفهيا محفوظا عن طريق الذاكرة لفترة طويلة قبل أن يبتدئ المسلمون بتدوينه كتابة. وعلماء الألسنيات يقولون إن الانتقال من المرحلة الشفهية إلى المرحلة الكتابية عملية معقدة وليست بسيطة إلى الحد الذي نتصوره. ونحن المتأخرين لن نستطيع التوصل إلى الحالة الأولى للخطاب ـ أي الحالة الشفهية. لأنها انتهت إلى الأبد. وحدهم الذين عاصروا الوحي يعرفونها. نحن نعرف النص الناجز المكتوب فقط»[6].

---

1. سورة الدخان: 51/44.
2. سورة الأعراف: 7/1-2.
3. سورة الحجر: 9/15.
4. سورة القصص: 85/28.
5. سورة النساء: 82/4.
6. قضايا في نقد العقل الديني ـ هامش ص: 54.

نقول: الحمد لله الذي نزل الذكر وحفظه، واستحفظ الأمم ما عداه من الكتب. وجعل الكتاب العزيز الخاتم جامعا لأنواع العلوم بالنطوق والفهوم. قال تعالى: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾[1]. فتبارك من أبان فيه الرشد وسبل اجتناب الغي. وقال: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيئون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء﴾[2] وقال: ﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾[3].

إن الاتباع الأعمى لنتائج بعض العلوم الإنسانية كالألسنيات مثلا، ومحاولة إسقاطها على النص القرآني بدون مراعاة الفارق بين الكلام الطبيعي البشري الذي قد تصدق عليه هذه النظريات اللسانية وخاصة هذا الانتقال من الحالة الشفهية إلى الحالة الكتابية وبين النص القرآني أو الخطاب القرآني الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظه: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[4] جعل هؤلاء الحداثيين العلمانيين يتصورون أنهم يمكنهم أن يخضعوا القرآن الكريم لهذه التصورات شبه العلمية. والحال أن القرآن محفوظ من التبديل سواء أثناء التنزيل أو الحفظ أو التدوين، لا تغيير يمكن أن يطاله ولا زيادة ولا نقصان، بل نص القرآن الكريم الذي نقرأه اليوم هو نفسه الذي أوحى به الله سبحانه وتعالى عن طريق الملك جبريل عليه السلام وأنزله على قلب النبي الكريم محمد ﷺ، وبلسانه الذي هو اللسان العربي المبين، وبمنتهى الأمانة والدقة والضبط والحفظ والصيانة. وحفظه الصحابة كما أنزله الله على قلب الرسول ﷺ، وحفّظوه لغيرهم، وأخذه عنهم التابعون وأخذه عن التابعين تابعوهم وأداه هؤلاء إلى الأمة الإسلامية في مشارق الأرض والمغارب، محفوظا في الصدور، مدونا في السطور، والأدلة على ذلك

1. سورة الأنعام: 38/6.
2. سورة المائدة: 44/5.
3. سورة فصلت: 42/41.
4. سورة الحجر: 9/15.

مستفيضة مشهورة ذكرنا بعضها في كتابنا «الشبه الاستشراقية في كتاب مدخل إلى القرآن الكريم للدكتور محمد عابد الجابري رؤية نقدية»[1].

ومن هذه الأدلة أن أول مصحف رسمي (الذي يمكن أن نشبهه بملف يجمع صحفا مرتبة وغير مجلدة) يتميز عن النسخ الأخرى الكاملة أو الناقصة التي كانت عند الأفراد بمطابقته المطلقة للنص المنزل إذ استبعد منه كل ما لم يتضمنه النص الأصلي طبقا للعرضة الأخيرة. فبينما ابن مسعود وأبي بن كعب كانا في بعض الأحيان يكتبان من الذاكرة على مصحف كل منهما، فيضيفان كلمة قد ترجع إلى تاريخ سابق أو يوضحان في الهامش أو بين السطور ـ وغالبا بلون مختلف ـ بعض التفسيرات أو بعض أدعية الصلاة الخارجة عن النص، فإن المصحف الرسمي يخلو حتى من أسماء السور[2].

ويحيل د. محمد عبد الله دراز على «تاريخ القرآن» للزنجاني (ص17) ليؤكد أن زيد بن ثابت لم يكن من كتبة الوحي ومن حملة القرآن فحسب، ولكنه فضلا عن ذلك حضر بنفسه آخر تلاوة للقرآن قام بها الرسول ﷺ[3]. كما بين د. دراز أن كل ما عني به صحابة رسول الله ﷺ لإثبات صحة النص القرآني هو المطابقة الحرفية لكل جزء منه طبقا لما نزل ودون في البداية بإملاء الرسول ﷺ، وتلي أمامه وحمل تصديقه النهائي قبل وفاته. وهذه الموضوعية المطلقة هي الباقية والخالدة على مدى الدهر تشهد لهم لا عليهم[4].

بالإضافة إلى كل هذه الضمانات، وضعت قاعدة للعمل وطبقت بكل عناية، وهي تقضي بألا يؤخذ بأي مخطوط لا يشهد شخصان على أنه مكتوب ليس من الذاكرة وإنما بإملاء الرسول ﷺ ذاته وأنه جزء من التنزيل في صورته النهائية[5].

---

1. تأليف عبد السلام البكاري والصديق بوعلام ـ الدار العربية للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف ودار الأمان ـ 2009.
2. مدخل إلى القرآن الكريم عرض تاريخي وتحليل مقارن، د. محمد عبد الله دراز، ترجمة محمد عبد العظيم علي، مراجعة وتقديم: د. السيد محمد بدوي ـ دار القلم للنشر والتوزيع ـ الكويت ـ الطبعة الخامسة طبعة مزيدة ومحققة 1424هـ/ 2003م ص 39 ـ 40.
3. نفسه، ص 39.
4. نفسه، ص 51.
5. نفسه، ص 39.

وبعد جمع القرآن بكل هذه الاحتياطات سلمه زيد إلى أبي بكر الذي احتفظ به طوال خلافته وعهد به قبل موته إلى عمر المرشح للخلافة من بعده. ثم قام عمر بتسليمه إلى ابنته حفصة أم المؤمنين في آخر لحظة من حياته لأن الخليفة الثالث لم يكن قد بويع في ذلك الوقت[1].

قال الله تعالى: ﴿أم يقولون افتراه. قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين، بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله، كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾[2]. لكن الفكر الاستشراقي التحريفي التضليلي هو الذي يحلو لأركون الدفاع عنه، بدل هذه الحقائق العلمية عن النص القرآني الذي أفنى علماء القرآن أعمارهم في ضبطه ورسمه وتدوينه وتحقيق أدائه وتحرير وتصحيح روايات قراءاته.

4. القرآن الكريم منبع التحرير والتنوير والتطهير:

قال أركون: «حتام يستطيع المسلمون أن يستمروا في تجاهل الأبحاث الأكثر خصوبة وتحديدا من الناحية الاستكشافية ـ المعرفية؟ قصدت بالطبع أبحاث العلماء الغربيين الذين يدعونهم بالمستشرقين. وأقول ذلك وأنا أفكر بأبحاث نولدكه، وجوزيف شاخت. وج. هـ. أ. جو ينبول عن الحديث النبوي، وغيرهم كثير. وكلهم متجاهلون تماما من قبل المسلمين، أو يهاجمون من قبل الفكر الإسلامي المعاصر دون أي تمييز أو تفحص موضوعي. حتام يهملون أو يمررون تحت ستار من الصمت، أو يحذفون كليا من الساحة الثقافية العربية أو الإسلامية؟ هل يمكن أن يستمر هذا الوضع إلى أبد الآبدين؟ ولمصلحة من؟»[3]. ويضيف مروجا لهذا الفكر التحريفي: «إن المثقفين المغاربة المعروفين بانفتاحهم على النقد التاريخي الحديث لم يستخلصوا بعد كل النتائج والدروس الناتجة عن

1. نفسه، ص 39.
2. سورة يونس: 29/10.
3. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص: 54 ـ 55.

المكتسبات الإيجابية لهذه الأبحاث الاستشراقية الكبرى. لقد آن الأوان لكي يفعلوا ذلك من أجل الشروع بالمهمة التي لابد منها: نقد الفكر الديني في العالم الإسلامي، بشكل عام، وفي المغرب الكبير بشكل خاص»[1]

هدف أركون إذاً هو نزع القدسية عن النص القرآني، ونصوص السنة الطاهرة، وإظهار الصحابة رضي الله عنهم بمظهر الأشخاص العاديين الذين لم يحولهم الإسلام إلى آيات ربانية على الأرض، ظهرت ربانيتها من خلال الكرامات، والفتوحات، والعلوم، والأخلاق، والمواهب الإلهية المتنوعة. وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه، وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا. ذلك الفوز العظيم ﴾[2].

فأي شهادة أعظم من هذه الشهادة الربانية؟!

وما كان على أركون إلا أن يرجع إلى "طبقات" ابن سعد، أو "أسد الغابة" لابن الأثير، أو "الاستيعاب" لابن عبد البر أو "صفة الصفوة" لابن الجوزي أو "سير أعلام النبلاء" للذهبي ليكتشف بنفسه هذه الآيات الربانية بدلا من أن يزعم أن كتابات المؤرخين القدامى في العصرين الأموي والعباسي، قد محت تاريخية هذه الشخصيات، وأضفت عليها المثالية. قال: «أقصد بأنهم محوا تاريخيته وحولوه إلى لحظة نموذجية مثالية وفضاء نموذجي مثالي تنعكس فيهما الصور الصراعية للصحابة الذين حولوا أيضا، وبشكل تدريجي، إلى نماذج مثالية عليا تتجاوز التاريخ. لقد حولوا إلى نماذج مثالية فوق بشرية للسيادة الروحية العليا والسلطة السياسية»[3].

ويتصور أركون أو يتوهم بالأحرى أن القرآن الكريم وضع سياجا دوغمائيا مغلقاً أو تسبب في ذلك! في حين أن كتاب الله العزيز هو الذي فتح للمسلمين أبواب العلم بشتى فنونه ومجالاته، وفتح لهم بذلك أبواب الحياة الحقيقية بكل أطايبها.

---

1. نفسه، ص: 55.
2. سورة التوبة: 100/9.
3. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص 55.

قال المؤلف: «وأما النقطة الأساسية الثانية فتخص ما يلي: دور مختلف المدونات الرسمية المغلقة (أو النصوص الرسمية المغلقة). وأولها القرآن نفسه، في التشكيل التاريخي والوظائف الدائمة لما كنت قد دعوته بالسياج الدوغمائي المغلق»[1].

نقول: إن القرآن الكريم وضع سياجا متينا في وجه كل أشكال الفكر الخرافي والشركي والتضليلي والإلحادي والإباحي والعلماني والحداثي التخريبي وذلك لكي يحفظ حرية العقل الإنساني وسلامته، ونظافة المجتمع الإسلامي وطهارته؛ ولاشك أن دعاة الحداثة الغربية اليوم لا يهدأ لهم بال إلا إذا رأوا المسلمين قد تخلوا عن كتاب ربهم، وسنة نبيهم، ولغتهم وثقافتهم وتراثهم واستسلموا للتيارات الحداثية الغربية العلمانية. وهذا ما قصد إليه أركون من وراء قوله:

«من الواضح أن فتح العقليات المغلقة منذ زمن طويل ينبغي أن يبتدئ بفتح ورشة كبيرة عن الدراسات القرآنية. لقد لعب القرآن الدور الحاسم الذي نعرفه في توسع وانتشار ما لا نزال نمارسه الآن تحت اسم العلوم الدينية بصفتها مضادة للعلوم العقلية»[2].

وعلق المترجم هاشم صالح على هذا الكلام في هامش الصفحة 58 بقوله: «يقصد أركون بأن التحرير الفكري في أرض الإسلام سوف يبتدئ حتما بتطبيق المنهج التاريخي ـ الفيلولوجي على دراسة النص القرآني. بالطبع فإن هذا التطبيق موجود الآن، ولكن في اللغات الاستشراقية فقط، أي اللغة الألمانية أولا ثم الإنكليزية ثم الفرنسية. ولكن التحرير لن يتم إلا إذا حصل من خلال اللغة العربية ذاتها، أي: لغة القرآن. وهناك حلان: إما ترجمة هذا الإنتاج الاستشراقي، وإما تأسيس هذه الدراسات التاريخية في اللغة العربية مباشرة، وإما الاثنان معاً».

1. نفسه، ص: 57.
2. نفسه، ص: 58.

قال الله تعالى: ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[1].

إن ما قاله أركون ومترجمه ليس إلا تصريحا بالتبعية المطلقة للفكر الاستشراقي المعادي للإسلام دون تبين. وتدخل في هذا الإطار دراسة د. محمد عابد الجابري «مدخل إلى القرآن الكريم ـ الجزء الأول تعريف القرآن»[2]. وكذلك كتاب د.عبد الله العروي «السنة والإصلاح»[3]. وقد قدمنا رؤية نقدية عن هذين الكتابين ضمن كتابينا «الشبه الاستشراقية في كتاب مدخل إلى القرآن الكريم للدكتور محمد عابد الجابري» و«رؤية نقدية لكتاب السنة والإصلاح للدكتور عبد الله العروي»[4].

قال الله تعالى: ﴿إنا يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾[5] فهو ميسر للتلاوة والفهم والحفظ والعمل به والاستنباط منه وتدبره والاستدلال بآياته البينات. ومع ذلك قال المؤلف بدون علم ولا دليل:

«ولكننا نعلم أن القرآن كنص يظل مستغلقا وغير مفهوم حتى بالنسبة للمؤرخين أو المثقفين الأكثر تخصصا وتبحرا في العلم. فما بالك بجمهور المؤمنين!... ولا أحد يفكر في شرحه أو تفسيره على ضوء المناهج الحديثة من أجل تقريبه من الأذهان والعقول»[6].

إن أركون يتصور أن فكر الحداثة الغربية هو الكفيل بتفهيم القرآن الكريم للعقول، وإلا ظل «مستغلقا غير مفهوم». وأما تفاسير علماء الإسلام الرائعة

1. سورة البقرة: 257/2.
2. صدر عن مركز الوحدة العربية، 2006.
3. صدر عن منشورات الجمل، 2008.
4. صدر الكتابان عن الدار العربية للعلوم ناشرون في لبنان، ومنشورات الاختلاف في الجزائر، ودار الأمان في الرباط.
5. سورة القمر: 17/54.
6. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص: 59.

العميقة الجليلة فليست في نظره القاصر إلا أرثوذكسية تقليدية ينبغي تجاوزها وتفكيكها كما تجاوزت وفككت الحداثة الغربية التراث المسيحي.

قال الله تعالى: ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. ولقد صرفنا في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾[1].

وعلى غرار التحريف المنهج الذي غلب على انسيكلوبيديا الإسلام (أو الموسوعة الإسلامية) يأتي مشروع غربي آخر في نفس السياق الاستشراقي لأرخنة النص القرآني كما يحلو لأركون أن يقول: «ولكن ها هو الإنقاذ يجيء مرة أخرى من الغرب لا من الشرق، من البيئات الأكاديمية العربية أو الإسلامية، لقد جاءت هذه المبادرة العلمية التي طال انتظارها من جامعة تورنتو في كندا ومن الناشر الهولندي الشهير «بريل» في هولندا. ويترأس المشروع البروفسورجين دام مين ماك أوليف التي يحيط بها فريق عمل مؤلف من أربعة أساتذة آخرين»[2].

ويعلق المترجم هاشم صالح:

«بحسب ما قال لي أركون، فإن كل كلمة من كلمات القرآن سوف تتعرض لدراسة تاريخية كاملة في مادة مستقلة على حدة. من الواضح أنه إذا ما ذهب هذا المشروع إلى نهاياته فإنه سيلقي أضواء تاريخية رائعة على النص القرآني، وسوف نعرف عندئذ جذور كل الكلمات القرآنية، ومن أين جاءت، وما هي علاقتها بالزمان والمكان، أي: بالقرن السابع الميلادي وبيئة شبه الجزيرة العربية»[3].

والسؤال هو: عم يبحثون؟ ولماذا؟

إن الحقيقة التي لا يمكنهم حجبها هي أن كلمات القرآن الكريم وحي منزل من الله سبحانه: ﴿ إن هو إلا وحي يوحى ﴾[4]. ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ﴾[5].

1. سورة الإسراء: 88/17-89.
2. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص: 59.
3. نفسه، هامش الصفحة 60.
4. سورة النجم: 4/53.
5. سورة النساء: 163/4.

الباب الثالث

الفصل الأوّل : قوة الإسلام وصلاحيته الدائمة

1. صياغة الإسلام للمجتمعات المسلمة
2. المنهجية التاريخية المزعومة
3. المجتمع الإسلامي: المركز والأطراف
4. سند الفكر الأصولي الإسلامي

الفصل الثاني : تهافت العلمانية والعلمنة

1. عولمة الحداثة وهيمنة نور الله تعالى
2. العقيدة الصحيحة لا الفلسفة الداحضة

الفصل الثالث: الدولة الإسلامية

1. الدعاة المخلصون
2. السياسة الإسلامية
3. عصر التنوير الحق
4. أسطع الحقائق

الفصل الأول
قوة الإسلام وصلاحيته الدائمة

1. صياغة الإسلام للمجتمعات المسلمة:

يقلل المؤلف من شأن تأثير الإسلام في صياغة المجتمعات الإسلامية إذ يعتبره عنصرا من بين عناصر أخرى أو عاملا من بين عوامل أخرى، ومن ثم فهو لا يعتبره العامل الرئيس في تلك الصياغة.

وهذا ما يكذبه التاريخ الإسلامي، وتدحضه النصوص الشرعية. إذ الحقيقة أن الإسلام ـ بوصفه دينا ربانيا سماويا يحمل شريعة سمحة صالحة لكل زمان ومكان ولكل إنسان ـ قد أعاد صياغة تلك المجتمعات التي انتشر فيها، بل طوع باقي العوامل التاريخية والاجتماعية لقوته وحكمته وتوجيهاته، ومن تلك العوامل العامل اللغوي، والعامل العرقي إلخ... ولذلك فإننا نفند ما زعمه المؤلف فنقول إن حالة العالم قبل بزوغ شمس الإسلام كانت حالة ظلم وجور وحيف تغطي بقاع الدنيا، وكانت هناك شرائع تفرق بين إنسان وآخر، فتعطي هذا وتمنع هذا وتحرم ذاك، وتستذل طائفة وترفع أخرى، غير معتمدة في ذلك على عقل منصف ولا ضمير حي واع يهدي، ولا مبدأ سليم يبنى على الحق والعدل. قال الله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير﴾[1].

ليس في دساتير الأمم الراقية نص أساسي على الأخوة الإنسانية التي نص عليها القرآن الكريم، وليس فيها نصوص واضحة على المساواة الأخلاقية للطوائف والأجناس البشرية واحترامها سواء أمام القانون، وليس فيها قيم للتفاضل تقوم على التقوى، أي الصلاح والاستقامة على الطاعة.

---

1. سورة الحجرات: 13/49.

قال المؤلف: «وأقصد بالظاهرة القرآنية ظهور القرآن كحدث في لحظة محددة تماما من لحظات التاريخ، ثم تشكل الظاهرة الإسلامية كحدث حاصل بعده. وينبغي أن نأخذ هذه المصطلحات بعين الاعتبار إذا ما أردنا أن ندرس المجتمعات البشرية التي انتشر فيها الدين الإسلامي فهي عامل مؤثر من جملة عوامل أخرى، ولكنها ليست كل شيء. فهناك أيضا، كما قلنا، العامل العرقي، والعامل اللغوي والعامل الجغرافي ـ التاريخي السابق على الإسلام، والعامل الاقتصادي... إلخ. وإذن فليس الدين هو الذي يحسم كل شيء كما يتوهم المستشرقون والمسلمون التقليديون. ولكن أخذ كل هذه العوامل بعين الاعتبار يتطلب منا الانتقال من منهجية الاستشراق الكلاسكي (أو التقليدي) إلى منهجية العلوم الإنسانية الحديثة»[1].

ويكرر المؤلف أسلوبه المتهكم من تصور الإسلام على أنه دين بمستطاعه أن يغير كل شيء، قال: «فالإسلام الأقنومي القادر على كل شيء ينبثق أمامنا من البداية أو منذ العنوان ـ كالبطل يجترح المعجزات. ويستخدمونه دائما بالحرف الكبير (أي بالفرنسية: ISLAM، وليس islam) للدلالة على أنه هو الذي يؤثر على كل شيء ويحسم كل شيء في المجتمعات التي انتشر فيها. إنه يشبه البطل الرئيسي في الحكايات الشعبية؛ هذا البطل الذي يتعرض أثناء الحكاية لكل أنواع المحن والامتحانات التي ترفع من قدره أو تنقص منه بحسب نجاحاته وإخفاقاته. ولكن الفرق بين الإسلام هنا وبين البطل في الحكايات الشعبية هو أن الإسلام لا يكتسب في نهاية المسار المعقد والمشعب أي هوية مميزة له وخاصة به، على عكس البطل الذي يكافأ عادة بهوية مميزة بعد أن يخرج من كل المحن والتجارب. لا. يظل الإسلام قبل ذلك وبعده مصطلحا غامضا، عموميا فضفاضا، قابلا للاستخدام هنا وهناك، وفي كل مكان، من أجل الإجابة عن جميع الأسئلة وحل كل المعضلات! إنه المصطلح المهيمن المنتشر في جميع الظروف والأحوال. وهكذا يستخدمه المستشرقون التقليديون وكأنه البديل الزمني لله.

1. قضايا في نقد العقل الديني ـ هامش ص 87.

فالله هو القادر على كل شيء وكذلك الإسلام. وهكذا يحذفون العلوم الاجتماعية بالأمس واليوم ويحلون محلها الإسلام ويرتاحون من عناء المشكلة[1].

نقول ردا على هذا الكلام المتهافت: إننا نرفض تكريس واقع تغلب فيه عوامل مادية أو عرقية أو غيرها على حساب الدين الإسلامي من حيث صياغة واقع الحياة، وثقافتها، وتصورات الإنسان المسلم للكون والحياة. ولا تطغى هذه العوامل في تشكيل الواقع إلا عندما يتم تهميش الدين أو التخلي جزئيا عن الالتزام به، أو ترويج ثقافات دخيلة بين المنتسبين إليه. كما هو حاصل مع الغزو الفكري الغربي وأذنا به المروجين لمقولاته.

2. المنهجية التاريخية المزعومة:

والدين عند أركون مجرد تخيل أو مجرد شيء صادر عن عالم المتخيل. يقول: «لا نمتلك حتى الآن أدوات مفهومية مناسبة لكي نقيم، لا أقول علاقات مباشرة، وإنما علاقات غير مباشرة بين مختلف مناحي الحياة الاجتماعية الكلية: أي بين العامل الاقتصادي، والعامل الاجتماعي، والعامل السياسي، والعامل الثقافي، والعامل الديني، أو بالأحرى عامل المتخيل الذي يشمل حقيقة نفسية ـ اجتماعية أكثر اتساعاً»[2].

وتبلغ المماثلة في ذهن المؤلف بين الإسلام الدين الحق والمسيحية المحرفة درجة يدعو معها إلى تلك المناهج التي طبقت على الدين المحرف لتطبيقها على الإسلام بدون اعتبار للفارق بين الدين الحق الرباني الخاتم، وتحريفات وضعية بشرية مليئة بالأخطاء والخرافات. يقول:

«نحن نعلم أن ماكس ڤيبر كان قد أقام علاقة وظائفية شغالة بين المذهب البروتستانتي وبين ظاهرة نشوء الرأسمالية وتطورها. وقد ألهمت هذه الإشكالية أعمال الكثير من المؤرخين وعلماء الاجتماع وأسالت حبراً كثيراً، ولكن دون أن

1. نفسه، ص: 89-90.
2. نفسه، ص: 91.

تتوصل إلى نتائج قاطعة أو دون أن تولد منهجية صلبة قابلة للتصدير إلى مناطق أخرى (إلى منطقة الإسلام مثلا). ولكن هناك شيئا واحدا مؤكدا على أي حال: وهو أنه تنبغي أرخنة الإسلام ضمن الخط الفيلولوجي التاريخي الذي هيمن على منهجية الاستشراق الكلاسيكي منذ هذا القرن. بمعنى: ينبغي أن تطبق على الإسلام المنهجية التاريخية ذاتها التي طبقت على المسيحية من قبل»[1].

إن هذه النظرة المادية التبسيطية أو بالأحرى التضليلية التحريفية هي التي جعلت أركون وأمثاله من دعاة التغريب ومروّجي فكر الحداثة الغربية يتصورون أنهم يتعاملون مع ظاهرة ثقافية واجتماعية وتاريخية كباقي الظواهر عندما يتعاملون مع الإسلام متجاهلين ربانيته، وأبعاده الغيبية (عالم الغيب بالإضافة إلى عالم الشهادة)، وحمولته الروحية العميقة التي هي أولى في الاعتبار العلمي الموضوعي من كل العوامل المادية التي يدندن حولها هؤلاء الباحثون المتغربون المغرضون.

«ليس الحديث عن التاريخية بالحديث الهين، وإن أجهد أركون نفسه ليجعله كذلك، نظرا إلى تشعب المباحث المتعلقة به من جهة، والإشكالات المرتبطة بهذه المباحث من جهة أخرى، حتى إنه لا مجازفة إذا قلنا إن النتيجة التي وصل إليها، أي القول بتاريخية القرآن الكريم، أضخم كثيرا من الأدلة والحجج التي ساقها في أثناء تناوله للموضوع، وما هي في الحقيقة إلا توسيع لحكم خاص بنصوص دينية أخرى، وعممه على الخطاب الديني عموما، ولا تخفى خطورة ذلك، وبعده عن العلمية التي يقتضيها كل بحث جاد، وللمرء أن يتساءل: هل ما صدق على نصوص العهدين القديم والجديد يصدق حتما على النص الديني عموما والقرآن خصوصا؟ هل من العلمية إعطاء حكم عام بتاريخية كل نص ديني لوجود نموذج أو اثنين أثبتت الدراسات أنهما يخضعان فعلا للتاريخية؟

إن الانتقال من الحديث عن نصوص العهدين القديم والجديد إلى الحديث عن النص الديني عموما يتطلب مراعاة خصوصية النصوص الأخرى، وعلى رأسها القرآن»[2].

---

1. نفسه، ص 92-93.

2. القرآن الكريم والقراءات الحداثية - مرجع سابق ص 47.

لقد تناسى محمد أركون تصريح البابا الجديد يوم الثلاثاء 12 نونبر 2006 خلال محاضرة في جامعة ريفينسبورغ جنوب ألمانيا عن العلاقة بين العقل والعنف في الإسلام واستشهاده بكتاب للإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني (1350 ـ 1425م)، وهو بعنوان «حوارات مع مسلم»، وفيه المناظرة السابعة وقد قدم له ونشره في الستينيات عالم اللاهوت الألماني اللبناني الأصل تيودور خوزي من جامعة مونستر. يعرض الإمبراطور الحوار الذي أجراه بين (1394 ـ 1402م) على الأرجح مع عالم فارسي مسلم، وفي تعليق على فقرات من المناظرة السابعة تحدث أستاذ اللاهوت البابا بينديكت السادس عشر عن العلاقة بين الإيمان والعقل والعنف في المسيحية وفي الإسلام.. قال المحاور: «أرني الجديد الذي جاء به محمد. لن تجد إلا أشياء شريرة وغير إنسانية مثل أمره بنشر الدين الذي كان يبشر به بحد السيف». وانتظر المثقفون المسلمون موقف أركون من هذا التصريح، فسكت دهراً ونطق شراً. ولكن الله قيض للرد على هذا القول رجلا مشكوراً هو الدكتور تامر مير مصطفى الذي كتب «ليت البابا يقرأ»[1]. وقد ذكر فيه المؤلف نصوصا من الأناجيل الأربعة: متى، مرقص، يوحنا، لوقا. وكلها مخالفة لقول البابا، فألقمه بذلك حجراً. فليت أركون يقرأ!

3. المجتمع الإسلامي: المركز والأطراف:

يتساءل المؤلف عن سبب فشل فكر ابن رشد في البيئة الإسلامية ـ وهو الفكر الذي طبل له وزمر كثير من العلمانيين والحداثيين ـ وسبب نجاحه وتوسعه وانتشاره السريع في البيئة المسيحية في القرون الوسطى. ويعتبر أركون أن السبب سوسيولوجي (أو اجتماعي). والحقيقة أن السبب يكمن في تعارض الخلفية الفلسفية الإغريقية التي يقوم عليها فكر ابن رشد مع المنظومة العقدية للإسلام، وبالتالي فالمسلمون عندما يرفضون هذا الفكر يكونون مخلصين لمرجعيتهم الدينية الإسلامية (العقيدة الصحيحة كما بينها القرآن والسنة). فليست الأسباب اجتماعية، وإنما هي دينية، لأنها صادرة عن اقتناع المسلمين

1. صدر عن دار الأوائل، دمشق ط 1. 2007/1428.

بالبراهين والأدلة القرآنية والسنية الداحضة للفلسفة الإغريقية وفكر شراحها والمروجين لها، بقدر اقتناعهم بالبراهين والأدلّة المثبتة للعقائد الإسلامية الناصعة الصحيحة.

ويكفي هنا الاستدلال بآيات الذكر الحكيم في مجال العقيدة وهي البراهين القرآنية التي تفند أباطيل الفلسفات المنحرفة.

ويشرح المترجم هاشم صالح ما يقصده أركون بقوله: «بمعنى أن الظروف الاجتماعية إذا لم تكن محبذة لفكر ما أو لمفكرما، فإنه يموت في أرضه.

فالعبقريات قد تخنقها الظروف وقد تنعشها وتساعد على تفتحها. فإذا كانت الظروف سلبية جدا، فإنها تمنع انتشار الفكر الفلسفي أو العلمي مثلا وتساعد على انتشار الفكر الفقهي أو الصوفي أو الغيبي...»[1].

ويعجب أركون إعجاباً كبيراً بموقف المستشرق كلود كاهين الذي ينعي على المؤرخين عدم اهتمامهم بسكان المناطق النائية (الهامش بدل المركز) وتركيزهم على ما يسميه أركون بـ«القطاع الاجتماعي ـ الذي «تهيمن عليه العصبية التضامنية الشغالة بين أربع قوى هي: تشكيلة الدولة المركزية ـ الكتابة واللغة الفصحى ـ الثقافة العالمة أو الرسمية ـ الأرثوذكسية الدينية (أي المذهب الديني المعتبر أنه هو وحده المستقيم والصحيح وما عداه بدع وهرطقات)»[2]. ويعلق هاشم صالح على موقف كلود كاهين وإطراء محمد أركون له بقوله: «إنه خطاب المركز ضد الأطراف. وهو يفرض نفسه كخطاب نموذجي، عقلاني، شرعي، صحيح، أخلاقي، مطلق الصلاحية. إنه هو الذي يقيم الآخرين ولكن الآخرين لا يستطيعون تقييمه... وهل يمكن للأطراف أن تقيم المركز؟ وحتى عالم الجغرافيا ينصاع لهذا المنظور المهيمن. فهو يستخدم النصوص الجدالية والشديدة المعيارية والقسرية من أجل نعت الفضاء المتوحش بالجاهلية! والمقصود بهذا الفضاء

1. قضايا في نقد العقل الديني ـ هامش صفحة 93.
2. نفسه، ص 96.

المتوحش بالطبع مناطق البدو. ومعلوم أن هناك نصوصا جدالية شديدة ضدهم في القرآن والحديث النبوي. وهكذا يأخذ عالم الجغرافيا الحديث على عاتقه هذه النعوت السلبية دون أن يكلف نفسه مسبقا عناء القيام بقراءة تاريخية، أي نقدية، لهذه النصوص»[1].

هكذا يتوهم الحداثيون العرب أن النصوص القرآنية والحديثية في حاجة إلى دراسة نقدية تاريخية تتجاوز منطوقها ومفهومها (ويتعلق الأمر هنا مثلا بموقف القرآن الكريم والحديث الشريف من الأعراب. قال تعالى: ﴿الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم﴾[2] وهذا كلام رب العالمين الذي يعلم السر وأخفى). والهدف من دعوى الدراسة النقدية قلب المفاهيم الإسلامية والتصورات القرآنية المتعلقة بالإيمان والنفاق والإسلام والجاهلية والعلم والجهل ومجتمع المؤمنين وأعداء هذا المجتمع.. إلخ، بدعوى دراسة الأطراف كما درس المركز مما يقتضي ـ حسب زعم هؤلاء الحداثيين ـ القراءة النقدية التاريخية للقرآن والسنة، بما يسمح بإعادة كتابة التاريخ.

وما فتئ المؤلف يعتبر «الإسلام»: «التسمية الغامضة والعمومية»[3].

والحق أن الإسلام ليس دينا غامضا، بل هو دين بين قيم، وليس كذلك دينا عموميا مجملا غير مفصل، بل هو دين مفصل أدق تفصيل.

قال الله عز وجل عن القرآن الكريم الذي هو المصدر الرئيس للإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقا: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾[4]. وقال: ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم. وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾[5] وقال: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾[6].

1. نفسه، ص 97.
2. سورة التوبة: 97/9.
3. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص: 100.
4. سورة هود: 1/11.
5. سورة العنكبوت: 49/29.
6. سورة النحل: 44/16.

ويعتبر أركون ما سماه بـ«الأرثوذكسية الدينية» عصبية من بين العصبيات الأربع التي يرتكز عليها القطاع المهيمن في المجتمع الإسلامي ويعقب هاشم صالح شارحا هذا المصطلح: «المقصود بالأرثوذكسية الدينية المذهب الإسلامي الرسمي المعتبر أنه وحده المستقيم والصحيح، وما عداه فمنحرف قليلا أو كثيرا عن المذهب الصحيح. وكلمة «أرثوذكسية» تعني حرفيا الخط المستقيم»[1].

ومقتضى هذا الكلام أن مذهب أهل السنة والجماعة الذي ساد المجتمعات الإسلامية عبر التاريخ مجرد عصبية من العصبيات! مما يعني نسف الأصول الدينية المقدسة لهذا المذهب وإلغاءها منه بدعوى الأرخنة ونزع القدسية عن النصوص ودراسة تاريخ الهامش أو الأطراف أو البدو!

وتعني الأرثوذكسية في الأصل الكنائس المسيحية الشرقية البيزنطية التي انفصلت عن الكنيسة الكاثوليكية على أيام ميخائيل كيرولارس بطريرك القسطنطينية سنة 1054م، وقد انتشرت في روسيا وبلاد البلقان واليونان ومختلف بلدان الشرق الأدنى حيث تؤلف كنائس مستقلة تحت سلطة بطاركتها.

4. الولاية والحضارة:

ويقول المؤلف عن الأولياء الصالحين إنهم موجودون في جميع المجتمعات التي مسها الحدث الإسلامي أو تغلغل فيها. فهم عبارة عن الوكلاء الذين يتكفَّلون بإعادة إنتاج نظام معرفي خليط أو مركب، ثم يكررونه على مسامع الشعب البسيط ويطبقونه عمليا»[2].

وقال قبل ذلك: «كنا قد ذكرنا كتاب ح. الطواتي الذي يتحدث فيه عن المتعلمين والأولياء الصالحين والسحرة المشعوذين الذين كانوا يملأون المغرب الكبير في القرن السابع عشر»[3]. وهذا بهتان مبين! إذ الأولياء الصالحون مشهود لهم بالاستقامة والولاية والكرامة في أوساط العلماء الكبار قبل عموم الشعب. فكيف يساوي المؤلف بينهم وبين السحرة والمشعوذين؟!

1. قضايا في نقد العقل الديني ـ هامش ص: 101.
2. نفسه، ص: 101.
3. نفسه، ص: 101.

قال الإمام عبد الكريم القشيري رحمه الله تعالى: «إذا قيل: ما معنى الولي؟ قيل: يُحتمل أمران: الأول: أن يكون فعيل مبالغة من الفاعل، كالعليم والقدير وغيره، ويكون معناه: من توالت طاعاته من غير تخلل معصية.

والثاني: يجوز أن يكون فعيل بمعنى مفعول، كقتيل بمعنى مقتول، وجريح بمعنى مجروح. وهو الذي يتولى الحق سبحانه حفظه وحراسته على الإدامة والتوالي، فلا يخلق له الخذلان الذي هو قدرة العصيان، وإنما يديم توفيقه الذي هو قدرة الطاعة، قال الله تعالى: ﴿ وهو يتولى الصالحين ﴾[1].

فإن قيل: فهل يكون الولي معصوما؟

قيل: إما وجوبا كما يقال في الأنبياء فلا، وإما أن يكون محفوظا حتى لا يصر على الذنوب، إن حصلت آفات أو زلات، فلا يمتنع ذلك في وصفهم»[2].

وقال رحمه الله عن طائفة المتصوفين:

«لقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضلهم على كافة عباده، بعد رسله وأنبيائه، صلوات الله وسلامه عليهم. وجعل قلوبهم معادن أسراره، واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره، فهم الغياث للخلق، والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق بالحق، صفاهم من أكدار البشرية، ورقاهم في محال المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية، ووفقهم للقيام بآداب العبودية، وأشهدهم مجاري أحكام الربوبية، فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف، وتحققوا بما منه سبحانه عليهم من التقليب والتصريف ثم رجعوا إلى الله سبحانه وتعالى بصدق الافتقار ونعت الانكسار، ولم يتكلوا على ما حصل منهم من الأعمال، أو صفا لهم من الأحوال، علما منهم بأنه جل وعلا يفعل ما يريد، ويختار من يشاء من العبيد، لا يحكم عليه خلق، ولا يتوجب عليه لمخلوق حق، ثوابه ابتداء فضل، وعذابه حكم بعدل، وأمره قضاء فصل»[3].

1. سورة الأعراف: 196/7.
2. الرسالة القشيرية في علم التصوف ـ عبد الكريم القشيري، تحقيق وإعداد معروف زريق وعلي عبد الحميد بلطه جي دار الجيل ـ بيروت ص: 359-360.
3. نفسه، ص 36.

إن أركون يبالغ كثيرا عندما يعتبر أن التفاوت التاريخي بين المجتمعات الإسلامية والمجتمعات الأوروبية قد حشر المجتمعات الأولى داخل دائرة وجود لا علاقة لها بالمجتمعات الأوروبية أو بالحداثة الأوروبية»[1]. فالواقع أن العلاقة الحضارية المتبادلة بين العالمين الإسلامي والأوروبي قائمة لا يمكن نفيها. وإلا بم نفسر هذا التقدم التقني والعلمي والعمراني والاقتصادي... الذي تشهده العديد من أقطار العالم الإسلامي، بل منها أقطار صارت تضارع في عدة ميادين حضارية ما أنجزته أوروبا؟! إن المسلمين ليسوا أقواما بدائيين خرجوا لتوهم من الكهوف المهجورة، بل إن لهم حضارة إسلامية عريقة كانت وراء هذا التقدم الإنساني العالمي، ولا تزال مؤثراتها المعنوية والفكرية والروحية تفعل فعلها في مختلف الحضارات، وإن كانت قد أصابها تدهور في الجانب الإبداعي التقني والعلمي الدقيق؛ وهذه الحضارة بإمكانها أن تنهض نهضتها المعاصرة إذا أخذت بأسباب ذلك وأهمها تطبيق الشريعة الإسلامية والاهتمام بالعلم والبحث العلمي، والسياسة الداخلية والخارجية الرشيدة، واستثمار آليات إنتاج المعرفة في تراثنا الإسلامي من أجل الوصول إلى إبداعية إسلامية معاصرة.

4. سند الفكر الأصولي الإسلامي:

يتصور المؤلف أن الآيات الداعية إلى الجهاد مجرد تنظير قرآني للعنف. قال: «فالعنف الذي نظر له القرآن في سورة التوبة، يختلف كثيرا عن العنف الذي يتجلى اليوم في كل أشكال الإرهاب الأصولي»[2]

نقول: إن القرآن الكريم ليس تنظيرا بل هو تنزيل من الله العزيز العليم. قال تعالى: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم. حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾[3]. ثم إن هذا التنزيل ليس تنظيرا للعنف، بل هو دعوة إلى نبذه، ومحاربة المفسدين الذين يستعملون العنف للوصول إلى أغراضهم الدنيئة. وإذا

1. نفسه، ص: 102.
2. نفسه، ص 102 ـ 103.
3. سورة غافر: 1/40-2.

تأملنا القرآن الكريم بعمق ألفينا أنه دعوة إلى السلم والسلام: ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾[1]. ﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾[2]. ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ﴾[3]. ﴿ فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون ﴾[4]. ﴿ سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ﴾[5]. وتحت تأثير الفيلسوف الفرنسي ميشل فوكو وتصوره عن النظام المعرفي أو الإبستيمه (épistémé) ، يعتمد أركون هذا المفهوم معياراً للتحقيب الزمني الخاص بتاريخ الفكر الإسلامي. ويشرح هاشم صالح نظرة أركون بقوله: «ويبدو أن أركون يكتشف نظاما فكريا واحدا سيطر على الفكر الإسلامي منذ ظهور الإسلام وحتى اليوم: هو نظام الفكر الأصولي الذي ساد في الغرب أيضا أثناء القرون الوسطى. وبالتالي فقطيعة الحداثة لم تحصل لدينا حتى الآن كما حصلت في الغرب»[6].

ومفاد هذا الكلام أنه لكي تحصل لدينا قطيعة الحداثة ـ وهو ما يسعى كل الحداثيين العرب إليه ـ لا بد من تجاوز هذا النظام الذي أقامه الإسلام، أي تجاوز الإسلام. لكن هيهات!

إن ما يقلق أركون ويغيظه أن تستمر الدعوة إلى الإسلام على ما كانت عليه منذ البعثة المحمدية، وأن يسود المذهب السني كل هذه العصور التي مر بها العالم الإسلامي. ولذلك نجده يقول بصراحة: «هناك استمرارية ابستمولوجية بين أول تبلور لصيغة الإسلام في القرون الهجرية الأولى / وبين الصيغة التي يتخذها

1. سورة يونس: 25/10
2. سورة البقرة: 208/2.
3. سورة الحشر: 23/59.
4. سورة الزخرف: 43/89.
5. سورة القصص: 55/28.
6. قضايا في نقد العقل الديني ـ هامش ص 103.

الخطاب الإسلاموي الأصولي السائد حاليا في أواخر القرن العشرين. وهي استمرارية طويلة جدا وتلفت الانتباه حقا. وعندما أقول ذلك أقصد بأن التدجين الاجتماعي للفرد الإسلامي لا يزال مستمرا حتى اليوم كما كان عليه الحال قبل ألف وأربعمائة سنة! أقصد بأن أنماط الإدراك والتصور، وأنماط المحاجة والتأويل ورؤية العالم لا تزال هي هي»[1].

نقول: إن هذه الرؤية لن تتغير لأنها نابعة من القرآن الكريم والسنة النبوية، فهي عقيدة أهل السنة والجماعة، فلماذا يريد أركون تغييرها، وبماذا؟! بفكر الحداثة الغربية التائهة في متاهات الضلال! ويظن شارح أركون هاشم صالح أن تفكيك نظام الفكر الأصولي الإسلامي كما حصل لنظام الفكر الأصولي المسيحي في الغرب، كفيل بأن يزيل هيمنته على مجتمعاتنا[2].

وإننا لنستغرب ممن يدعي دراسة الإسلام والإلمام بأصوله وفروعه أن يماثل في توهمه بين ما يسميه «الفكر الأصولي المسيحي» وبين «الفكر الأصولي الإسلامي»، علما بأن الأول لا سند له من الصحة، بينما يتمتع الثاني بكل أسس الصحة والصلاحية لأنه مستقى من المصدرين الربانيين: القرآن الكريم والسنة الطاهرة.

1. نفسه، ص 103.
2. ينظر هامش ص 104.

الفصل الثاني
تهافت العلمانية والعلمنة

1 . عولمة الحداثة وهيمنة نور الله تعالى:

قول المؤلف إنه: «كان الأحرى بالمسلمين أن يقوموا هم بهذا المشروع لا الغربيين. (ويقصد مشروع الموسوعة القرآنية المذكور سابقا). ولكننا نعلم أنه لم يحلم أحد في دار الإسلام حتى مجرد حلم بتوسيع مشروع السيوطي الجميل الوارد في كتابه «الإتقان في علوم القرآن»[1].

نقول ردّاً عليه: إن الكتابة العلمية المضبوطة في ميدان علوم القرآن لم تتوقف في هذا العصر، بل ظهرت مؤلفات جليلة زادت مسائل هذه العلوم وضوحا وتدليلا كما دحضت العديد من الشبهات التي حاول بعض المغرضين في الماضي والحاضر بثها في عقول الناس. ومن هذه المؤلفات الجليلة كتاب «مناهل العرفان في علوم القرآن» للعلامة المرحوم الشيخ عبد العظيم الزرقاني، وكتاب «مباحث في علوم القرآن» لصبحي الصالح وكلاهما مفيد للغاية. وكذلك كتاب «مقدمة في الدراسات القرآنية» لفاروق النبهان وهو كتاب نافع. ومن أفيد ما ألف قديما: «مواقع العلوم في مواقع النجوم»[2] للإمام البلقيني. وفيه مقارنة بين أقوال المؤلف وبين السيوطي في التحبير، وبينه وبين الزركشي في «البرهان في علوم القرآن». وهناك مؤلفات أخرى. لكن ما أراده أركون لا يمكن أن يكتبه عالم مسلم، وإنما تخطه أقلام منحرفي الفكر ضحايا الغزو الفكري الغربي !

ويفصح المؤلف أكثر عن أهدافه المسمومة، وغاياته الخطيرة، إذ يقول متحديا مشاعر المسلمين وإن كان ولد بين ظهرانيهم ويحمل اسما من أسمائهم:

---

1. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص: 60 .

2. أعد هذا العمل سعيد فؤاد عبد ربه إبراهيم، قسم التفسير وعلوم القرآن ـ جامعة الأزهر ـ في تعداد 677 صفحة.

«إذا ما موضعنا كل الملاحظات السابقة داخل سياق العولمة الحاصل حاليا والذي لا يقاوم، فإنه يمكننا أن نعتقد بأن الطفرات الذهنية العميقة الجارية حاليا سوف تتكفل، بجعل كل تلك الصراعات الدائرة حول المسألة الدينية بشكل عام، والإسلام بشكل خاص، شيئا باليا ولا معنى له. إن كل هذا سوف يتبخر ويذهب مع الريح. ولن يبقى إلا «الدين من أجل الذاكرة» كما تقول الباحثة الفرنسية دانييل هيرفيو ليجيه بصدد المسيحية في أوروبا[1].

يتوهم كثير من الحداثيين الذين عصفت بهم رياح العولمة الحداثية الغربية أن هذه الرياح ستقتلع الإسلام من قلوب وعقول المسلمين، ولن يعود ثمة حديث عن هذا الدين إلا بوصفه تحفة في متحف، أو أثرا من آثار التاريخ، التي تبقى من أجل الذاكرة فقط! هيهات! قال الله تعالى: ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾[2].

ألم يعلموا أن الدين عند الله الإسلام: ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه. وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾[3] وقال تعالى: ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾[4]. وقال النبي ﷺ: (**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة**)[5]. وقال: (**لا تقوم الساعة على أحد يقول: الله الله**)[6].

---

1. قضايا في نقد العقل الديني - ص 60.
2. سورة البقرة: 111/2.
3. سورة آل عمران: 85/3.
4. سورة فصلت: 53/41.
5. أخرجه الإمام مسلم في صحيحه 137/1 كتاب الإيمان (1) باب نزول عيسى ابن مريم (71) الحديث 156/247، وفي 1524/3 كتاب الإمارة - 33 - باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ..» 53 - الحديث 1923/173.
6. أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: «لا تقوم الساعة على أحد يقول: الله الله» كتاب الفتن باب لا تقوم الساعة، مصابيح السنة للإمام البغوي 519/3 الحديث رقم 4270.

وفي رواية عن أنس أيضا قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله» أخرجه مسلم في صحيحه 131/1 كتاب الإيمان - 1 - باب ذهاب الإيمان آخر الزمان - 66 - الحديث رقم 148/234.

ومعنى هذا أن قيام الساعة يأتي بعد ذهاب المؤمنين والإيمان من الأرض ولن يكون ذلك إلا بعد ظهور العلامات الصغرى والكبرى للساعة، حيث يظهر المهدي عليه السلام، ويؤم المؤمنين، ويبسط الله سبحانه نعمه على العباد وينشر بركاته عليهم، وكل هذا يدل على أن الإسلام باق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

إن العولمة الحداثية موجة زائلة كما زالت من قبلها موجات وموجات جيش أصحابها الجيوش ورصدوا الأموال وجندوا الرجال والنساء ثم ذهبت أدراج الرياح... وبقي الإسلام دين الله الحق: ﴿فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال﴾[1]. ولو لم يكن من علل العولمة الحداثية إلا أنها تصادم الفطرة الإنسانية بنزعتها المادية، ومعاملاتها الربوية، وإباحيتها اللاأخلاقية، وتشييئها للإنسان، واستهلاكيتها المفرطة، وعلمانيتها الملحدة، وانسداد أفقها وضيق نظرتها الدنيوية، لكان ذلك كافيا لاندثارها وزوالها عما قريب، فكيف وأزماتها الفلسفية والروحية والاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية والثقافية في تفاقم مستمر؟!

إن الباطل إلى زوال مهما طال. هذا هو درس التاريخ الكبير.

قال الدكتور جابر العلواني منددا بالدعوة إلى التبعية لما ينعت بـ«الحضارة العالمية» (وهو ما يرادف العولمة بمعنى ما): «أما موقفنا نحن الذي اخترناه، ونستطيع الاستدلال عليه والبرهنة على صحته، فهو الموقف الوسط الذي علمنا الإسلام إياه. فنحن ننكر تصور العالم وطنا حضاريا واحدا بحضارة واحدة. هذا التصور هو تصور ذلك الفريق الذي ينكر الغزو الفكري كما ذكرنا، ويراه مجرد وهم من الأوهام، وليس حقيقة من الحقائق، ونرى أن هذا الموقف ـ حتى مع افتراض حسن النية عند أصحابه ـ مكرس وموظف لخدمة الانتصار التام الساحق

1. سورة الرعد: 17/13.

للحضارة الغربية المتغلبة في عالمنا المعاصر، انتصارها بالمسخ أو التشويه لفكر وحضارات وثقافات الأمم الأخرى المختلفة التي ابتليت هي وشعوبها وأممها بغزو الاستعمار الغربي في عصرنا الحديث، ونعتبر أن هذا إنما هو طريق للتبعية الحضارية، التي لابد أن تسبقها تبعية فكرية وثقافية، وأن هذا الموقف لو اتخذناه أو أصبح موقف الأمة كما كان في أوائل هذا القرن سوف يحولها إلى تابع ذليل لحضارة الغرب وفكره، فنفقد أو نستمر بالأحرى في فقدان شخصيتنا الثقافية والحضارية، ونفقد مكانتنا لندخل في النهاية في المأزق الحضاري الغربي الذي يجاهد الغرب ذاته اليوم للخروج منه وللوصول إلى سبيل للفكاك والخلاص من أسره»[1].

ينتقد أركون طريقة المستشرقين في كتابة تاريخ العالم الإسلامي، وينعتها بالتقليدية، وبأنهم يضخمون «من تأثير الإسلام إلى درجة أنهم يجعلونه يشمل كل شيء، ويتدخل في كل شيء، وهكذا يحولونه إلى أقنوم هائل مهيمن يمكن عن طريقه تفسير كل ما يحدث في العالم الذي انتشر فيه هذا الدين»[2] نقول: إن ما لاحظه هؤلاء المستشرقون هو عين الواقع، ـ باستثناء نعت تأثير الإسلام بالأقنوم ـ لأن الإسلام دمج العالم الذي بسط عليه نوره ونشر في أرجائه تعاليمه وأخلاقه وعلومه وشعائره وأحكامه في بوتقة واحدة، ونسيج واحد. فإذا ذهبت إلى الصين وجدت الإسلام، وإذا عرجت على مصر وجدت الإسلام، وإذا رحلت إلى المغرب أو موريطانيا أو السينغال وجدت الإسلام، وقد هيمن على كل مناحي الحياة. ولا أدل على ذلك من الوقائع والحقائق التي حفظتها لنا كتب التاريخ والتراجم والجغرافيا والسير ووصف البلدان وتاريخ العلم والحضارة الإسلامية، ولا تزال معالم هذه الحضارة في مختلف بقاع العالم الإسلامي، بل وفي بلدان غير

1. «الأزمة الفكرية المعاصرة» ورقة للدكتور طه جابر العلواني رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي: ضمن كتاب «نحو منهجية للتعامل مع التراث الإسلامي» دورة تدريبية نظمها معهد الدراسات المصطلحية والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1417هـ-1996م، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص 33.
2. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص 76.

إسلامية، شاهدة على هذه الهيمنة الإسلامية الواحدة الموحدة. بل رغم الغزو الفكري والاختراق الثقافي الغربي، وأشكال الاستلاب المعاصر في عالمنا الإسلامي لا يزال الطابع الإسلامي هو الغالب في الحياة اليومية، في الثقافة والتقاليد والأعراف والقيم... فلماذا يريد أركون نفي كل هذا وهو واضح لا يخفى على أحد؟! ويكفي أن مآذن مساجد العالم بأسره ترفع كلها أذان الصلوات الخمس على مدار أربع وعشرين ساعة يوميا، رغم حملة خصوم الإسلام ضد بناء الصوامع!

أليس هذا دليلا على هيمنة الإسلام على الحياة ماضيا وحاضرا؟!

ونحن عندما نلاحظ هذا لا نتحدث عن «أقنوم هائل مهيمن»، إذ لسنا أتباع عبادة الأقانيم! وإنما نتحدث عن هيمنة نور الله تعالى الذي بعث به رسوله الخاتم لينير به حياة الناس. فالإسلام نور مبين، ولا يمكن للمسلمين أن يتخلوا عن هذا النور الرباني أبدا، مهما سعى إلى ذلك خصومهم.

قال الله تعالى: ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾[1].

وما تشبث المؤمنين بهذا الدين الخاتم إلا لربانيته وواقعيته وإنسانيته وملاءمته الكاملة للفطرة وصلاحيته لكل عصر وقابليته لتجديد فهمه وتنزيل أحكامه؛ ولانفتاحه على مختلف وجوه الحياة وتطوراتها. فهذه الأصول والخصائص هي ما يفسر هيمنته واستمراريته وحكمته الخالدة. قال الله عز وجل: ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه. فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾[2].

1. سورة التوبة: 33/9.
2. سورة المائدة: 48/5.

2. العقيدة الصحيحة لا الفلسفة الداحضة:

يرد أرگون سبب عدم ازدهار الفلسفة في العالم الإسلامي إلى الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، وقد أوضحنا أن سبب ذلك هو الفلسفة المناقضة للفطرة السليمة التي خلق الله الناس عليها. كما أنها متعارضة مع حقائق الوحي الإلهي. فالفلسفة الإغريقية التي كانت هي جوهر أفكار الفلاسفة المسلمين كالفارابي وابن سينا وابن رشد وغيرهم لم تلق نجاحا وقبولا في أوساط العلماء المسلمين المستقيمين على نهج الإسلام المتشبعين بعقائده السمحة، ولا في أوساط العامة لأن تلك الفلسفة المنحرفة مصادمة لأسس التصور الإسلامي الصحيح للعديد من القضايا الكونية والنفسية الكبرى التي بين القرآن الكريم والسنة الطاهرة وجه الحق فيها، بالبراهين العلمية المقنعة للعقل السليم. وعلى سبيل المثال، نجد فلاسفة الإغريق الذين حذا حذوهم كثير من فلاسفة الإسلام يقولون بقدم العالم، وبأن الله تعالى لا يعلم الجزئيات، وهذان القولان الفلسفيان مناقضان للعقيدة الإسلامية الصحيحة التي تثبت حدوث العالم، وأن الله قديم لا أول له، دائم لا آخر له، كان ولا شيء معه، وأنه أحاط بكل شيء علما سواء في ذلك كليات العالم وجزئياته. قال سبحانه: ﴿ وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾[1]. وقال: ﴿ وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴾[2].

وهذا مثال فقط من بين أمثلة كثيرة ناقضت فيها الفلسفة العقائد الإسلامية الصحيحة، فرفضها المجتمع الإسلامي عن بينة ووعي.

هذا هو سبب أفول الفلسفة الإغريقية وغيرها من الفلسفات المنحرفة في العالم الإسلامي، لا ما تصوره المؤلف من أوضاع اجتماعية واقتصادية! لذلك فإنه قد جانب الصواب عندما قال:

---

1. سورة يونس: 61/10.
2. سورة الطلاق: 12/65.

«فلكي نفسر سبب نجاح الفلسفة لفترة قصيرة في المناخ العربي ـ الإسلامي ثم سقوطها وتصفيتها تماما فيما بعد، ينبغي أن ننظر إلى حالة المجتمع وأوضاعه الاقتصادية ونوعية الانقلابات التي طرأت عليه. فالفلسفة لا يمكن أن تزدهر إلا ضمن أطر اجتماعية معينة تسمح بذلك أو تحبذ ذلك. فإذا ما ضاقت هذه الأطر وتدهورت الحالة الاقتصادية ضاق الفكر العقلاني أو تدهور نتيجة لذلك»[1].

وقال المؤلف: «كيف يمكن أن نفسر انبثاق الإسلام من جديد كنموذج أعلى للعمل التاريخي في عصرنا الحاضر، نموذج تتبعه الملايين وتعتقد بصلاحيته المطلقة حتى في أواخر هذا القرن العشرين؟! بل إن الجماهير الشعبية تطالب بهذا «الإسلام» بكل حماسة وعنف؛ إنها تطالب به اليوم أكثر من أي وقت مضى، وفي مختلف البيئات والأوساط الاجتماعية، وعلى قاعدة التصور الأسطوري لا التاريخي للقرآن والحديث النبوي»[2].

وعلق هاشم صالح على كلام أستاذه بقوله: «بمعنى أن الجماهير الإسلامية المعاصرة تمتلك في أذهانها تصورا خياليا أو تقديسيا أو أسطوريا عن القرآن والحديث وليس تصورا تاريخيا. والتصور الأسطوري هو الأكثر قدرة على التعبئة والتجييش. ولن يحل التصور التاريخي محل التصور الأسطوري إلا بعد مرور زمن طويل في العالمين العربي والإسلامي»[3].

إننا نستغرب من استغراب أركون ونعجب من تعجبه!

ألم يعلم أن الإسلام هو الدين الحق الخاتم الصالح لكل زمان ومكان؟! قال تعالى: ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾[4]. وقال: ﴿ ذلك الدين القيم ﴾[5]. وقال: ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون؟! ﴾[6]. وقال: ﴿ اليوم

1. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص 108.
2. نفسه، ص 113.
3. نفسه، هامش الصفحتين 113 و114.
4. سورة آل عمران: 85/3.
5. سورة الروم: 30/30
6. سورة المائدة: 50/5

أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾[1]. وقال: ﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين ﴾[2]. وقال: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة ﴾[3]. وقال: ﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾[4]. وقال: ﴿ هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد. وليذكر أولوا الألباب ﴾[5]. وقال: ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها. والله سميع عليم ﴾[6].

عندما يتمسك المسلمون بدينهم في كل عصر ـ واليوم كمثل تمسكهم بالأمس مع الفارق طبعا ـ فلأنهم وجدوا في هذا الدين طمأنينة قلوبهم، وسعادة أسرهم، وصلاح مجتمعاتهم، وازدهار حضارتهم. وإن كان بعضهم قد جرب في هذا العصر بعض المناهج الوضعية فاكتوى بويلاتها، وانسدت الآفاق أمام مجتمعاتهم بسبب اتباعها، فإنهم قد ازدادوا ـ بحكم التجربة ـ يقينا بصلاحية الإسلام لحل مشكلات العصر كما كانت صلاحيته قائمة بالنسبة لمشكلات العصور السابقة. قال ما يكل هارت: «لكن محمدا كان هو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي بلغ أعلى درجات النجاح على المستويين الديني والدنيوي. وبسبب هذا الجمع الذي لا نظير له بين الدين والدنيا أرى أن محمدا من حقه أن يعتبر أعظم الشخصيات البارزة أثرا في تاريخ الإنسانية»[7].

---

1. سورة المائدة: 3/5
2. سورة فصلت: 33/41.
3. سورة البينة: 1/98.
4. سورة آل عمران: 138/3.
5. سورة إبراهيم: 52/14.
6. سورة البقرة: 256/2.
7. المائة الأوائل ـ ما يكل هارت، ص 19. ترجمة الأستاذ خالد أسعد عيسى. المحامي أحمد غسان سبانو ـ دار قتيبة ط 1979.

لقد انهارت الأيديولوجيات الأرضية المتضاربة، وبقي الإسلام سامقا في حياة الناس أعظم من الطود الشامخ لأنه دين الله الذي رضيه للبشرية. قال الله تعالى حاكيا قول المبطلين الجاحدين: ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا. قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفورا رحيما ﴾[1].

إن دعوى المؤلف التي مفادها أن المسلمين يحملون في أذهانهم تصورا خياليا أو أسطوريا عن القرآن الكريم هي سليلة موقف الكفار في بداية مواجهتهم للدعوة الإسلامية قال الله تعالى: ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا. أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون ﴾[2].

وقال: ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها. قل إن الله لا يأمر بالفحشاء. أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين ﴾[4]. هذا ما قاله فرعون وقومه لموسى وأخيه هارون عليهما السلام. فماذا كان مآلهما؟ ﴿ فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا ﴾[5].

1. سورة الفرقان: 6/25.
2. سورة المائدة: 104/5
3. سورة الأعراف: 28/7.
4. سورة يونس: 78/10
5. سورة الإسراء: 103/17.

الفصل الثالث
الدولة الإسلامية

1. الدعاة المخلصون:

يعتبر المؤلف الخطاب التراثي أو الديني القديم منطويا على شحنات أيديولوجية، أو مضامين سلطوية مقنعة ومخفية جيدا تحت رداء المعجم الديني، وأن خلفه الخطاب الأصولي الحالي يستخدم الطريقة نفسها[1]. وبعبارة صريحة يريد أركون أن يصم خطاب الدعوة الإسلامية ماضيا وحاضرا بشراء الدنيا بالدين، أو كما قال شارحه هاشم صالح: «تعود قوة الخطاب الأصولي الحالي إلى أنه يضرب بجذوره عميقا في التاريخ؛ إنه يعرف أيضا كيف يضرب على الوتر الحساس للوعي العربي الإسلامي. فهو يستخدم أساليب ومفردات التراث الديني القديم نفسها. وبالتالي فيسهل عليه أن يستميل كل مسلم تربى منذ الصغر على هذا الجو الطقسي الشعائري من الآيات والأحاديث والصلوات والدعوات...إلخ. وهكذا يستطيع أن يموه كل أهدافه السلطوية تحت هذا الستار». وقال: «يقصد أركون أن الخطاب القديم والخطاب الأصولي الحالي يتميزان بالميزة الأساسية التالية: إخفاء نواياهما أو مقاصدهما الأرضية السلطوية تحت غطاء كثيف من المعجم الديني والآيات القرآنية والأحاديث النبوية والتنزيه والتعالي. وهكذا يستطيع الأصوليون كسب الأنصار والأتباع بسهولة لأنهم يبدون لا مبالين بهذه الحياة الدنيا ومتعها وشهواتها وأملاكها. ولكن الواقع غير ذلك. فتحت هذا الغطاء الديني والمعجم اللاهوتي تربض كل تصرفات البشر وأطماعهم وشهواتهم»[2]. إن هذه الأوصاف التي ذكر أركون وتابعه هاشم صالح تنطبق على الماديين الدنيويين العلمانيين الوضعيين الذين لا يبالون بأحكام الدين ولا يرون

1. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص: 122.
2. نفسه، هامش ص 122.

أمامهم إلا الدنيا ومناصبها وملذاتها وجاهها وإن كان كل ذلك على حساب الحقيقة والإنصاف. هؤلاء هم الذين يبيعون دينهم بعرض من الدنيا قليل. وأما علماء المسلمين ودعاتهم فلم يسجل عنهم التاريخ إلا الاستقامة والورع والإخلاص وعلو الهمة واليقين.

قال النبي ﷺ: «إن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما. وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[1].

وربما كانت هناك حالات شاذة عن هذه القاعدة في تاريخ العلم والعلماء المسلمين، لكن الشاذ لا حكم له. فالعالم في الإسلام لا يكون جديرا بهذا الاسم حتى يكون عاملا بما علم. ولا شك أن علماء الإسلام المعتبرين، ودعاته المخلصين، فوق كل شبهة أو تهمة يتهمهم بها أي جاحد لحقهم وفضلهم وورعهم.

فمثلا وظف علماء الحديث هذا العلم لحفظ ميراث النبوة، والدفاع عن الإسلام، وعلم الحديث علم يعرف به أقوال النبي ﷺ وأفعاله وأحواله، فاندمج فيه معرفة موضوعه، أما غايته فهي الفوز بسعادة الدارين كذا في «الفوائد الخاقانية». وهو ينقسم إلى علم برواية الحديث وهو علم يبحث فيه عن كيفية اتصال الأحاديث بالرسول عليه السلام من حيث أحوال رواتها ضبطا وعدالة ومن حيث كيفية السند اتصالا وانقطاعا وغير ذلك وقد اشتهر بأصول الحديث جماعة من العلماء، وبرواية العلم ودرايته، وهو علم باحث عن المعنى المفهوم من ألفاظ الحديث وعن المراد منها[2].

---

1. أخرجه ابن ماجة في سننه تحت رقم 223، وابن حجر في تلخيص الحبير: 164/1. والزبيدي في إتحاف السادة المتقين: 71/1، 450. والمتقي الهندي في كنز العمال: 28679، والقرطبي في تفسيره: 41/4. 164/13 والعراقي في المغني عن حمل الأسفار 6/1، والبخاري في التاريخ الصغير 337/8، والفتني في تذكرة الموضوعات ص 20، والعجلوني في كشف الخفا: 522/2، والسهمي في تاريخ جرجان ص 336، وابن حجر في الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف: ص 124. والسيوطي في الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ص 114 وعلي القاري في الأسرار المرفوعة ص 230، 247.

2. العلوم عند العرب، ترتيب وتعاريف ونصوص. إعداد د. يوسف فاخوري، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت ط 1403 / 1983.

2 . السياسة الإسلامية:

ويتحدث أركون عن تشكيلة الدولة الإسلامية ويرى أن ذروة السيادة العليا الشرعية المثالية كانت موجودة دائما في أرض الإسلام، وكانت تملأ عقول الملايين. ولكن وجودها كان دائما ذهنيا أو عقليا ولم تتجسد على أرض الواقع أبدا على عكس ما يتوهم المسلمون اليوم»[1] .

إن تجسد الدولة الإسلامية وفق شريعة الله تعالى ـ أي الحكم بما أنزل الله ـ حصل فعلا في العهد النبوي وفي عهد الخلفاء الراشدين.

عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم إن بعدهم قوما يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يفون، ويظهر فيهم السمن»[2]. وفي رواية: «يحلفون ولا يستحلفون».

وقال ﷺ: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة راشدة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا عاضا فيكون ما شاء الله أن يكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا جبريا، فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة»[3].

وكان على المؤلف أن يقرأ بعينين منصفتين وعقل متفتح السيرة النبوية، وحياة الخلفاء الراشدين والصحابة الكرام، وتاريخ الإسلام في أزهى عصوره، ليغير من نظرته القصيرة أو العدمية الخاطئة إلى واقع تحقق الحكم الإسلامي الشرعي في

---

1. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص: 126.
2. أخرجه البخاري في صحيحه 3/7 كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ـ 62 ـ باب فضائل أصحاب النبي ـ 1 ـ الحديث رقم 3650 واللفظ له. ومسلم في صحيحه 1964/4. فضائل الصحابة ـ 44 ـ باب فضل الصحابة ـ 52 ـ الحديث 2535/214. والحديث متفق عليه. «السمن»: بكسر السين وفتح الميم، وكنى به عن الغفلة وقلة الاهتمام بأمر الدين فإنه الغالب على ذوي السمانة.
3. مسند الإمام أحمد ـ المجلد الرابع ـ حديث النعمان بن بشير عن النبي ﷺ.

تاريخ المسلمين. فـ«السيادة العليا الشرعية المثالية» لم يكن وجودها دائما ذهنيا أو عقليا كما زعم، بل كان متجسدا في أرض الواقع عبر فترات طويلة عظيمة من هذا التاريخ وسيعود التحقق الكامل للحكم بالشريعة الإسلامية مع الخلافة على منهاج النبوة كما وعد الرسول الأكرم ﷺ.

قال تعالى: ﴿ وعد الله لا يخلف الله الميعاد ﴾[1]. وكما قرر القرآن الكريم في غير ما آية وجوب تحكيم شرع الله عز وجل، نجد سنة الرسول ﷺ ناطقة بذلك، إذ يقول الرسول الأعظم ﷺ: **(لا تفلح أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حق من القوي)**. فجعل فلاح الأمة معلقا على إقامة العدل بين الناس، ونجد الرسول ﷺ يتألم ويغضب عندما يشعر بأن أحدا أراد أورغب في أن ينحرف عن هذا المبدأ، فيبادر بقطع جذور أي تفرقة توشك أن تظهر. فقد روي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: من يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ؟! فأتى رسول الله ﷺ فكلمه فيها أسامة بن زيد، فتلوّن وجه رسول الله ﷺ فقال: أتشفع في حد من حدود الله؟ فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله. فلما كان العشي قام النبي ﷺ فأثنى على الله بما هو أهله. ثم قال: «أما بعد، فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. وإني - والذي نفسي بيده - لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها». ثم أمر عليه السلام بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها، ثم تابت وحسنت توبتها وتزوجت وكانت عائشة رضي الله عنها لترفع حاجتها إلى النبي ﷺ.

فالحديث يقرر العدالة المطلقة في الإسلام، عدالة لا تعرف التفرقة ولا المحاباة، يستوي أمامها الشريف وغير الشريف؛ القوي والضعيف، الغني والفقير، المسلم وغير المسلم.

---

1. سورة الزمر: 20/39.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «إنكم سترون بعدي أثرة وأمورا تنكرونها» قالوا: «فما تأمرنا يا رسول الله؟» قال: «أدوا إليهم حقهم واسألوا الله حقكم».

ولا ريب أنه إذا أدى كل إنسان حق غيره عليه نعم الناس، وسعدوا كافة، وانتشرت بينهم المحبة والألفة والمودة.

وبعد عهد الرسول ﷺ كان اهتمام صحابته بتطبيق مبدأ العدالة بين الناس جميعا، دون تفرقة، واضحا فيما أثر عنهم من أقوال وأفعال. فهذا أبو بكر رضي الله عنه في أول خطبة خطبها بعد مبايعته قال: «أيها الناس إني وليت عليكم ولست بخيركم. فإن كنت على حق فأعينوني، وإن كنت على باطل فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة. والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه».

وقال عمر بن الخطاب في أول خطبة خطبها بعد مبايعته: «اجعلوا الناس عندكم سواء، قريبهم كبعيدهم، وبعيدهم كقريبهم، وإياكم والرشا، والحكم بالهوى، وأن تأخذوا الناس عند الغضب...».

وكذلك كان عمل وتوجيه عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما. ولكن عندما يصبح منا من ينطق بلسان الغرب، ويقف مواقفه، فسلام على الصدق!

وكلنا يذكر تلك القصة البالغة الدلالة عندما نازع ابن عمرو بن العاص شابا من دهماء المصريين في ميدان السباق في عهد ولاية عمرو بن العاص على مصر، فضرب ابن عمرو الشاب المصري بالسوط، فأقسم المجني عليه ليشكونه إلى الخليفة عمر بن الخطاب. فقال له: اذهب فلن ينالني ضرر من شكواك، فأنا ابن الأكرمين. فرحل الشاب المصري إلى الحجاز، ورفع شكواه إلى الخليفة عمر بن الخطاب فأرسل الخليفة إلى مصر يستدعي الوالي وابنه، وجلس للمظالم علانية، فقال الشاكي مخاطبا الخليفة عمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين! إن هذا ـ وأشار إلى ابن عمرو ـ ضربني ظلما، ولما توعدته بأن أشكوه إليك، قال: اذهب فأنا ابن

الأكرمين، فنظر عمر إلى عمرو بن العاص، وقال قولته المشهورة التي صارت مضرب الأمثال: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!» وبعد أن تبين له صدق الشاب المصري في شكواه، توجه إليه وناوله درته، وقال له: «اضرب بها ابن الأكرمين كما ضربك» فاقتص لنفسه منه»[1].

وكما فعل هذا رضي الله عنه كان يوصي القضاة بالعدل بين الناس. قال: «أما بعد فالقضاء فريضة محكمة وسنة متبعة، فافهم إذا أدلي إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، واس بين الناس في وجهك، ومجلسك، وعدلك، حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك»[2].

وإليك مبدأ المساواة عند الخليفة الرابع علي كرم الله وجهه الذي كتب في هذا الموضوع حيث قال في رسالة هي دستور عظيم في الحياة، مخاطبا واليه الجديد على مصر، وهو مالك بن الحارث الأشقر: «املك هواك وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا يغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق، فاعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه.. وإياك ومساواة الله في عظمته».

ومن الآثار الدالة على عمق تعاليم الدعوة الإسلامية في نفوس المسلمين وتأصلها في ما يصدر منهم من أقوال وأفعال، ما جاء في قصة اليهودي الذي شكا عليا رضي الله عنه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافة عمر فلما مثلا بين يدي الخليفة خاطب عمر اليهودي باسمه، بينما خاطب عليا بكنيته فقال له: يا أبا الحسن ـ حسب عادته في خطابه معه ـ فظهرت آثار الغضب على وجه علي رضي الله عنه فقال له عمر: أكرهت أن يكون خصمك يهوديا وأن تمثل معه أمام القضاء؟ فقال: لا. ولكني غضبت لأنك لم تسو بيني وبينه فخاطبته باسمه وخاطبتني بكنيتي».

1. المساواة في الإسلام، علي عبد الواحد وافي، ص 36...
2. تاريخ الإسلام ـ د. حسن إبراهيم حسن 487/1.

هذا هو الإسلام، وهذه هي المساواة والعدالة، التي جعلت الناس يدخلون في دين الله أفواجا في سائر أرجاء الأرض ومن سائر الأجناس. ولولا العراقل والحواجز لأضحت أوروبا مسلمة في ظرف وجيز.

لقد نظم الإسلام علاقات الإنسان، ورعى حقوقه من مولده حتى مماته، بل وبعد مماته، وذلك في جميع شؤونه الخاصة والعامة، رجلا كان أو امرأة، غنيا أو فقيرا، عاقلا أو مجنونا أو سفيها، صغيرا أو كبيرا، مسلما أو غير مسلم. كما نظم علاقته بالدولة، وبين حقوقه عليها سواء أكانت مدنية أم سياسية أم إنسانية، وبين حقوق الدولة على الإنسان وعلاقتها به. وجعل حب الأوطان من الإيمان.

وفي العهد النبوي على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى السلام حدث أن أجارت أم هاني بنت أبي طالب رجلين في فتح مكة في العام الثامن الهجري، من أحمائها، فلم يقبل أخوها علي رضي الله عنه منها هذا العمل، فجاءت أم هاني إلى النبي ﷺ تخبره بأمرها فقال لها ﷺ: «قد أجرنا من أجرت يا أم هاني»[1].

والإسلام قصر الحرب على المحاربين، فلا يجوز التعدي على النساء والأطفال والشيوخ والرهبان. وقد نهى النبي ﷺ عن قتل الشيوخ والصغار والنساء والخدام والمأجورين. أخرج الإمام أحمد في المسند أن النبي ﷺ قال: «لا تقتلوا ذرية ولا عسيفا، ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع، ولا تقتلوا شيخا فانيا ولا صغيرا ولا امرأة».

وبخلاف هذا، ارتكب قادة جيوش غير المسلمين فظائع بقتلهم الأطفال والنساء والشيوخ والمصلين في المساجد والحيوانات وخرّبوا العمران. وفي عصرنا استباحت الدول الكبرى جميع الوسائل الوحشية لإبادة الشعوب وتدمير المؤسسات الدينية والثقافية والاستشفائية ودور التراث والمتاحف، وتقتيل الرجال والنساء والأطفال الأبرياء. وما يقع في فلسطين والعراق وأفغانستان وغيرها من البلاد الإسلامية لا يقره إلا مجنون أو متعطش للدماء.

---

1. السياسة الإسلامية في عهد النبوة ـ عبد المتعال الصعيدي الأزهري.

إن ظهور الإسلام كان خاتمة خير للرسالات السماوية، وتأسيسا للحكم والدولة على أسس العدل والمساواة، في جزيرة العرب أولا ثم في باقي الدول التي اعتنقت الإسلام. وليس صحيحا أن دولة الإسلام جاءت عرضا لا قصدا كما ادعى ذلك بعض المغرضين، بدليل أن النبي ﷺ بعثه ربه رسولا، ولم يبعثه ملكا، ولا أميرا، وقد كان من الرسل عليهم السلام ملوك مثل نبي الله داود عليه السلام ونبي الله سليمان عليه السلام.

بعث الله محمدا نبيا في قومه قريش، ورسولا إلى البشرية جمعاء، وإلى العالمين كافة، ليحمل إليهم دينا قويما، وشرعا مستقيما، وجاء في رسالة النبي ﷺ أمران: أمر ديني، وأمر دنيوي متلازمان لا ينفصلان قوامهما: الحكم، وطبيعتهما: السلطة. فكيف يقوم الحكم دون مقوماته، وكيف تسير سلطة بغير جماعتها من أهل الاختصاص وأولي الأمر والنهي. وكل من الحكم والسلطة لابد لهما من طائفة من الناس لتدبير شؤونهما، يتولون سياسة الدولة ورعاية مصالح الرعية[1].

ومما دعا إليه الإسلام رعاية الفقراء، ومواساة المحتاجين، تنمية لصفات كريمة في النفوس مثل الجود والسماحة والحب والكرم، وتخلية لتلك النفوس من صفات ذميمة كالبخل والشح. فقد حث الله ورسوله على الصدقة. قال تعالى: ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا، فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون ﴾[2].

ومن مزايا الإسلام وشريعته احترام العقود والعهود والحث على الوفاء بها، سواء كانت بين الأفراد أو بين الجماعات والدول. وهذا الاحترام كان ولا يزال من أهم مبادئ القوانين المعتمدة لدى الأمم والدول. قال تعالى: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾[3]. وقال: ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا ﴾[4]. وقدم القرآن الكريم احترام العهد على نصرة المعاهدة

1. دستور الحكم والسلطة في القرآن والشرائع-رأفت شفيق شنبور.
2. سورة البقرة : 245/2.
3. سورة المائدة: 1/5.
4. سورة الإسراء: 34/17.

في الدين من المسلمين الذين يقيمون في دور بينها وبين المسلمين معاهدة. قال الله تعالى: ﴿وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير﴾[1].

وأول معاهدة في الإسلام هي التي عقدها رسول الله ﷺ، بعد هجرته إلى المدينة، مع اليهود، واليهود لم يكونوا دولة ذات كيان سياسي مستقل في ذلك الوقت إلا أن هذه المعاهدة كانت الأساس للمعاهدات الدولية حتى اليوم، وقد عاهد النبي ﷺ اليهود وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم[2].

3. عصر التنوير الحق:

ومن المغالطات الواضحة في كتاب محمد أركون زعمه أن جميع أشكال الدولة التي تعاقبت على أرض الإسلام قد فشلت فشلا متكررا دوريا. ويقصد فشل جميع الأنظمة بكل أشكالها وأنواعها في حل المشاكل[3].

ودارس التاريخ والحضارة الإسلاميين لا يمكنه أن يقبل هذه المغالطة الأركونية الصارخة لأن فيهما صفحات مشرقة عديدة وطويلة، طبقت فيها السياسة الشرعية تطبيقا متكاملا مما أثمر ازدهارا كبيرا وانتشارا للعدل والرخاء والسلم وانتصارا واسعا للإسلام وتوسعا في الفتوحات. لقد تنوعت أشكال هذه الدول الإسلامية التي طبقت السياسة الشرعية وحكمت بما أنزل الله تعالى لكنها جميعا كانت تقتبس من مشكاة النموذج النبوي في الحكم؛ وهذا الاقتباس والاقتداء بنهج الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين في تسيير الدولة وتنظيم المجتمع ليسا مستحيلي التحقق على أرض الواقع كما زعم أركون. بل قد تحققا فعلا، وسيتحققان بإذن الله تعالى عندما يعود المسلمون إلى شريعة ربهم من أجل تحكيمها في الحياة بكل مناحيها.

---

1. سورة الأنفال: 72/8.
2. ينظر نص المعاهدة في كتاب د. عبد السلام البكاري «المنهج الإسلامي في التربية على حقوق الإنسان» ص 15 ـ 21. مع شرح لبعض بنودها. ط دار الأمان الرباط 2000.
3. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص: 127.

ويربط المؤلف بين فشل الأنظمة السياسية في العالم الإسلامي ـ وهو يعمم هذا الفشل على تاريخ المسلمين كله دون تمييز بين الإسلام وبعض من انحرف عنه ـ يربط بين ذلك وبين استمرارية النزعة المحافظة السائدة في المجتمع[1].

وعند تحليلنا لمفهوم «المحافظة» عنده يتبين أن المقصود المحافظة على الدين وثوابته ومبادئه وعلى عدم الانسياق وراء البدع وكل ما يتعارض مع ديننا الحنيف. ومعنى ذلك أن الأنظمة السياسية لن تنجح، في نظر المؤلف، إلا إذا تخلى المجتمع عن هذه النزعة المحافظة السائدة. يؤكد ذلك تساؤل أركون عن العلاقة بين الفشل «وبين مراقبة كل ابتكار وإبداع وإدانته بحجة أنه بدعة محرّمة؟»[2].

والحق أن الإسلام لا يدين إلا ما كان متعارضا مع نهجه القويم. فالعري والتصوير الإباحي والهرطقات الفلسفية والأدب المكشوف و«الفن» المثير للغريزة الجنسية ليست ابتكارا ولا إبداعا في ميزان الشرع والعقل والذوق معا. بل هي انحلال وتضليل. ولذلك فهي غير مقبولة في الإسلام. ولن يؤدي عدم قبولها في مجتمعاتنا الإسلامية إلى الفشل بل إلى النجاح والفلاح. فالمحرمات لا تثمر إلا النكد والعلقم ولا تولد إلا المعضلات والتخلف والذل. واتباع شرع الله سبحانه هو مصدر سعادة المجتمع وتقدمه وعزّته ونجاحه في مختلف الميادين.

قال برنار دشو[3]: «إني كنت ولا أزال أحتفظ للإسلام في نفسي بمكانة سامية لحيويته ولأنه فيما أرى الدين الوحيد الذي يشتمل على العناصر الضرورية التي تجعله مرنا يساير أحوال العالم في تصوراته. فهو صالح لجميع الأمم وفي جميع العصور، ولاشك أنه يجب على العالم أن يهتم بتنبؤات أمثالي. وقد تنبأت بأن العقيدة التي جاء بها محمد سوف تدين بها الأجيال القادمة في أوروبا كما بدأت تسيغها الأجيال الحاضرة، ولن يمضي قرن من الزمن على أوروبا حتى تعتنق الإسلام».

1. نفسه، ص: 127.
2. نفسه، ص: 128.
3. جورج برنادشو (1856 ـ 1950)، حصل عام 1925 على جائزة نوبل في الآداب.

ولكن عندما يتحدث أركون عن الاستشراق لا يقدم منه للقارئ الكتابات الاستشراقية المنصفة الموضوعية، وهي شهادات إيجابية على كل حال، بل يقدم تلك الدراسات التي تشكك القراء في مصداقية وربانية القرآن الكريم، وفي صدق رسالة الرسول الأمين، وصلاحية الإسلام لكل حين. ومن هذه الدراسات المشككة في القرآن الكريم وتاريخ نزوله وحفظه وترتيبه وجمعه وقراءاته... كتاب "تاريخ القرآن" للمستشرق الألماني تيودورنولدكه الذي قال عنه أركون مروجا لدعاويه رغم خطورته وأخطائه الكثيرة بل رغم خطته التضليلية الظاهرة والكامنة:

«وأصبحوا بالتالي (يقصد من نعتهم بالأقرب إلى عقلانية عصر التنوير) يرفضون أعمالا استشراقية ذات أهمية معرفية كبرى ككتاب ***نولدكه*** *عن القرآن سابقا»*[1].

والحقيقة أن عصر التنوير الحق هو عصر النبي صلى الله عليه وسلم الذي قلب بالقرآن الكريم وسنته الشريفة كل موازين الفكر المنحرف، وأوضاع المجتمع المنحلة الظالمة، فأعلن ثورة على الاستبداد والاستقواء والاستكبار والظلم. قال الله تعالى: ﴿ بسم الله الرحمان الرحيم كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾[2]

4 . أسطع الحقائق:

و قال أركون بجرأة وتطاول على عقيدة التوحيد التي هي جوهر دين الإسلام، واضعا إياها كعنصر بين عناصر أخرى كلها ضالة منحرفة: "ينبغي أن نعلم أن الدوائر الخاصة بما هو خارق للطبيعة، وبالتعالي الإلهي أو الميتافيزيقي وبالآلهة الناشطة والمهيمنة، أو بالإله الواحد الحي ولكن البعيد، وبالعقائد السحرية أو الأسطورية أو الشعبية أو الخرافية أو الدينية، هذه العقائد المرتبطة جميعها بالمتخيل... أقول إن ذلك كله هو أيضا من صنع الفاعلين الاجتماعيين (أي البشر). فلو لم يخلق البشر هذه التصورات أولم يؤمنوا بها لما وجدت" [3].

---

1. قضايا في العقل الديني ـ ص 131 ـ 132.
2. سورة إبراهيم : 1/14.
3. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص : 133.

ويشرح هاشم صالح كلام أركون كأنه في حاجة إلى شرح، بقوله:" هذا التصور للأمور يصدم كليا الحساسية التقليدية التي لا تزال مهيمنة في المجتمعات العربية والإسلامية. والواقع أنه يعود إلى عصر دوركهايم وعلم الاجتماع الحديث. وهو يعني أن الدين يقع داخل المجتمع و ليس فوقه. فالبشر عندما يؤمنون بشيء فإنه ينوجد، وعندما لا يؤمنون فإنه لا ينوجد. هنا يكمن الفرق الأساسي بيس عقلية الحداثة / وعقلية القرون الوسطى"[1].

نقول: لهذا يرفض الإسلام و المسلمون الحداثة الغربية. قال الله تعالى: ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾[2]. وقال:﴿ أفي الله شك فاطر السموات و الأرض؟! ﴾[3] وقال: ﴿ فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين، وما أنت بهاد العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾[4].

إن هذه النظرية الدوركهايمية نظرية ملحدة لا يجوز الأخذ بها لأن صاحبها لا يرى في الدين - و إن كان حقا - إلا نتيجة لتصورات بشرية. إن العلوم الاجتماعية أو الإنسانية الغربية في انحرافاتها هي مجرد تدجيل وتضليل، لأنها فاقدة للبصيرة و الحكمة، مادامت تنكر أوضح البديهيات، وأسطع الحقائق: وجود الله سبحانه، وعقيدة التوحيد.

ومما يتطلب المناقشة والرد مرة أخرى قول المؤلف عن العقل الدوغمائي والعقل النقدي:" العقل الدوغمائي يعتقد أنه توصل إلى الحقيقة المطلقة منذ البداية وانتهى الأمر. هذا في حين أن العقل النقدي يعرف بأنه مضطر في كل مرة إلى إجراء التعديلات على ذاته باستمرار. كما أنه مضطر إلى القيام بمراجعة ذاته أو بوضع ذاته على محك البرهنة والصح و الخطأ..."[5]

1. نفسه، هامش ص: 133.
2. سورة الحج: 46/22.
3. سورة إبراهيم: 10/14.
4. سورة الروم: 52/30-53
5. قضايا في نقد العقل الديني - ص: 133.

بدل هذا التمييز الذي ذكره المؤلف نقول إن هناك عقلين: عقل مسترشد بالوحي، مستنير بنوره يعتقد بالحقيقة المطلقة فعلا، وهي الحقيقة التي بينها له الوحي الثابت الصادق، وعقل لا يؤمن ـ أصلا ـ بهذا الوحي، ولا يسترشد ولا يستنير به. وهذا العقل لا يعتقد بوجود أي حقيقة من الحقائق التي أرشد إليها الوحي.

وفي ميزان الحق يكون العقل المستنير بنور الوحي هو الجدير بوصف العقل النقدي لأنه لا يقبل الحقائق إلا مصحوبة بأدلتها وبراهينها، وهو في بحث دائم عن الحقيقة العلمية. وهذا ما تميز به العقل الإسلامي الذي أنتج الحضارة الإسلامية. و"العقل الدوغمائي" وصف ينطبق على العقل الذي انغلق في شرنقة الماديات، ولم يستبصر حقائق الموجودات ولم ينفتح على نور الوحي، ليؤمن بما قامت عليه البراهين من حقائق الألوهية والنبوة والبعث واليوم الآخر، وتنزيل الكتب الإلهية و الملائكة والجنة والنار... فالعقل الإسلامي عقل نقدي منفتح على نور الوحي، منفتح بنور الوحي، بينما العقل الحداثي الغربي عقل دوغمائي منغلق في حدود المادة، وظلمات الشهوات المحرمة والشبهات المضللة. قال الله تعالى: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾[1].

قال الشاعر:

وكيف يصح في الأفهام شيء ✿ إذا احتاج النهار إلى دليل؟!

ومن سذاجة شارح أركون هاشم صالح، ربطه تطبيق الفكر النقدي على التراث الديني... بالرّفاه الاقتصادي والمادي، بحيث إن هذا الرفاه يؤدي في نظره مباشرة إلى تطبيق ذلك النقد. فالمسلمون لا "ينقدون" تراثهم الديني لأنهم متخلفون غير مرفهين!

1. سورة البقرة: 146/2.

ولا يعتبر أركون ظهور الأنبياء إلا في "بيئات اجتماعية ـ ثقافية تسيطر عليها المعرفة الأسطورية ولا تفسح أي مجال لدخول المعرفة التاريخية أو لنموها وتطورها"[1]

قال الله عز وجل: ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده. وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داوود زبورا﴾[2]

إن أركون بعد اعتباره حقيقة الإله الواحد الحي مرتبطة بالمتخيل، ومن صنع الفاعلين الاجتماعيين [3]، يعتبر الآن الأنبياء قد ظهروا في بيئات اجتماعية ـ ثقافية تسيطر عليها المعرفة الأسطورية[4].

وقال في هذا السياق كذلك :" على ضوء هذه التمييزات والتحديدات ينبغي أن نقيم نوعية الفكر التاريخي ذي التعبير العربي في الفترة الكلاسيكية. وينبغي أن نفسر بعدئذ كيف أن الأطر الاجتماعية للمعرفة في البيئات الإسلامية قد تعرضت بعد عام 1945 لانحرافات أيديولوجية خطيرة (أي كيف أن المعرفة قد تشوهت وتأدلجت إلى حد كبير)، وأصبحت بعيدة كل البعد عن المعرفة الأسطورية (أو الرمزية) المرتبطة بالمرحلة الشفهية من الثقافة كما كانت سائدة عليه في عهد النبوة"[5].

قال الشاعر:

لكُلِ داءٍ دواءٌ يُستطَبُ به ✿ إلاّ الحماقةَ أعْيتْ مَن يُداويها

1. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص : 134.
2. سورة النساء: 163/4.
3. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص : 133.
4. نفسه، ص : 134.
5. نفسه، ص: 134.

الباب الرابع

الفصل الأول : فيصل التفرقة بين الإسلام وغيره من الملل و النحل

1. الإسلام نقيض العلمانية
2. فيصل التفرقة
3. من معجم الألفاظ القرآنية
4. ربّانية القرآن الكريم ومصداقيته

الفصل الثاني : الصورة الحقيقية لشخصية النبي ﷺ

1. أبهى صورة
2. السيرة الصحيحة

الفصل الثالث : حقوق الله و حقوق الإنسان

1. أهداف العولمة والحداثة
2. مقاصد الجهاد
3. علم الكلام والمزاعم الواهية

الفصل الأول
فيصل التفرقة بين الإسلام وغيره من الملل و النحل

1. الإسلام نقيض العلمانية :

يدعو أركون إلى عزل الدين الإسلامي عن الحياة العامة بمختلف تجلياتها سواء أكانت اجتماعية أم سياسية أم اقتصادية أم ثقافية. وهذا هو جوهر العلمانية. ولتحقيق هذا الذي يدعو إليه أركون لابد في نظره من المرور بنفس الطريق الذي مر منه الغرب. قال :" وبالتالي فإن المهمة الملقاة على عاتق المثقفين المسلمين أو العرب اليوم هي التالية : كيف يمكن أن يكونوا مستقبليين تنويريين فيفصلوا بين الذروة الدينية / والذروة السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية على غرار ما فعل الفلاسفة الأوروبيون في القرنين السابع عشر والثامن عشر؟ بمعنى آخر : كيف يمكن للعالم العربي و الإسلامي أن يشهد التنوير مثلما شهده العالم الأوروبي قبل قرنين من الزمن؟ وهذا يستدعي تحقيق الاستقلالية الذاتية للذروة الدينية وعدم الخلط بينها وبين بقية الذرى من الآن فصاعدا. فهذا أفضل للدين وللسياسة والمجتمع والجميع"[1]

نقول ردا على هذه الدعوة السامة : إن الإسلام دين الحياة بكل ما في هذه الكلمة من معنى. أي الحياة بكل مستوياتها وتجلياتها. قال الله تعالى : ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له. وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾[2] وقال :﴿ أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل إليكم

1. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص: 115.
2. سورة الأنعام: 162/6-163.

الكتاب مفصلا﴾[1] و قال: ﴿أفحكم الجاهلية يبغون؟! ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون﴾ [2] وقال:﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون﴾[3].

وقال النبي ﷺ: (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) [4].

وقال الله تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾[5]

وإذا تأملنا حياة المسلمين على عهد النبوة وعهد الخلافة الراشدة وجدنا أن الدين قوام المجتمع الإسلامي بكل مظاهره و مرافقه ومستوياته ومؤسساته بحيث كان الإسلام صبغة الحياة السياسية والعسكرية والاجتماعية والعلمية والاقتصادية. وما ذلك إلا لأن القرآن الكريم والسنة الشريفة شملا بتوجيهاتهما الرشيدة الحياة الفردية و الاجتماعية الإسلامية.قال الله تعالى: ﴿ذلك الدين القيم﴾ [6].

فالقرآن والسنة هما النور الذي أضاء حياة العالم الإسلامي في الماضي، وهما النور الباقي الصالح لإضاءة حياة هذا العالم حاضرا واستقبالا. وما على المسلمين إلا أن يعودوا إلى تطبيق شريعة ربهم في حياتهم لتستقيم هذه الحياة ويسعدوا ويكونوا قادة سادة في العالم.

قال تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا. يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ [7]. وقال

1. سورة الأنعام: 114/6.
2. سورة المائدة: 50/5.
3. سورة البقرة: 138/2.
4. أخرجه البخاري في صحيحه: 91/3، 132/9 والإمام أحمد في المسند: 146/6، 180، 256 ...
5. سورة النساء: 65/4.
6. سورة التوبة: 36/9.
7. سورة النور: 55/24.

سبحانه: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾[1]. وقال: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا﴾[2].

فالإسلام دين الله للإنسانية جمعاء، وهو يهدي للتي هي أقوم، أي إلى الطريقة و المنهج الأحسن والأوسط والأمثل والأعدل في كل مناحي الحياة. وكما بنى هذا المنهج الرباني الحضارة الإسلامية التي تعلم منها الناس، من مختلف الأمم، في الماضي، فإنه قادر اليوم وغدا على بناء هذه الحضارة الرائدة التي تشتد حاجة الإنسانية في عصرنا إلى عطائها، وحلولها، ودوائها الشافي لأمراض الإنسان.

قال الله عز وجل: ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له. إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه. ضعف الطالب والمطلوب. ما قدروا الله حق قدره، إن الله لقوي عزيز﴾[3].

2 ـ فيصل التفرقة:

إن أركون لا ينفي وجود الدين الحق الذي هو الإسلام فقط، بل ينفي كذلك كل فرق بين الإسلام الصحيح: إسلام أهل السنة والجماعة كما بينه القرآن الكريم والسنة النبوية، وبين الفرق الضالة أو المنحرفة أو المبتدعة. بل كما ساوى المؤلف بين الإسلام وباقي الأديان (مسيحية، يهودية، بوذية، هندوسية إلخ)، ساوى هنا بين الفرقة الناجية كما تحدث عنها الرسول صلى الله عليه و سلم و الفرق الضالة وهي كثيرة.

قال المترجم هاشم صالح مستكملا كلام أستاذه: "في حديث مع المترجم تابع أركون شرح هذه النقطة: إن القرآن ككتاب تأسيسي ذي لغة مجازية عالية، ككل

1. سورة آل عمران: 110/3.
2. سورة الإسراء: 9/17.
3. سورة الحج: 73/22-74.

الكتب الدينية، كان يحتمل منذ البداية عدة تأويلات أو عدة تجسيدات تاريخية. وبالتالي فلا يوجد شيء اسمه إسلام صحيح و إسلام خاطئ، وإنما توجد عدة تجليات للرسالة نفسها. فكل فئة اجتماعية ـ تاريخية فهمت القرآن بطريقة ما حولته إلى عقيدة ذاتية لها وانغلقت داخلها واعتبرت كل التأويلات الأخرى بمثابة الضلال أو الانحراف. هكذا نشأت الفرق الإسلامية عبر التاريخ. وبالتالي فينبغي أن نقلب المنظور اللاهوتي القديم الذي يسيطر على كتب الملل والنحل أو قل ينبغي أن نخرج منه لكي ندخل في المنظور الاجتماعي والتاريخي. وعندئذ يمكن أن نفهم الأمور على حقيقتها ونخرج من نطاق التصورات المسيطرة علينا منذ العصور الوسطى. فالشيعة يقولون هم الإسلام الصحيح، والسنة يقولون هم الإسلام الصحيح، والخوارج (أو الإباضية) يقولون هم الإسلام الصحيح، فأيهم نصدق؟ كل فرقة تدعي أنها الإسلام الصحيح وما عداها فمنحرف وضال ومصيره جهنم وبئس المصير" [1].

نقول: إن فيصل التفرقة بين الإسلام الصحيح وغيره، و بين الفرقة الناجية وغيرها، هو الحديث النبوي الصحيح: " ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة و أن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة"[2]. فعلى أي نهج كان النبي صلى الله عليه و سلم و أصحابه؟ قال الله تعالى: ﴿بسم الله الرحمان الرحيم يس والقرآن الحكيم، إنك لمن المرسلين، على صراط مستقيم﴾[3].

وقال: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾[4].

---

1. قضايا في نقد العقل الديني ـ هامش ص 117.
2. أخرجه أبو داود في سننه باب شرح السنة الحديث رقم 3980.
3. سورة يس: 1/36-4.
4. سورة يوسف: 108/12.

وقال : ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما ﴾[1] . وقال : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾[2] .

هذه بعض صفات ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم و أصحابه ، وهو نهج الإسلام الصحيح الرفيع الذي لا يزيغ عنه إلا هالك .

ولذلك قال ﷺ : **(تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك)** [3] .

وقال : **(عليكم بسنتي و سنة الخلفاء المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ)** [4] .

فأما سنته صلى الله عليه وسلم فقد أفنى كبار علماء الحديث أعمارهم في جمعها وتصحيحها ونقد رواياتها ومتونها وبحثها ودرسها وتعليمها وفهمها وتفهيمها حتى فاز أهل السنة والجماعة بأصح كتب السنة المحمدية وكانوا على بينة من أمرهم في اتباع الدين الحق عقيدة وشريعة وآدابا وأحكاما .

وأما سير الصحابة فمحفوظة أيضا في دواوين صحيحة نفيسة **«كأسد الغابة»** لابن الأثير ، و**«الإصابة في تمييز الصحابة»** لابن حجر العسقلاني ، و**«صفة الصفوة»** لابن الجوزي ، و**«سير أعلام النبلاء»** للذهبي ، وغيرها من المصنفات العظيمة .

فهذه هي بعض مصادر معرفة ما كان عليه سلفنا الصالح ، وهي تؤكد أن ما عليه أهل السنة والجماعة هو الإسلام الحق علما و عملا . لأن مصدر ما هم عليه هو ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

---

1. سورة الفتح : 18/48-19 .
2. سورة الفتح : 29/48 .
3. أخرجه الزبيدي في «إتحاف السادة المتقين» .
4. أخرجه أبو داود في سننه في كتاب السنة ، باب في لزوم السنة ، والترمذي في سننه في كتاب العلم ...

ومن هنا فعدم تمييز أرگون بين الفرقة الناجية والفرق الضالة، أو بين الإسلام وغيره مجرد مغالطة أو تغليط وادعاء أشبه بالسراب وأوهن من بيت العنكبوت.

قال الله تعالى: ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله. ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها. فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم. وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا؟ يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا. وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾[2].

3 . من معجم الألفاظ القرآنية:

وقال المؤلف: " في الواقع إن خلع الصبغة اللاهوتية على المفردات العادية الشائعة ذات الطابع الاجتماعي أو السياسي أو القانوني كان قد ابتدأ قبل ذلك التاريخ بوقت طويل: أي منذ زمن القرآن بالذات. ففي الخطاب القرآني نجد مفردات من نوع: "مؤمنون"، "مسلمون"، "كافرون"، "منافقون"، "مشركون"، "أنصار" "مهاجرون"..... إلخ. فهذه المفردات تحول الفئات الاجتماعية المحسوسة التي كانت سائدة في الجزيرة العربية والتي تجمع بينها عصبيات القرابة العتيقة جدا إلى مقولات دينية تثبت مكانتها انطلاقا من الانتظار الأخروي للنجاة في الدار الآخرة وهكذا تحول الفئات الاجتماعية إلى فئات لاهوتية ـ دينية وتفقد صبغتها الواقعية التاريخية عن طريق إسباغ المفردات القرآنية عليها" [3].

وينتقد المؤلف مفهوم "الملة" ويقول عنها: "*ولا تزال آثارها السلبية تطبع العقلية الجماعية لمسلمي اليوم بطابعها وتهيمن على سلوكهم الفردي حتى الآن*" [4].

---

1. سورة الروم: 30/30-31.
2. سورة البقرة: 2/26-27.
3. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص 119.
4. نفسه، ص 119.

إن أركون قد جانب الصواب عندما اعتبر هذه الفئات المذكورة في القرآن الكريم فئات اجتماعية "كانت سائدة في الجزيرة العربية" وأن القرآن الكريم أضفى عليها صبغة لاهوتية وحولها إلى مقولات دينية. والكل يعلم أن هذه الفئات لم تظهر إلا مع ظهور الإسلام في الجزيرة العربية إذ لم يكن العرب يتحدثون عن "مؤمنين" و"مسلمين" و"كافرين" و"منافقين" و"مشركين" و"أنصار" و"مهاجرين" بل هذه تسميات قرآنية لجماعات أو فئات من الناس تشكلت حسب موقفها من الإسلام، وهي تسميات مطابقة للمسميات. ولكل فئة علامات، ومواقف، وصفات ذكرها القرآن الكريم الذي أيد صف المؤمنين والمسلمين و الأنصار و المهاجرين، وحارب صف الكافرين و المنافقين و المشركين. إنه صراع بين الحق والباطل، بين الإيمان والكفر، كان قائما فعلا في الجزيرة العربية، وبدأ منذ أن صدع النبي محمد ﷺ بالدعوة إلى الإسلام عندما أمره الله تعالى بذلك: ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾[1].

وقال سبحانه مبينا صفات وأعمال المؤمنين والمؤمنات: ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم من بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله، أولئك سيرحمهم الله. إن الله عزيز حكيم ﴾[2].

وقال مبينا صفات المنافقين و المنافقات وأعمالهم: ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم. إن المنافقين هم الفاسقون ﴾[3].

وهذا من أسلوب المقابلة في القرآن الكريم. فهذه الألفاظ أو المفردات ظهرت مع هذا الكتاب العزيز، ولم تكن معروفة قي الجاهلية الجهلاء زمن الضلالة العمياء. وقد قيل فيها الشيء الكثير، لاسيما عند دارسي تاريخ الأدب مثل الكفراوي و البهبيتي وشوقي ضيف وغيرهم.

1. سورة الحجر: 94/15.
2. سورة التوبة: 67/9.
3. سورة التوبة: 71/9.

والأمر ليس مجرد إضفاء صبغة لاهوتية على مفردات عادية شائعة يومية حولت فئات اجتماعية إلى فئات لاهوتية ـ دينية، بل هو تسجيل قرآني لواقع الصراع الديني بين الكفار والمنافقين من جهة، والمؤمنين المسلمين من جهة أخرى. هذا هو الواقع التاريخي الذي حاول أركون تجاوزه أو تغطيته بدعوى أن تلك الأسماء أو المفردات القرآنية إضفاء صبغة لاهوتية ـ دينية على فئات موجودة من قبل.

والحق ما أخبر به القرآن الكريم، ﴿ ومن أصدق من الله قيلا؟! ﴾[1].

وأما انتقاد المؤلف لمفهوم "الملة" وادعاؤه أن آثارها السلبية لا تزال تطبع العقلية الجماعية لمسلمي اليوم فإنه انتقاد مردود على صاحبه لأنه لم يذكر ولو دليلا أو شاهدا واحدا على دعواه. والله تعالى يقول: ﴿ ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾[2]. فهو سبحانه يمدح هذه الملة الإبراهيمية المحمدية الإسلامية التي هي خير ملة.

● **معنى الملة لغة:**

قال الراغب الأصفهاني: " أصل الملة من أمللت الكتاب "[3].

وقال الألوسي: "والملة في الأصل اسم من أمللت الكتاب بمعنى أمليته كما قال الراغب، ومنه طريق ملول، أي مسلوك معلوم كما نقله الأزهري، ثم نقلت إلى أصول الشرائع باعتبار أنها يمليها النبي ﷺ " [4].

والملة بكسر الميم وتشديد اللام تطلق في اللغة على الدين والشريعة [5]. كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم: **(لا يتوارث أهل ملتين شتى)**[6].

---

1. سورة النساء: 122/4.
2. سورة الحج: 78/22.
3. المفردات في غريب القرآن الكريم للراغب الأصفهاني، ص 471.
4. روح المعاني: 488/1.
5. القاموس المحيط: 53/4.
6. أخرجه أبو داود. كتاب الفرائض باب هل يرث المسلم الكافر (2523).

وقيل :ملة الإسلام، وملة النصرانية، وملة اليهودية. وقيل :"الملة هي معظم الدين و جملة ما يجيء به الرسل". وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا. واتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾[1].

وتعني "الملة" كذلك السنة والطريقة، تقول العرب :"هذا طريق مُمل : أي مسلوك معلوم"[2]. قال تعالى: ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ﴾[3] وقال ابن كثير رحمه الله :قوله تعالى: ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم.. ﴾ أي طريقته ومنهجه [4]. وأما المعنى الاصطلاحي لكلمة"ملة" فقد قال القرطبي رحمه الله :"الملة اسم لما شرعه الله تعالى في كتبه وعلى ألسنة رسله" [5]. وقال الراغب الأصفهاني: "الملة اسم لما شرعه الله تعالى لعباده على لسان أنبيائه ليتوصلوا به إلى جوار الله" [6]. وقال محمد إسماعيل إبراهيم "والملة الشريعة والدين وهي اسم لما شرع الله لعباده، والجمع ملل. والممل الذي يعيد الكلام ويكرره حتى يعيه الكاتب ويضبطه" [7].

فعندما يطلق لفظ "الملة" ويراد به الإسلام الذي هو الدين الحق، وخاتم الرسالات السماوية فإن هذا هو المعنى أو المفهوم الذي ينتقده أركون بدون دليل ويدعي أن له آثارا سلبية. قال الله تعالى: ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ [8]. فلا ينكر فضل الملة الإسلامية، وخيريتها المطلقة، وربانيتها المسعدة، ورحمتها العامة الشاملة، وآثارها الطيبة الإيجابية إلا من سفه نفسه!

---

1. سورة النساء: 125/4.
2. لسان العرب: 638/11.
3. سورة البقرة: 130/2.
4. تفسير القرآن العظيم: 445/1.
5. الجامع لأحكام القرآن: 93/3.
6. المفردات في غريب القرآن الكريم: ص 471.
7. معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، محمد إسماعيل إبراهيم، ص: 505.
8. سورة البقرة: 2/111.

﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين ﴾ [1].

ومن أحلام أركون السرابية أنه يسعى إلى تفكيك تلك المفردات القرآنية تفكيكا حداثيا، حتى لا تظل "بمنأى عن أي أثر تفكيكي لتلك الثورة الفلسفية ـ السياسية التي دشنت حقوق الإنسان و الحريات الحديثة للمجتمع المدني في أوروبا" [2].

بهذه السذاجة يتصور المؤلف أن تفكيك مفردات القرآن الكريم وفق المناهج الحداثية هو السبيل إلى دخول عالم الحداثة بـ"حقوقه" و "حرياته المزعومة" !

4 . ربانية القرآن الكريم ومصداقيته:

ويؤكد نظرته المادية التاريخية إلى القرآن الكريم بقوله: "لا أريد أن أولي القرآن مكانة فوق التاريخ (أو فوق تاريخية)، وهذا ما يفعله كل التبجيليين المسلمين في كل الأماكن والعصور" [3].

نقول : أليس القرآن الكريم جديرا بمنتهى التبجيل والتقديس مادام كلام الله عز وجل؟ بلى ! فهو الكتاب المبارك، وهو الذكر الحكيم، وهو القرآن المجيد، وهو القرآن العظيم، وهو النور، وهو الشفاء لما في الصدور، وهو الروح الذي به حياة القلوب، وهو الكتاب المبين، وهو الصراط المستقيم . فأين تذهبون؟ ! إن الكتاب العزيز أصدق الكتب، وأصحها، وهو الرسالة الإلهية الصحيحة الوحيدة المتوفرة اليوم بين أيدي الناس جميعا بحيث يمكنهم كل في مجال اختصاصه، أن يفحصوها ويتأكدوا علميا من ربانية مصدرها. وهو الرسالة التي تضمنت سعادة الخلق، وبيان الحق. قال تعالى: ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد؟! ﴾ [4].

---

1. سورة فصلت: 33/41.
2. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص : 119.
3. نفسه ـ ص: 120.
4. سورة فصلت: 53/41.

وقد وقف العلماء المتخصصون في مختلف المجالات العلمية الدقيقة في هذا العصر على شواهد كونية ونفسية متجددة عديدة لا تكاد تحصر ـ آيات في الآفاق وفي الأنفس ـ تشهد لهذا القرآن العظيم بالربانية والمصداقية والصلاحية. وبحوث الإعجاز العلمي في القرآن والسنة زاخرة بالمطابقات والموافقات العجيبة بين ما أخبر به القرآن الكريم والسنة الشريفة وما توصل إليه العلماء في هذا العصر من اكتشافات علمية جديدة.

وقال أركون متهما المؤلفين المسلمين القدماء بالاستخدام التعميمي أو غير الدقيق للمصطلحات والمفردات: " وهذه ظاهرة يشترك فيها المؤلفون المسلمون القدماء والمستشرقون إلى حد كبير. بمعنى أنهم يستسهلون استخدام المفردات والمصطلحات، أو يلقون الكلام على عواهنه أحيانا" [1].

وهذا لا ينطبق على المؤلفين المسلمين القدماء، بل إن معظمهم يولون مسألة التعبير الدقيق واختيار المصطلحات وتدقيقها عناية بالغة. ولا أدل على ذلك من أن جميع العلوم الإسلامية تشكلت لها عبر أطوارها معاجم اصطلاحية دقيقة. ويمكن هنا الرجوع إلى "كشاف اصطلاحات الفنون" للتهانوي أو إلى "التعريفات" للجرجاني أو"اللمع" للطوسي، أو مصطلح علم الحديث كما ألف فيه ابن الصلاح وغيره. وقس على ذلك. فالعلماء المسلمون كانوا على وعي تام بدور تدقيق المصطلحات في تقدم بحوثهم العلمية. وإنما ينطبق الانتقاد الذي صاغه المؤلف على الدراسات الاستشراقية التي تضمنت خلطا فظيعا بين المفاهيم و المصطلحات ناتجا عن سوء فهم واضح،وسوء تعبير فاضح، ذلك أن كثيرا من المستشرقين قصر إدراكهم عن فهم أسرار اللغة العربية، كما تعمد بعضهم التلبيس والخلط، والتمويه والغموض.

1. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص: 121.

الفصل الثاني

الصورة الحقيقية لشخصية النبي صلى الله عليه وسلم

1 . أبهى صورة:

حاول المؤلف فهم سبب استخدام الإسلام "في فترات متقطعة وعلى مدار التاريخ كسلاح سياسي أو كنموذج للعمل التاريخي"[1]، من خلال إعادة دمج "الفئات المهمشة" داخل التاريخ العام للمجتمعات العربية و الإسلامية. والحقيقة أن اعتبار الإسلام نموذج العمل التاريخي ـ على حد تعبير المؤلف ـ يرجع إلى طبيعة هذه الرسالة الربانية وهذا الدين العظيم الذي جمع بين المثالية والواقعية، والإنسانية وملاءمة الفطرة، والمرونة والعمق، والشمول والتدرج، ومراعاة المصلحة، والمقاصد النافعة للإنسان. فالشريعة الإسلامية إلهية في قدسيتها، محمدية في قيادتها، عربية في خصوصيتها، إنسانية في نزعتها، عالمية في رسالتها، كونية في زمانها ومكانها. وإن تطبيقها في مختلف مجالات الحياة لا يزيد هذه الخصائص إلا تأكيدا ووضوحا. ولم يكن وراء الحركات الإسلامية التي حملت راية الدعوة وسعت إلى بناء الدولة الإسلامية وفق النموذج النبوي والشريعة المطهرة دوافع دنيوية محضة كما حاول المؤلف إيهام قارئه، من أجل التشكيك في نوايا ما يسميه بالحركة الأصولية في الماضي والحاضر. لقد أدرك الحداثيون أنهم لا سبيل لهم لترسيخ "حداثتهم الغربية" في أرض الواقع الإسلامي إلا بالقضاء أولا على الحركات الإسلامية التي يتفننون في وصمها بالتهم المختلفة لينفض الناس عنها ! ولم يعلموا أن مشروعية هذه الحركات المخلصة نابعة من مشروعية الدعوة الإسلامية نفسها، و من صلاحيتها لحل مشكلات العصر. ولسنا نقصد بهذه الحركات دعاة التطرف والغلو والتقتيل والتخريب، بل نقصد

---

1. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص 137.

الحركات الإسلامية المعتدلة الوسطية البانية المستنيرة المتفتحة الملتزمة بشرع الله تعالى ومقاصد الإسلام النبيلة، الساعية إلى تحقيق الأهداف الإنسانية العظيمة التي هي روح الرسالة الخاتمة. وأما اعتقاد الحداثيين والعلمانيين أن بوسعهم تحجيم الحركات الإسلامية وإيقافها عن طريق نشر ما يسمونه بالوعي العلمي والعقلانية كما حدث في أوساط المسيحيين الأوروبيين مما أدى إلى تحجيم "الأصولية المسيحية" أو القضاء عليها، فإنه اعتقاد فاسد لأن الدعوة الإسلامية قائمة على العلم والعقل، فهي لا تتعارض معهما، بل تشجعهما وتعتمدهما في مسارها وروحها، في تكتيكها وإستراتيجيتها. فالإسلام دين العقل والعلم.

ومحاولة المماثلة بين الإسلام والمسيحية المحرفة من أجل تمرير الخطاب الحداثي قصد القضاء على الحركات الإسلامية لن تؤدي إلا إلى فضح نوايا الحداثيين المتغربين أكثر فأكثر .إذ المسيحية المحرفة ليست هي الإسلام دين الحق والعلم والحرية المسؤولة.

ومن أخطر وأسوأ ما في هذا الكتاب قول المؤلف: "نحن نعلم أنه يستحيل علينا عمليا اليوم أن نكتب هذه السيرة [1]، طبقا للفضول المعرفي المشروع للمؤرخ الحديث، بمعنى آخر يستحيل في الحالة الراهنة للأمور تطبيق المنهجية التاريخية على سيرة النبي لأن ذلك يثير ردود فعل هائجة من قبل جماهير المسلمين، وذلك لأن مثل هذا العمل سوف يظهر الفرق بين الصورة التاريخية للنبي / وبين الصورة الإيمانية التبجيلية الشائعة في أوساط "المؤمنين" والمكرسة منذ قرون وقرون. ودليلنا على ذلك أنه قد حصل الصراع نفسه في البيئات الأوروبية عندما ابتدأوا يطبقون المنهجية التاريخية على المسيحية وبينوا الفرق بين يسوع التاريخي / ويسوع الأسطوري" [2].

1. يقصد سيرة النبي سيدنا محمد ﷺ.
2. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص 142.

قال الله تعالى: ﴿ قتل الخراصون الذين هم في غمرة ساهون ﴾[1]. وقال: ﴿ إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا. والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا ﴾[2].

إننا نعتبر كلام أركون السابق إذاية لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين والمؤمنات، إذ افترى على الرسول الكريم بأن صورته التاريخية غير الصورة الإيمانية التي اعتقدها المسلمون عبر العصور، وحفظتها دواوين السنة والسيرة، بمعنى أنها - والعياذ بالله من قوله - دون ذلك التبجيل والتوقير و الإجلال الذي يكنه لها المؤمنون والمؤمنات، وفي هذا الافتراء إذاية لهم ووصمهم باتباع التصورات الأسطورية، واستخفاف بعقولهم وإيمانهم ومقدساتهم. ولو أن المؤلف أزال عن قلبه ران الانبهار بالمناهج الغربية، وطابع النظرة الدونية إلى الإسلام والمسلمين وعلومهم وتراثهم، ولو أنه صقل مرآة قلبه وأزال منها الشبهات المسيطرة عليها لأبصر الحق جليا.

قال الله تعالى: ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم. تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا. سيماهم في وجوههم من أثر السجود ﴾[3]. و قال: ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[4]. وقال: ﴿ وكان فضل الله عليك عظيما ﴾[5]. وقال: ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾[6]. وقال تعالى: ﴿ بسم الله الرحمان الرحيم إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما ﴾[7].

1. سورة الذاريات: 51/10-11.
2. سورة الأحزاب: 33/57-58.
3. سورة الفتح: 48/29.
4. سورة الأنبياء: 21/107.
5. سورة النساء: 4/113.
6. سورة المائدة: 5/67.
7. سورة الفتح: 48/1-2.

وقال: ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ﴾[1]. وقال: ﴿ وخاتم النبيئين ﴾[2]. وقال: ﴿ والله يعلم إنك لرسوله ﴾[3]. وقال: ﴿ ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾[4]، وقال: ﴿ بسم الله الرحمان الرحيم إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر ﴾[5].

والآيات القرآنية المنوهة بفضل المصطفى صلى الله عليه وسلم على الخلائق، وكرامته وسمو مقامه عند ربه، والمشيدة بمكارم أخلاقه وكما له، كثيرة مستفيضة. ومنها قوله سبحانه: ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[6]. وقوله تعالى: ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾[7].

أ فيأتي أدعياء المنهجية التاريخية اليوم ليزعموا أن المؤمنين يحملون في أذهانهم صورة عن النبي ﷺ مخالفة لصورته التاريخية بعد هذه النصوص القرآنية الصريحة، والأحاديث النبوية الصحيحة؟! إن هذا لبهتان عظيم!

لقد حفظ رواة السيرة الصحيحة الصورة الحقيقية لشخصية النبي الكريم ﷺ ودوّنوها في كتب السيرة ضمن " شمائله عليه السلام "ومن ذلك ما استخلصه الشيخ محمد الخضري إذ قال: " منح الله سبحانه نبينا ﷺ من كمالات الدنيا والآخرة ما لم يمنحه غيره ممن قبله أو بعده. ولابد أن نأتي لك في هذا الباب[8] بنبذة يسيرة من محاسن صفاته وأحاسن آدابه لتكون لك نموذجا تسير عليه حتى

1. سورة الأحزاب: 45/33-46.
2. سورة الأحزاب 40/33.
3. سورة المنافقون 1/63.
4. سورة البقرة: 143/2.
5. سورة الكوثر: 1/108-333.
6. سورة القلم: 4/68.
7. سورة الأحزاب: 21/33.
8. جل ما ذكره في الشمائل والمعجزات مختصر من كتاب «الشفاء بتعريف حقوق المصطفى» للقاضي عياض رحمه الله.

تكون على قدم نبيك ﷺ فتستحق الحمد في الدنيا والذخر في الأخرى. فاعلم أرشدني الله وإياك وهدانا للصراط السوي أن خصال الجلال والكمال في البشر نوعان: ضروري دنيوي اقتضته الجبلة وضرورة الحياة، ومكتسب ديني وهو ما يحمد فاعله ويقرب إلى الله زلفى. فأما الضروري فما ليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب مثل ما كان في جبلته عليه السلام من كمال الخلقة وجمال الصورة وقوة العقل وصحة الفهم وفصاحة اللسان وقوة الحواس والأعضاء واعتدال الحركات وشرف النسب وعزة القوم وكرم الأرض، ويلحق به ما تدعو ضرورة الحياة إليه من الغذاء والنوم والملبس والمسكن والمال والجاه. أما المكتسبة الأخروية فسائر الأخلاق العالية والآداب من الدين والعلم والحلم والصبر والشكر والعدل والزهد والتواضع والعفو والعفة والجود والشجاعة والحياء والمروءة والصمت والتؤدة والوقار والرحمة وحسن الأدب والمعاشرة وأخواتها وهي التي يجمعها حسن الخلق، فإذا نظرت رعاك الله إلى خصال الكمال التي هي غير مكتسبة وفي جبلة الخلقة وجدته عليه السلام حائزا لجميعها محيطا بشتات محاسنها (. . .) وأما الخصال المكتسبة من الأخلاق الحميدة والآداب الشريفة، وهي مسماة بحسن الخلق، فجميعها قد كانت خلق نبينا صلى الله عليه وسلم على الانتهاء في كمالها والاعتدال في غايتها حتى أثنى الله تعالى عليه بذلك فقال: ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾[1].

قالت عائشة: كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه. وقال عليه السلام: **(بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)** . . ."[2].

وقد ساق الشيخ محمد الخضري رحمه الله من النصوص القرآنية والحديثية ما يثبت سمو الكمال المحمدي سواء في الخصال الضرورية أو الخصال المكتسبة. وكل ذلك فضل من الله تعالى، وكان فضل الله على نبيه الأكرم عظيما.

---

1. سورة القلم: 4/68.
2. نور اليقين في سيرة سيد المرسلين ـ الشيخ محمد الخضري ـ دار الفكر بيروت ـ لبنان، ص: 275 ـ 311.

2. السيرة الصحيحة:

والطامة الكبرى أن أركون يتبع خطوات الحداثة الغربية في تعاملها مع الدين المسيحي بحذافيرها حتى إذا " بينوا الفرق بين يسوع التاريخي / ويسوع الأسطوري" [1] كان على الباحثين العلمانيين الحداثيين أن يقوموا بنفس الشيء فيما يتعلق بسيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم وما حصله المسلمون من علومها الصحيحة ! مع أنه لا دخل للأسطورة في هذه السيرة، بل هي مصححة منقحة مقررة صافية وددنا لو أنّ أركون قرأها في القرآن الكريم أولا ـ وهو الكتاب الذي ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[2]، ثم في كتب السنة الصحيحة: الجوامع والسنن والمسانيد والمصنفات الحديثية الموثوقة، ثم في سيرة ابن هشام التي تدارسها العلماء ووثقوا نصوصها وغيرها من السير المضبوطة الموثوقة، لئلا يفوه مرة أخرى بمثل هذه الأباطيل الواهية !

إن المؤلف يعتبر كل المصادر العربية المكتوبة التي وصلتنا عن شخصية النبيﷺ ذات طابع "متأخر" و"تقوي" (من التقوى) أو "إيديولوجي" أو الاثنين معا [3].

أيريد أركون أن يكتب سيرة النبي ﷺ أعداؤه لكي لا يكون فيها أدنى ذرة من التقوى ؟! إن هذه السيرة العطرة كتبها العلماء المؤمنون أي حفاظ السيرة الذين كرسوا أعمارهم لحفظها وتدوينها وتنقيحها وتبليغها إلينا، وكانوا ـ في نفس الوقت ـ مؤمنين متقين. وهذا الوصف (التقوى) من الضمانات الأساسية لصحة النقل وتوثيق الرواية وعدالة الراوي. فقد اشترط علماء الحديث في راوي الحديث أن يكون عدلا ضابطا. ولاشك أن الكتابات الاستشراقية عن السيرة النبوية أو ما يتوخاه أركون من كتابة جديدة عنها المقصود منها تقديم النبيﷺ بوصفه رجلا عبقريا خاضعا لشروط تاريخية، ولا دخل لعالم الغيب في حياته، وفي توجيهاته وانتصاراته.

---

1. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص 142.
2. سورة فصلت: 42/41.
3. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص: 143.

يقول المؤلف داعيا إلى الجمع بين التاريخ المادي والتاريخ المعنوي للسيرة: "ولا نقول ذلك تخفيضا من أهمية التاريخ الاقتصادي والاجتماعي وإنما تكملة له عن طريق دراسة المتخيل أو العقلية الخاصة بفترة من الزمن وفئة محددة من البشر. فإذا كان التاريخ الأول هو تاريخ الاقتصاد والبنية الاجتماعية فإن التاريخ الآخر هو تاريخ الخيالات والتصورات والأوهام: أي باختصار تاريخ العقليات" [1].

ويرى أركون أن المصادر القديمة سكتت عن هذه المعلومات. ويحدد هدفه من كتابة هذا "التاريخ الآخر": "التاريخ النفسي أو الخيالي لتلك البيئات الاجتماعية المختلفة التي ساهمت برتوشات أو مسحات متتالية في تصعيد الشخصية التاريخية التي كانت لمحمد وتحويلها إلى شخصية رمزية مثالية عليا تتجاوز معطيات الواقع والتاريخ. وهكذا تم الانتقال من مرحلة محمد الحقيقي أو التاريخي / إلى مرحلة محمد المثالي الذي يتجاوز التاريخ"[2].

نقول: لقد اجتمع في شخصية النبي صلى الله عليه وسلم الجانب الغيبي (الوحي، المعجزات، المبشرات، دلائل النبوة، النبوءات، المدد النوراني الفياض، الهمة العلية، العلم اللدني الغزير) وجانب عالم الشهادة (الحياة الواقعية، البشرية، بحاجاتها ومواقفها أمام الأزمات والمشكلات، وتخطيطاتها لتحقيق الأهداف وتجاوز العقبات..). فلماذا يريد أركون أن يمحو المسلمون من عقولهم الصورة الأولى التي يعتبرها خيالية مثالية رمزية أسطورية ويقول: «ثم أصبحت هذه الصورة الأسطورية المضخمة التي شكلتها الأجيال المتتالية من المسلمين تحجب عنا الصورة الحقيقية أو التاريخية»[3]؟! بل الصورة الحقيقية التّاريخية للنبيﷺ قد التقى فيها عالم الغيب وعالم الشهادة، وجمعت بين الرسالة والنبوة والوحي من جهة، والبشرية بحاجاتها وأعراضها وضروراتها من جهة أخرى.

هكذا ينبغي فهم الشخصية المحمدية، وليس في ذلك أدنى أسطرة أو تخييل، بل هو الحق المبين كما نطقت به آيات الذكر الحكيم، وأحاديث البشير النذيرﷺ.

1. نفسه، ص: 144.
2. نفسه، ص: 145.
3. نفسه، ص: 145.

الفصل الثالث
حقوق الله وحقوق الإنسان

1. أهداف العولمة والحداثة :

كتب محمد أركون في دراسته المعنونة بـ" الإسلام المعاصر أمام تراثه والعولمة" ضمن هذا الكتاب : "فمن الواضح أننا قد دخلنا الآن في عصر العولمة الكونية، وينبغي أن نعيد التفكير في كل شيء على ضوئها"[1].

وقال :" فإن مؤرخي الأفكار سوف يتهمونني بأني أريد أن أدخل خلسة حقوق الله إلى الساحة بعد أن أخرجتها الحداثة منها وفرضت حقوق الإنسان محلها. سوف يتهمونني بأني أريد أن أعيد الاعتبار إلى المصطلح اللاهوتي السياسي الذي كان عقل التنوير قد أخرجه من الساحة العامة للمجتمع و حشره في الساحة الخاصة للحياة الشخصية" [2].

ثم أضاف مطمئنا أساتذته الغربيين على أنه لم يحد عن نظرتهم إلى الدين ومكانة حقوق الله بالنسبة إلى حقوق الإنسان قيد أنملة "لا، أيها السادة، إني لا أريد العودة إلى الوراء ولا التراجع عن منجزات فولتير ولا درس التنوير" [3]، فهو لا يريد إعادة الاعتبار إلى المصطلح اللاهوتي لحقوق الله. أي أنه يريد فقط أن تهتم الحداثة والعولمة بحقوق الروح وأن تدخلها في حقوق الإنسان بصفة غائمة عائمة أما الشريعة وتطبيقها، والحلال والحرام، ومقاصد الشرع الحنيف فذلك لا اعتبار له في تصوره ما دام فلاسفة التنوير قد حيدوا اللاهوت المسيحي القروسطي

1. من ص 153 إلى ص 197.
2. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص: 153.
3. نفسه، ص: 160.

وحشروا الدين في الحياة الشخصية الضيقة فمن شاء طبقه ومن أبى فله ذلك. ولا علاقة للدين بالدولة وبتنظيم الحياة وأحكام المنع والإباحة التي تحكم المجتمع!

أليس هذا هو هدف العولمة والحداثة؟ فلماذا يتظاهر المؤلف بنقدهما إذن، وهو يقتفي خطوات المخططين لهما دعاة الاستعمار المعاصر؟!

إن حقوق الله سبحانه لا تؤدى إلا بتطبيق شريعته والالتزام بتعاليم دينه في مختلف جوانب الحياة وإلا كان الفرد والمجتمع معا مضيعين لهذه الحقوق.

وأي فلاح أو نجاح يرجى لمن يتخلى عن هذه الحقوق الإلهية بدعوى الحرية الفردية، أو حقوق الإنسان، أو قيم الحداثة، أو عقلانية التنوير أو غير ذلك؟!

قال تعالى: ﴿ **أفحكم الجاهلية يبغون؟! ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون؟!** ﴾[1].

2. مقاصد الجهاد:

يتهم المؤلف الجهاد الإسلامي ـ هذه الفريضة التي اعتبرها الرسول ﷺ ذروة سنام الإسلام ـ بأنه يؤدي ـ مثله مثل العولمة الغربية ـ إلى إفساد أو إفشال المشروع الديمقراطي الهادف إلى تحرير الشرط البشري[2]. ونفس الاتهام يوجهه كذلك إلى الحركات الأصولية الحالية.

والحقيقة أن الجهاد الإسلامي يسعى إلى إعلاء كلمة الله: ﴿ **وكلمة الله هي العليا** ﴾[3]، وإحقاق الحق وإزهاق الباطل، والدفاع عن حوزة الإسلام وبيضة الأمة الإسلامية، وحماية رسالتها العالمية من مكائد الأعداء ودسائسهم وحروبهم المعلنة والسرية، وتأمين الطريق أمام هذه الدعوة المباركة لتبليغ نورها إلى كل إنسان على البسيطة. ومن الأهداف الرئيسية للجهاد في الإسلام التمكين لتطبيق الشريعة الإسلامية التي هي ضمان انتشار العدل والمساواة و الاحترام الفعلي لحقوق الإنسان، وبسط السلم و الأمان، والتوزيع العادل للثروات، والازدهار

---

1. سورة المائدة: 50/5.
2. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص: 162.
3. سورة التوبة: 40/9.

الحقيقي في ظلال الإسلام وأخلاقه الإنسانية الربانية العظيمة. خطب الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد المبايعة فقال: **«أيها الناس من رأى منكم في اعوجاجا فليقومه، فقام رجل وقال: والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا. فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه والسرور يملأ قلبه: «الحمد لله الذي جعل في أمة عمر من يقوّم اعوجاج عمر بسيفه»**.

هذا الكلام القصير يتضمن أفكارا مهمة:

- الحوار بين الحكام والمحكومين مبدأ أساسي في الإسلام وفي التربية على حقوق الإنسان.

- الحوار الهادف مع الرعية يورث المساواة ويعطي القدوة، وهذا أساس العدل في الأمة.

فهذه هي أهم الأسس التي قامت عليها الدولة في بداية الأمر، وبهذا المبدأ وهذا المنطق وضع الخليفة عمر رضي الله عنه أصلا من أصول القضاء ودستورا عاما للحكم والتقاضي بين الرعية[1]."

فإذا كان المقصود بالديمقراطية - التي اتهم المؤلف الجهاد الإسلامي بأنه يفشل مشروعها - إعطاء كل ذي حق حقه، فإن ذلك لا يتحقق على الوجه الأكمل والأعدل إلا بالإسلام، مع أداء حقوق الله سبحانه، إذ حقوق الإنسان لا معنى لها إلا إذا كانت في ظلال العبودية لله الواحد الأحد الذي منح الإنسان هذه الحقوق، فكيف يعرض هذا الإنسان عن الإيمان بربه وعن عبادته وأداء حقوقه ؟!

فالديمقراطية التي تنكر حقوق الله تعالى، بدعوى احترام حقوق الإنسان مجرد لعبة ميكيافيلية لا سعادة للإنسان معها ما دامت تؤدي إلى تعطيل شرع الله سبحانه أو تفصل بين الوحي الإلهي والعقل الإنساني والمجتمع البشري، وتجعل الدين مجرد اختيار شخصي غير ملزم، وليس له أثر في الحياة العامة السياسية و القانونية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

1. المنهاج الإسلامي في التربية على حقوق الإنسان - مرجع سابق - ص: 96.

ألم تذبح "الديمقراطية" جبهة الإنقاذ في الجزائر، وحماس في فلسطين عندما فازتا في الانتخابات؟!

وينعت المؤلف المجاهدين رحمهم الله بـ" القوى الغامضة والمظلمة للعالم القديم، عالم ما قبل الحداثة"[1]، وهم الذين قال عن عملهم النبي ﷺ: «لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا»[2]. وقال لما سئل أي الأعمال أفضل؟: الجهاد في سبيل الله» [3].

قال الله تعالى: ﴿ لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات، وأولئك هم المفلحون أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها. ذلك الفوز العظيم ﴾[4]. وقال: ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة. يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به. وذلك هو الفوز العظيم ﴾[5]. وقال مبينا بعض أهم فضائل وفوائد الجهاد في سبيله: ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ﴾[6].

وقال في نفس المعنى: ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ [7].

---

1. قضايا في نقد العقل الديني - ص 162.
2. متفق عليه: البخاري: 232/11، كتاب الرقاق الحديث: 6415، ومسلم: 1500/3 كتاب الإمارة الحديث 1818/113.
3. مصابيح السنة للبغوي: 49/3.
4. سورة التوبة: 89/9.
5. سورة التوبة: 111/9.
6. سورة الحج: 40/22.
7. سورة البقرة: 251/2.

فمن فضل الله تعالى على الإنسانية أن شرع الجهاد ليقاوم به معسكر الإيمان والخير والحق معسكر الكفر والشر والباطل، ولينصر دين الله في الأرض وإلا صار الباطل غالبا، وهذا ما لا يريده الله سبحانه لعباده، ولا يقبله كل ذي نفس أبية مؤمنة بالله ورسوله. فالجهاد شرع تحقيقا لهناء الإنسان وسعادته بالحياة في ظلال الشريعة الإلهية الضامنة للعدل و الأمن والمساواة والنجاة من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة.

والقوى الغربية الطاغية اليوم تريد أن يسقط المسلمون من شريعة ربهم فريضة الجهاد، ليستمرّ أعداؤهم في السيطرة عليهم واستغلال ثرواتهم، واستعبادهم وتضليل عقولهم، وإفساد حياتهم، وهذا يدخل في سياسة الاستعمار الجديد الذي يسمونه عولمة.

ويعي المؤلف فداحة ما يتفوه به من مقولات مسيئة لمقدسات المسلمين، ولذلك قال: «وإذا حصل وأن وصلت في انتقاداتي إلى الدائرة الأسطورية أو الرمزية المقدسة لحكايات التأسيس (أي تأسيس الدين)، فإن الحرب "المقدسة" أو "العادلة" أو "الشرعية" سوف تشن ضدي فورا. حذار من الاقتراب من هذه المنطقة الحساسة جدا جدا فقد يدفع المرء الثمن غاليا» [1].

3. علم الكلام والمزاعم الواهية:

ويزعم أركون أن علم الكلام الإسلامي مستمد مثله مثل اللاهوت اليهودي، واللاهوت المسيحي، من ميتافيزيقا أرسطو وفيزيقاه ومنطقه وبلاغته [2].

والواقع أن الكلام الإسلامي هو علم العقائد بالاستدلال العقلي والنقلي على صحتها، وقد حمل رايته علماء أعلام من أجل الدفاع عن العقيدة الإسلامية الصحيحة ضد التيارات الإلحادية، والنزعات المنحرفة، الدخيلة على الحضارة الإسلامية بحكم الاحتكاك المتواصل مع الشعوب العديدة وثقافاتها، وبحكم دخول أجناس متنوعة في الإسلام أفواجا بتراثها الثقافي، وفلسفتها، سواء من الهند أو فارس أو الصين أو الروم أو غيرها من البلاد التي فتحها المسلمون.

1. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص 165.
2. نفسه، ص: 167.

فتأسيس علم الكلام الإسلامي كان بدوافع إسلامية ذاتية، الهدف منها بيان العقيدة الإسلامية الصحيحة والبرهنة على قضاياها المتنوعة المتكاملة والدفاع عنها والرد على الفرق الضالة والملل والنحل المضللة. وهو علم يفخر به المسلمون لأنه علم إسلامي أصيل، خاصة إذا جدد ونقح وهُذِّبَ من الدخيل والمدسوس ومن المذاهب الضالة، واقتصر فيه على تقرير العقيدة الإسلامية الصحيحة بالأدلة العلمية على مذهب أهل السنة والجماعة. قال الإمام أبو الحسن الأشعري:

«قولنا الذي نقول به، وعقيدتنا التي ندين بها التمسك بكتاب ربنا عز وجل وسنة نبينا ﷺ وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ونحن بذلك معتصمون» [1].

هذه هي أصول عقيدة أهل السنة والجماعة وأساس علم الكلام الإسلامي. يقول أركون عن المسلمين وإيمانهم بالرسول الخاتم محمد ﷺ وتعظيمهم ومحبتهم له إن ذلك كله كان سببا في حجب الصورة الحقيقية للنبي وتولد صورة شخصية تقديسية: " فتقواهم وغيرتهم الشديدة على النبي وورعهم، كلها أشياء أدت إلى محو الصفة التاريخية عن هذه الشخصية وتحويلها إلى شخصية تقديسية مضخمة لا علاقة لها بالتاريخ تقريبا " [2].

وقد تقدم ردنا على مثل هذا الكلام، ونضيف هنا أن الصورة الحقيقية لشخصية النبي صلى الله عليه وسلم والتي يعظمها ويوقرها ويحبها كل المسلمين هي الصورة التي وصفها لنا الكتاب الخالد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ووصفتها لنا كذلك الأحاديث النبوية الصحيحة التي أنفق كبار علماء الحديث أعمارهم في طلبها وتوثيقها وضبطها وتصحيحها ونقدها متنا وسندا. ويمكن للمؤلف ـ إن شاء ـ الاكتفاء بأصح الكتب بعد القرآن الكريم في الدنيا بأسرها، ونقصد "الجامع الصحيح" للإمام البخاري رحمه الله، وليملأ عينيه وقلبه وعقله بروعة وعظمة هذا الرسول الكريم كما تصفه أحاديث كثيرة في هذا الكتاب الصحيح. هذا إن آثر الإنصاف وخلع عنه ربقة السفسطة والتضليل والمغالطة، واتبع سبيل المؤمنين.

---

1. الإبانة عن أصول الديانة.
2. نفسه، ص: 146.

وعندما نتساءل عن مصادر نظرته الخاطئة لمحمد ﷺ ولمكانته، نجد أنه يستند إلى ما كتبته أقلام اليهود الحاقدين في هذا العصر، ومن ذلك ما أشار إليه بقوله: " والواقع أن مدرسة القدس للبحث التاريخي ـ الفيلولوجي قد قدمت مؤخرا أعمالا واعدة في اتجاه الحفر والتنقيب عن محمد التاريخي. وكان ذلك من خلال تركيزها على دراسة الموضوع التالي: من الجاهلية إلى الإسلام **(أي كيف تم الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام)**[1].

وكتب المؤلف في هامش الصفحة رقم147: " انظر الأجزاء الغنية حتى الآن بعنوان: دراسات القدس عن العروبة والإسلام، الأجزاء من (1) إلى (17). وفي الجزء السابع عشر الصادر عام 1994م نلاحظ أن الباحث يهودا د.نيفو يقدم مثالا تطبيقيا ناجحا على وجهة النظر التي أتبناها هنا. إنه يقدم هذا المثال من خلال دراسته: "من أجل كتابة تاريخ ما قبل الإسلام".

وهكذا نجد الفكر اليهودي المعادي للإسلام والمسلمين، الحاقد على رسالة هذا الدين الخاتم يقف دائما وراء مجمل التحريفات والتضليلات والافتراءات ونشر الشبهات حول النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم، لكن العجب العجاب أن يتبع بعض المنتسبين إلى أمتنا أقوال هؤلاء الحاقدين، ويعرضوا عن الدراسة الواعية لكتاب الله وسنة رسوله وتاريخ الإسلام وتراثه، ويدعوا مع ذلك العلمية والعقلانية والموضوعية[2].

وينتقل المؤلف إلى الحديث عن مسألة خلق القرآن وكيف أراد الاستشراق طرحها من جديد، وينعي على الفكر الإسلامي المعاصر أنه ليس في مستوى الفكر الإسلامي القديم الذي استطاع أن يطرح هذه المسألة ويناقشها بجرأة. وينوه هنا بالمعتزلة وموقفهم بهذا الخصوص، ويربط بين القراءة الحرفية للقرآن

---

1. نفسه، ص: 146 ـ 147.

2. يمكن للقارئ أن يراجع كتاب «اليهود: تاريخهم ـ عقائدهم ـ فرقهم ـ نشاطاتهم ـ سلوكياتهم ـ الحركة الصهيونية والقضية الفلسطينية» لمؤلفه رجاء عبد الحميد عرابي ـ صدر عن دار الأوائل سورية ـ ط 2 ـ 2006 وعدد صفحاته 768 صفحة. وكان ختام هذا الكتاب «أن أمريكا وإسرائيل وجهان لعملة واحدة، وأن المهيمن الحقيقي على سياسة أمريكا هي الصهيونية «اسرائيل»، ويخطئ من يعتقد من الساسة العرب أن أمريكا يمكن أن تنصف العرب»(ص 762).

وبين شلل حركة المجتمعات الإسلامية، بمعنى أن القرآن الكريم في حاجة إلى قراءات جديدة، في نظره، لكي تتصالح هذه المجتمعات مع الحداثة العالمية [1].

وعلينا أن نتساءل هنا: ما القصد من إعادة طرح مسألة خلق القرآن، بعد أن انتصر، بالبرهان النقلي والعقلي معا، موقف أهل السنة والجماعة، من هذه المسألة؟ أليس طرح مثل هذه المسائل الكلامية القديمة التي تدرس مقرراتها المجمع عليها في دروس العقيدة الإسلامية، من جديد، بدل تجديد الفكر الإسلامي ليجيب عن أسئلة معاصرة في مجالات الأخلاق والسياسة والحضارة والفكر والعلوم الإنسانية (المجتمع والاقتصاد والنفس والتربية واللغة والتاريخ إلخ) ـ أليس طرحها طريقا إلى التشويش على العقائد الصحيحة الثابتة؟ خاصة وأن المؤلف يروج ـ في مثل هذه الأطاريح الجديدة لقضايا قديمة ـ لمذاهب منحرفة كمذهب المعتزلة الذين قالوا إن القرآن مخلوق، بينما أجمع علماء الأمة وأئمة الملة من أهل السنة والجماعة على أن القرآن كلام الله سبحانه قديم غير مخلوق.

وفي الوقت الذي يقدم فيه أهل السنة والجماعة الأدلة القاطعة على مذهبهم الحق، لا يملك غيرهم إلا السفسطات والشكوك! لقد طويت فتنة خلق القرآن، ولن يفلح من يوقظها. يروي لنا الدميري في كتابه "حياة الحيوان" أن الواثق العباسي رجع في القول بخلق القرآن إذ دخل أحد الشيوخ ممن نزلت بهم المحنة فقال لأحمد بن أبي دؤاد الذي تولى هذه المحاكمة: شيء لم يدع إليه رسول الله ﷺ ولا أبوبكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي، تدعو أنت الناس إليه، ليس يخلو أن تقول علموه أو جهلوه، فإن قلت علموه وسكتوا، وسعني وإياك من السكوت ما وسع القوم. وإن قلت جهلوه وعلمت أنت، فيالكع بن لكع، يجهل النبي ﷺ والخلفاء الراشدون رضي الله عنهم شيئا تعلمه أنت" فلما سمع الواثق ذلك وثب من مجلسه وأخذ يردد تلك الكلمات، وعفا عن الشيخ ورجع عما كان يفعل كما رجع عنه ابنه [2].

---

1. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص: 148 ـ 149.

2. حياة الحيوان، 82/1. و تاريخ المذاهب الإسلامية، الشيخ محمد أبو زهرة، ص 156 ـ 157.

يكشف هاشم صالح عن بعض المصادر التي وجهت فكر أستاذه أركون في دراسته المزعومة للإسلام وتاريخه بقوله: «واضح من كلام أركون أنه يريد أن يطبق على التراث العربي ـ الإسلامي المنهجيات نفسها التي طبقتها مدرسة الحوليات الفرنسية على التراث المسيحي الأوروبي. فهو من تلامذة لوسيان فيفر ومارك بلوك في علم التاريخ، كما أنه من زملاء جاك لوغوف الذي يطبق المنهجية عينها على القرون الوسطى المسيحية. يضاف إلى ذلك أن أركون استفاد من دراسات جان بيير فيرنان عن "الأسطورة والعقل عند اليونان" ومن أبحاث عالم الأنتربولوجيا جورج بالانديه عن المجتمعات الإفريقية السوداء، ومن غيرهم كثير"[1]. إنه التقليد الأعمى ليس إلا!

وما يسميه الغربيون "ما بعد الحداثة" ويفضل أركون تسميته" مرحلة في طور التشكل" إن هو إلا تعبير صريح عن الظمأ الروحي في الغرب، والحاجة الملحة إلى أجوبة حقيقية صحيحة عن أسئلة الحياة الكبرى: من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ ولا يقدم هذه الأجوبة إلا الإسلام الدين الحق.

وعليه، فإن سعي ما سموه بـ" ما بعد الحداثة" إلى عقلانية مقبلة تجمع بين العقل /والخيال، بين المادي/ والرمزي، بين الصرامة العلمية/ والشطحات الشعرية[2]، ما هو في الحقيقة إلا جواب منحرف ضال عن تلك الأسئلة، أو محاولة لإشباع الحاجة الإنسانية الفطرية إلى الدين الحق، عن طريق مجانب للصواب هو ذلك النوع من التفلسف!

ولو أن هؤلاء الفلاسفة الذين يقودون الفكر الغربي اليوم، ويوجهون الحياة في الغرب، رجعوا إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ لوجدوا الجواب الشافي عن سؤالهم وحيرتهم.

---

1. هامش الصفحة 149.

2. قضايا في نقد العقل الديني ـ هامش الصفحة 152.

الباب الخامس

الفصل الأول : مفاهيم إسلامية أصيلة

1. المطلق والنسبي من الحقائق
2. السبق الإسلامي إلى إقرار حقوق الإنسان
3. من معجم الألفاظ القرآنية

الفصل الثاني : تهافت الحداثة الغربية ودعاوى الحداثيين

1. حاجة الأمة والإنسانية إلى الدستور الإلهي
2. الثوابت والمتغيرات
3. المجاز وحدود التأويل

الفصل الثالث : ظروف نقل القرآن الكريم وتدوينه

1. من دلائل حفظ القرآن الكريم
2. مساهمة المسلمين في العلم الحديث

الفصل الأول
مفاهيم إسلامية أصيلة

1. المطلق والنسبي من الحقائق :

الحقيقة ليست كلها نسبية، بل النسبي من الحقيقة هو المخلوق الذي جعله الله تعالى منضبطا بضوابط السنن الكونية. فهذا العالم قوانينه نسبية وهي تحكمه، وهو عالم نسبي، وحقائقه نسبية. لكن الحقيقة المطلقة هي وجود الله سبحانه. قال عز وجل: ﴿قل الله يهدي للحق﴾[1]، وقال: ﴿قل إي وربي إنه للحق وما أنتم بمعجزين﴾[2]، وقال: ﴿ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾[3]، وقال: ﴿خلق الله السموات والأرض بالحق﴾[4].

هذه الحقائق لا يمكن اعتبارها حقائق نسبية لأن الله عز وجل خالق كل شيء، لا تحده القوانين والسنن والنسب، بل هو متعال بائن عن خلقه، وهو معهم أينما كانوا، ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[5]. فهو تعالى فوق الزمان والمكان منزه عن كل القيود والمحددات. ولذلك فإن العلمانيين والحداثيين يخطئون عندما ينكرون الحقيقة الإلهية المقدسة المتعالية. وذلك كقول أركون: "ونلاحظ أن الأديان والأنظمة الميتافيزيقية المثالية التي تعاقبت على تاريخ البشرية كانت تصور هذه الحقيقة وكأنها أزلية، جوهرانية، فريدة من نوعها، مقدسة، متعالية، نهائية، إلهية"[6]. ويقول مقابل هذه الرؤية التي ينتقدها: "فالحقائق تنهار وتموت بحسب التصور الابستمولوجي الحديث، وليست أبدية أو خالدة كما كان يتصور

1. سورة يونس: 35/10.
2. سورة يونس: 53/10.
3. سورة يونس: 55/10.
4. سورة العنكبوت: 44/29.
5. سورة الشورى: 11/42.
6. قضايا في نقد العقل الديني - ص 166.

اللاهوت القديم أو الميتافيزيقيا المثالية. هكذا نجد أننا مدعوون لتغيير تصورنا التقليدي عن مفهوم الحقيقة، وهذا ليس بالأمر اليسير لأن هذا التصور التقليدي مرسخ في أذهاننا منذ الطفولة" [1].

واضح أن اعتبار أرگون كل الحقائق نسبية غير أبدية ولا خالدة حكم شمولي لا يستثني أي حقيقة علما أن كبرى الحقائق ـ حقيقة وجود الله سبحانه وصفاته القدسية ـ هي حقيقة مطلقة.

2. السبق الإسلامي إلى إقرار حقوق الإنسان:

ويقول المؤلف منكرا السبق الإسلامي لإقرار حقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية: " فمثلا نلاحظ أن بعضهم يحاولون أن يجدوا في النصوص الدينية التأسيسية (كالتوراة، والإنجيل، والقرآن)، أو في تفاسيرها الأكثر رسمية وترسيخا وأرثوذكسية، الأفكار أو التعاليم التي تستبق على حقوق الإنسان، والعدالة الاجتماعية، والديمقراطية، والكرامة الإنسانية... إلخ. وهكذا يقول اليهودي بأن كل هذه الأفكار التي أنتجتها الحداثة كانت موجودة في كتابه منذ زمن طويل، وبالتالي فلاشيء جديد تحت الشمس. لا يمكن أن يطرأ أي شيء جديد بعد التوراة.

كذلك يفعل المسيحي والمسلم. ولكن هذا إلغاء للتاريخية: تاريخية العقل وتاريخية الفكر. فالتاريخ يعلمنا أن النظام الفكري للحداثة غير النظام الفكري للعصور الوسطى. ولكن المؤمن التقليدي المنغمس كليا في يقينياته لا يستطيع أن يرى ذلك، إنه يلغي التاريخ: أي يلغي إمكانية حصول أشياء جديدة في التاريخ .." [2].

نقول: الآيات القرآنية الدالة على سبق الإسلام في كل هذه المجالات عديدة، وكذلك الأحاديث النبوية المؤسسة للنظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والتربوي العادل والصالح كثيرة جدا، بل لا تكاد تحصر. لكننا نكتفي بذكر آية قرآنية واحدة دالة على السبق الإسلامي إلى تقرير حقوق الإنسان وكرامته

1. نفسه، ص: 166.
2. نفسه، ص: 168.

والعدالة الاجتماعية. ففي باب حقوق الإنسان نقرأ قول الله تعالى: ﴿بسم الله الرحمان الرحيم يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء. واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام. إن الله كان عليكم رقيبا﴾[1]. وفي باب العدالة الاجتماعية نقرأ قوله عز وجل: ﴿كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم..﴾[2] وفي باب الكرامة الإنسانية نقرأ قوله سبحانه: ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾[3].

وقال الله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم. إن الله عليم خبير﴾[4].

فالخطاب إلى كافة الناس، ذكورا وإناثا، والقصد المساواة بينهم بدون تفاخر بالحسب والنسب. والشعوب جمع شعب وهو الجمع العظيم المنتسب إلى أصل واحد، والتعارف من أجل التعاون، ولا يكون التفاضل إلا بالتقوى التي بها تكمل النفوس، ويتفاضل الأشخاص.

ليس في دساتير الأمم الراقية نص أساسي على الأخوة الإنسانية التي نص عليها القرآن الكريم، ليست فيها نصوص واضحة على المساواة الأخلاقية بين الطوائف والأجناس البشرية واحترامها أمام القانون على قدم المساواة ولا وجود فيها لقيمة التفاضل بالتقوى، أي الصلاح والاستقامة على طاعة رب العالمين.

نزلت هذه الآية الكريمة في بداية الدعوة الإسلامية سنة 611 هـ، وفي سنة 1948م اعترف بحقوق الإنسان، بعد تأسيس الأمم المتحدة سنة 1945م !!! أليس هذا دليلا على سبق الإسلام وريادته؟!

1. سورة النساء: 1/4.
2. سورة الحشر: 7/59.
3. سورة الإسراء: 70/17.
4. سورة الحجرات: 13/49.

فالإسلام سابق لمختلف المنظومات الإنسانية والفلسفات الوضعية في هذه المجالات الحقوقية بشريعته السمحة التي لا تضارعها أي شريعة ولا أي قانون إنساني لأنها من لدن عليم خبير، يعلم حقيقة الإنسان لأنه هو الذي خلقه، ويعلم ما يصلحه فردا وجماعة. بينما لم تقدم الحداثة الغربية شيئا في هذه المجالات، وإنما طورت ما تراكم من علوم في ميادين الطبيعة والطب والفلك والفيزياء وغيرها وهي علوم أثراها وأبدع فيها ونشرها العلماء المسلمون، وتوصلوا في مضمارها، إلى أهم الاكتشافات التأسيسية التي بني عليها العلم الحديث. فأتت الحداثة وطوّرت هذه العلوم وأنتجت التكنولوجيا الحديثة الدقيقة المتطورة جدا. فهذا ما يمكن أن ينسب إلى الحداثة المادية الغربية زيادة على ما أنتجته من أسلحة الدمار والخراب والقتل وترميل النساء وتيتيم الأطفال كما وقع في العراق وفلسطين وأفغانستان والبوسنة والهرسك وغيرها من البلاد الإسلامية. أما أن يدعي أصحاب هذه الحداثة أنهم سباقون إلى تقرير حقوق الإنسان والكرامة الإنسانية والعدالة الاجتماعية فهذا ما تنفيه الريادة القرآنية والسنية التي هدت الإنسان إلى النظام الكلي المتكامل في هذه القضايا الإنسانية وفي غيرها على نحو غير مسبوق، لم يعرفه أحد قبل مجيء الإسلام.

وقال المؤلف : " هذا لا يعني بالطبع أن بذور العدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية لم تكن موجودة في النصوص التأسيسية للأديان التوحيدية الثلاثة ولكنها كانت متصورة من خلال العلاقة الأساسية مع حقوق الله. لم يكن الإنسان قد استقل بعد أو حظي باستقلاليته الذاتية. هذا شيء لم يحصل إلا بعد عصر التنوير في أوروبا. عندئذ وثق الإنسان بنفسه إلى درجة أنه أصبح مقتنعا بأن عقله وحده يستطيع تسيير الأمور. وقل الأمر نفسه عن الديمقراطية. فبذرتها الأولية موجودة حقا في القرآن (الشورى). ولكن هناك فرقا بين الديمقراطية بالمعنى الحديث للكلمة وبين الشورى. فالشورى محصورة بالفئة العليا من كبار المسلمين، في حين أن الديمقراطية تشمل جميع البشر في المجتمع دون استثناء وبغض النظر عن أديانهم ومذاهبهم وأعراقهم وقبائلهم وعشائرهم. وبالتالي

فإن الشورى تظل سجينة الفضاء العقلي للقرون الوسطى، في حين أن الديمقراطية تنتمي إلى الفضاء العقلي للحداثة. ولكن يمكن تطوير الشورى أو توسيعها لكي تشمل كل الشعب وعندئذ لا يعود هناك فرق بينها وبين الديمقراطية وقل الأمر ذاته عن حقوق الإنسان. فقد كان يستحيل التفكير فيها ضمن الإطار العقلي للعصور الوسطى، إلا من خلال علاقتها ـ أو خضوعها ـ لحقوق الله" [1].

3. العلاقة بين حقوق الله وحقوق الإنسان:

يستدعي هذا الكلام تصحيح مفاهيم مغلوطة يتضمنها عن حقوق الله وحقوق الإنسان والشورى والديمقراطية وحرية الإنسان واستقلاله والثقة بالنفس ودور العقل وحدوده وعلاقته بالوحي واعتبار الإسلام لمكانة الأقليات العرقية والدينية وواقع أزمة الحداثة إلخ.

1. حقوق الله تعالى:

خلق الله سبحانه الخلق ليعرفوه ويعبدوه فتصلح بذلك حياتهم الدنيا، ويفوزوا في حياتهم الأخرى. ولا يستحق العبادة إلا الله عز وجل، وقد شرع لعباده الشرائع، وحد لهم الحدود، وفرض عليهم الفرائض، وأمرهم ونهاهم، وأحل لهم أشياء وحرم عليهم أخرى، وكل ذلك من أجل مصلحتهم وسعادتهم. فحق الله على العباد أن يوحدوه ويطيعوه ولا يشركوا به شيئا، وفي مقدمة طاعته أن يطبقوا شرعه في حياتهم. فإذا فعلوا ذلك ضمن الله لهم الحياة السعيدة، ونعيم الجنة.

روى البخاري ومسلم عن معاذ بن جبل قال: " كنت ردف النبيﷺ على حمار يقال له عفير فقال: يا معاذ قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك. ثم سار ساعة فقال: يا معاذ قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: هل تدري حق الله على عباده؟ وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا

1. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص 168.

يشرك به شيئا. فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر به الناس ؟ قال : لا تبشرهم فيتكلوا" وقد بشر به معاذ في آخر حياته خوفا من أن يكون ممن ينطبق عليهم قول الرسول ﷺ : " من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار " [1] .

2. حقوق الإنسان :

تضمن القرآن الكريم والسنة النبوية الطاهرة أول دستور عالمي لحقوق الإنسان على أكمل وجه وأعدله. فقد بيَّنا هذه الحقوق المتنوعة المتكاملة ابتداءا من حق الجنين في بطن أمه مرورا بحقوق الطفل والرجل والمرأة واليتيم والمسكين والأرملة والأقليات و أهل الذمة إلى حقوق الشيخ و المعوق إلخ ، وأحاطا هذه الحقوق بضمانات شرعية تضمن تطبيقها واستمرارها. وتتنوع هذه الحقوق الإنسانية إلى الحق في العمل و الحرية والوطن والتملك والتعليم والسكن والتنقل والأمن الروحي والعقدي والشورى واختيار الحاكم.. ووفر الإسلام الشروط الاقتصادية (الزكاة، الصدقات، الأوقاف، بيت المال إلخ) ، والاجتماعية (ضوابط الحياة الأسرية والعلاقات الإنسانية وحقوق مختلف فئات المجتمع) والسياسية (العدالة، والحرية، والمساواة، والشورى) والثقافية (العقيدة الصحيحة، والتربية القويمة، والتزكية الخلقية، والحث على العلم وطلبه والعمل به وتشجيع العلماء والطلبة..) والأخلاقية (نظام القيم الإسلامية التي هي القوة المحركة للإنسان نحو الخير والإحسان بما يضمن حقوقه من خلال القيام بالواجبات). كل هذا المناخ يساعد على احترام حقوق الإنسان وتطبيقها ودوام ذلك.

وأهل الشورى هم الذين يخلفون بعضهم بعضا في تدبير أحوال الناس والاهتمام بشؤون مصالحهم الدينية والدنيوية. ولما كان قوله تعالى : ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾ ظاهرا في معنى عموم الخطاب كان أمر الانتخاب عاما للاستخلاف بين الناس. وأما في معنى التخصيص فنجد أن معنى خلفاء الله في أرضه ينطبق على الوظائف العامة التالية :

---

1. أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن.

أ ـ اتباع الفرائض الدينية فيما يتعلق بالشرع الحنيف.

ب ـ حفظ سياسة المنافع الدنيوية في علاقات الأفراد والأمم.

ج ـ انتخاب رئيس للأمة يكون مسؤولا عن التنفيذ لما ورد في الاتفاق على الإمامة التي هي السهر على تنفيذ الأحكام الشرعية وحفظ سياسة المنافع الدنيوية.

قال الله تعالى: ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ [1].

وقال: ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ [2].

وقال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ [3].

3. العلاقة بين حقوق الله وحقوق الإنسان :

فحقوق الله تعالى تمثل جانب الواجبات على الإنسان، والتي إذا قام بها لبى حقوقه وضمنها أوفى تلبية وأكمل ضمان. فلا تناقض بين حقوق الله وحقوق الإنسان، بل هذه متفرعة عن الحقوق الإلهية، لأن الإنسان عبد لله أولا وأخيرا. ويتبين من هذا أن حقوق الإنسان منحة إلهية وفضل من الله على هذا المخلوق الضعيف، الذي لا يصلح أمره إلا باتباع الشريعة الإلهية والالتزام بها وما دامت حقوق الإنسان نعمة عظيمة من الله تعالى فإن الواجب والمنطق والفطرة تقتضي أن يشكر الإنسان خالقه على هذه النعمة. والشكر هو معنى القيام بحقوق الله.

1. سورة الأنعام: 165/6.
2. سورة آل عمران: 104/3.
3. سورة النساء: 59/4.

إذن فحقوق الله تعالى لا تنفصل عن حقوق الإنسان. بل القيام بها من صميم احترام الحقوق الإنسانية وضمانها.

4 . الشورى :

قال الله عز وجل: ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ [1]. وقال: ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ [2].

والشورى كما أمر بها الله تعالى نبيه والمؤمنين والمؤمنات لا تقتصر على الشأن السياسي بل تعم كل شؤون الأمة الإسلامية والمجتمع الإسلامي فهي تبدأ من مستوى التعامل بين أفراد الأسرة، وتنتهي بالشورى السياسية من حيث اختيار الحاكم، ومراقبة الحكومة، والسهر على تطبيق الشريعة الإسلامية، والعدل، والمساواة بين أفراد المجتمع، والأخذ على يد الظالم، وإنصاف المظلوم والمستضعف، وحفظ الكليات الضروريات الخمس: الدين والنفس والعقل والنسل والمال ـ وأضاف الإمام القرافي كلية ضرورية سادسة هي العرض ـ وحماية حقوق الإنسان.

وليست الشورى في ديننا الحنيف حكرا على فئة من الناس أو ما سماه أرگون بـ" الفئة العليا من كبار المسلمين" لأن المجلس الشوري الذي يتولى أمور اختيار الحاكم وتسيير الدولة وتنظيم المجتمع، هو ثمرة اختيار الأمة أي الشعب المسلم الذي يتحرى في من يختاره لهذه المهمة التقوى والورع والاستقامة والعلم والغيرة على الدين وعلى مصالح وحقوق العباد، وعلى القيام بحقوق الله تعالى بتطبيق شرعه الحنيف في واقع الناس.

وقد كتبت في فقه الشورى أو في السياسة الشرعية بصفة عامة مؤلفات عديدة نافعة نحن في حاجة ماسة إلى الاستفادة منها في حياتنا السياسية المعاصرة.

---

1. سورة آل عمران: 159/3.
2. سورة الشورى: 38/42.

إن الحكم في الإسلام لله في الحقيقة، ما دام حكما بما شرع الله لعباده من أحكام في مختلف مجالات الحياة، سواء ما تعلق منها بالحقوق أو المعاملات أو العقود أو العلاقة بين الراعي والرعية وما إلى ذلك من مصالح الدولة والمجتمع. وليس الحكم في الإسلام للشعب بأن يحكم الشعب نفسه تبعا لهواه، أو هوى وشهوة المتنفذين فيه المسيطرين عليه، وإن زعموا أن ذلك ديمقراطية!

5. الديمقراطية:

فالديمقراطية ـ كما عرفوها ـ هي حكم الشعب للشعب. وما هي في الحقيقة إلا تحكيم ذوي النفوذ السياسي والإعلامي والاقتصادي في رقاب الناس من خلال انتخابات توجهها وسائل الإعلام والأحزاب وتحدد مسبقا للشعب من يجب عليه أن يعطيه صوته. والحكم في النظام الديمقراطي بالقوانين الوضعية، وشتان بين هذه القوانين وبين شريعة الله تعالى العليم الخبير بمصالح العباد. فالقوانين الوضعية عرضة للهوى والشهوة والباطل وإباحة مالا يجوز، وتحريم ما أباح الله سبحانه، ومراعاة الحساسيات والمجاملات والمداهنات. بينما شريعة الله أحكام حكيمة مفصلة متوازنة شاملة صالحة للإنسانية، تسمو بالإنسان ولا تهبط به ولا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها. قال الله عز وجل: ﴿ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون؟! ﴾ [1].

6. حرية الإنسان واستقلاله:

يدعي الحداثيون والعلمانيون أن الدين يقيد الإنسان ويسلبه حريته. وهذا حكم ناتج عن فهم غير سليم للدين والحرية ومكانة الإنسان في هذا الوجود. بل هو ناتج عن الرغبة الشهوانية الإباحية والنزعة الذاتية الفردانية، وإرادة التحرر من كل قيد أو شرط أخلاقي إلا ما يشرعه هؤلاء المنحلون لمجتمعاتهم من قوانين تبيح كل صور الشذوذ عن الفطرة الإنسانية السوية، والأخلاق الإسلامية الكريمة، التي تحفظ للإنسان حريته المسؤولة وتحميه في نفس الوقت من الوقوع في براثن الرذائل، واتباع الأهواء المهلكة والنزعات الشيطانية. فالحرية في الإسلام ليست

1. سورة المائدة: 50/5.

تسيبا وفوضى جامحة، وإنما هي نعمة إلهية كريمة، تحفظ كرامة الإنسان وتحميها من كل من وما يدنسها أو ينحرف بها.

وبهذا المفهوم للحرية من كل ما يبعد عن الله سبحانه، والذي يضمن الإسلام للإنسان من خلاله كافة حقوقه المشروعة، وحرياته الفردية والجماعية، يكون الإنسان عبدا خالصا لله تعالى ،لا لهواه وشيطانه وشهوته وانحرافه. وهذه هي الحرية الحقيقية. ولا معنى للاستقلال عن الدين و" التحرر" من أحكامه إ' الانحراف الكلي والشقاء الدنيوي والأخروي. فلا حرية حقيقية إلا في ظلال الإسلام، ولا عبودية حقيقية لله سبحانه وحده إلا في هذه الظلال وإلا كان الإنسان عبدا لأهوائه لا لخالقه. والأصل في الفطرة الإنسانية السليمة العبودية لله سبحانه ولا تكون هذه الفطرة متمتعة بحريتها الأصيلة إلا مع هذه العبودية قال تعالى: ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له. وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾[1] فكلما ارتقى الإنسان مدارج العبودية لله رب العالمين كلما اكتملت حريته واتسعت حتى يصير حرا من جميع الأغيار، مستغرق القلب في توحيد الله العزيز الغفار[2].

فدعوى أن الإسلام يحد من حرية الإنسان، ويسلبه استقلاله دعوى داحضة. بل العكس هو الصحيح. وأما مفهوم حقوق الإنسان بمعناها الغربي، المنفصل عن حقوق الله، بل الكافر بهذه الحقوق، فلا يمنح الإنسان حرية وحقوقا، وإنما يرهقه شقاء وعقوقا!

إن شخصية الإنسان المسلم شخصية حرة مستقلة متكاملة متزنة، وهي مجمع احترام الحقوق الإنسانية والقيام بواجبات الحقوق الإلهية. وهذا ما يمنح الإنسان المسلم ثقة معقولة مشروعة بنفسه لأنه يثق أولا بربه، ومن وثق بخالقه وهبه الله الثقة النفسية، والاتزان النفسي، قال الله تعالى: ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾[3].

1. سورة الأنعام: 6 / 162 ـ 163.
2. ينظر كتاب ذ. الصديق بوعلام «تأملات في مفهوم الحرية».
3. سورة الطلاق: 3/65.

7. العقل والوحي:

تحدث المؤلف عن تاريخية العقل وتاريخية الفكر وكأنهما فوق الوحي الإلهي، وتحدث عن يقينيات المؤمن المستمدة من هذا الوحي وزعم أنها تمنعه من رؤية سبق الحداثة إلى هذه المفاهيم: الكرامة الإنسانية، والعدالة الاجتماعية، وحقوق الإنسان.

والواقع أن إيمان المسلم بالوحي هو الذي دله ـ من خلال دراسة نصوصه وتطبيقها ـ على هذه المفاهيم فلا يمكن نفي سبق الإسلام إليها، وتميزه الكامل في تقديم تصورها الصحيح و ممارستها القويمة، لا يمكن حجب الشمس بالغربال!

إن جدلية العقل والوحي في الحضارة الإسلامية هي التي أقامت مجتمعا إسلاميا احترمت فيه لأول مرة حقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية، فاقترن فهم التصور الإسلامي لهذه الريادة الحقوقية بالتطبيق المتكامل لمقتضياتها في المجتمع الإسلامي.

ولهذا فعندما يتبع المسلمون الوحي في حياتهم وتصوراتهم لا يبتعدون عن منطق العقل كما يتوهم البعض، بل يزدادون عقلا إلى عقلهم، وحكمة إلى حكمتهم ﴿نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء﴾ [1] لاسيما وأن الوحي يدعو إلى استعمال العقل ويذم من لا يستعمل عقله. قال الله تعالى: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها. أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ [2].

1. سورة النور: 35/24.
2. سورة الأعراف: 179/7.

8. حقوق الأقليات:

يظن بعض الجهال أن الإسلام يضطهد الأقليات، لغوية وعرقية ودينية، أو يضطهد أتباع الديانات الأخرى الذين يعيشون في ظل دولته. وهذا خلاف الحقيقة، فقد ضرب الإسلام المثل في احترام حقوق أهل الذمة، أي هؤلاء المخالفين للمسلمين في العقيدة، حيث اعتبرهم في ذمته. وقال رسول الله ﷺ: **(ألا من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة)** [1].

والتاريخ الإسلامي شاهد على ما أثمرته المعاملة الإسلامية الطيبة العادلة لأفراد الأقليات المتعايشة في المجتمع الإسلامي من صور التساكن والتعاون والتعايش في المجالات العلمية والعملية. ونموذج الأندلس من أبرز النماذج في هذا الباب.

9. أزمة الحداثة:

إن الحداثة تعيش في الحقيقة أزمة باعتراف المؤلف نفسه وأساتذته. ولذلك فهم يسعون إلى إرساء ما أسموه بـ" ما بعد الحداثة". وكما أفلست الحداثة ـ وغيرها من المذاهب الوضعية ـ ستفلس " ما بعد الحداثة".

قال الله تعالى: ﴿ **فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال** ﴾ [2]

إن ما زعمه أركون من استقلال للإنسان الغربي بعد الثورة الفرنسية، والإعلان العالمي لحقوق الإنسان وعلمنة الحياة الغربية، ما هو في الواقع إلا انقطاع عن الوحي، وعن كل صلة بالسماء. والحق أن الجذور الأصلية للإنسان إنما تمتد من السماء. ولا حياة ولا استقلال ولا حرية للإنسانية إلا إذا ضربت شجرتها بجذورها في أصلها السماوي العلوي، وإلا عصفت بها رياح الأهواء وجرفتها سيول الهرطقات.

---

1. أخرجه أبو داود في سننه كتاب الخراج والإمارة والفيء في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارة.
2. سورة الرعد: 17/13.

الفصل الثاني
تهافت الحداثة الغربية ودعاوى الحداثيين

1. حاجة الأمة والإنسانية إلى الدستور الإلهي :

قال المؤلف إن كل الكتب التي تتحدث عن الإسلام في مواجهة الحداثة تعود في الزمن إلى الوراء حتى القرن التاسع عشر (بداية عصر النهضة) [1] .

نقول : ما كل الكتب المهتمة بهذا الموضوع سارت على هذا النهج كما زعم أركون . ونمثل لما نقوله بكتاب "روح الحداثة ، المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية" [2]للدكتور طه عبد الرحمان الذي يقدم في هذا الكتاب تحليلا وتفكيكا منطقيا لأزمة الحداثة الغربية ونقدا لمسلماتها . ويقدم البديل الإسلامي الرشيد عنها على مختلف المستويات .

ويريد أركون منهجيات حداثية تفكك وتمس كثيرا الإسلام وتراثه ، ولذلك قال عن المنهجيات التي اتبعها مؤلفو ما سمي بعصر النهضة كطه حسين وزكي مبارك : " ولكن الإسلام وتراثه لم يتأثرا أو لم يمسا كثيرا بهذه المحاولات الخجولة"[3] . فهو يريد جراءة و تشكيكا أكبر مما كان عند بعض المؤلفين في هذا العهد ، ممن حاولوا نقد الإسلام و تراثه وفق المناهج الاستشراقية . وهؤلاء الذين ينعتهم المؤلف بالتنويريين أثاروا من الشكوك والبلبلة والشبهات أكثر مما أناروا العقول .

قال المؤلف : " ينبغي أن أضيف هنا أنه بعد ظهور حركة الإخوان المسلمين في الثلاثينات من هذا القرن ، فإن المثقفين الحداثيين خافوا وتراجعوا ، وراحوا يقدمون

1. قضايا في نقد العقل الديني - ص 170.
2. صدر عن المركز الثقافي العربي - بيروت - الدار البيضاء.
3. قضايا في نقد العقل الديني - ص 171.

التنازلات للتيار التبجيلي التقليدي الذي أخذ يكتسح الشارع. هذا ما تجلى في كتابات العقاد بل و حتى في كتابات طه حسين " [1].

ويرجع أرگون سبب نجاح الحركات الأصولية إلى هزيمة الجيوش العربية عام 1967، وفشل عبد الناصر وموته عام 1970، وظهور أول العلامات على انحسار الهيمنة السوفييتية، والازدياد الهائل في عدد السكان، وانكشاف محدودية سلاح البترول،وتراجع الفرحة بالاستقلال وتقلص مشروعية الأنظمة "الوطنية" إلى أقصى حد [2]. وقال :" هذا هو السبب الذي أدى إلى نجاح الأصوليين، وليس عبقريتهم أو اكتشافاتهم العلمية الخارقة في مجال الفكر الإسلامي !"[3] والواقع أن نجاح الحركات الأصولية راجع إلى انسداد الطرق أمام المناهج المستوردة وإفلاس المحاولات الوضعية لحل مشكلات المجتمع الإسلامي، وراجع - من جهة أخرى - إلى صلاحية الحل الإسلامي وإلى تمكّن أقطاب الحركات الأصولية من فتح العقول للاقتناع بهذا الحل ووعوده العظيمة، مستدلين بالعلوم الشرعية والعلوم الطبيعية والاجتماعية والكونية الحديثة في نفس الوقت، ومجددين الفكر الإسلامي. فجهودهم العلمية والعملية لا يمكن إنكارها. وقد جرب بعض المسؤولين عن الأمة مختلف الحلول المستوردة، فهلا سلكوا المنهج الإسلامي ليروا ثمراته يانعة في الواقع !

ومرة أخرى ننبه إلى ضرورة عدم الخلط بين الأصولية والإرهاب، أو بين الدعوة الإسلامية والاعتداء على الأبرياء.

عن الحارث عن علي رضي الله عنه أنه قال : سمعت رسول اللهﷺ يقول: (ألا إنها ستكون فتنة فقلت :" ما المخرج منها يا رسول الله ؟" قال : " كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم و خبر ما بعدكم وحكم ما بينكم. هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء

1. نفسه، ص 172.
2. نفسه، ص 172.
3. نفسه، ص 172.

ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه. وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ﴾ من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم"[1].

إن التخلي عن هذا الدستور الإلهي هو أهم أسباب أزمة أمتنا.

وقال أركون: " إن الإسلام المعاصر يعرف أن قيمه الأخلاقية والفقهية ـ القانونية التي كان يرتكز عليها النظام السياسي والاجتماعي للدولة الإسلامية التقليدية (ولا أقول الكلاسيكية).. أقول إن هذه القيم قد أصبحت مهاجمة ومرفوضة في كل مكان وذلك لأنها تبدو عتيقة وغير ملائمة لهذا العصر. ولذا فإن المسلمين أخذوا يتخلون عنها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وذلك بسبب ضغط العالم الحديث من حولهم. ولكن، وعلى الرغم من كل هذه التكذيبات التي يكبدها التاريخ لمبادئه وأصوله وبرنامج عمله، فإنه (أي الإسلام الأصولي) يظل قادرا على تجييش أنصار عديدين جدا"[2]. قال الله تعالى: ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه؟! ﴾[3] فالعقل السفيه هو الذي يرغب عن الإسلام منهجا للحياة. وليذكر لنا المؤلف دليلا واحدا فقط على عدم صلاحية القيم الأخلاقية والفقهية ـ القانونية الإسلامية لحياة الإنسان في هذا العصر هو الذي اعترف قبل قليل بإفلاس الحداثة وقال: " فالحضارة تعيش أزمة قيم على المستوى العالمي. والحداثة الغربية لم تعد واثقة من نفسها كما كان عليه الأمر في الماضي"[4]!

وماذا بوسع وهم المتوهمين أن ينتقد من الإسلام الذي هو ﴿ كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾[5].

---

1. أخرجه الدارمي في السنن 435/2 كتاب فضائل القرآن، والترمذي في السنن 172/5 الحديث 2906، ولا يعرف إلا من هذا الوجه. والبغوي في المصابيح 138/2 الحديث 1538.
2. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص 173.
3. سورة البقرة: 130/2.
4. نفسه، ص 173.
5. سورة النور: 35/24.

هل بوسعه أن ينكر إنسانية الإسلام، ومرونة شريعته، وقدرته على تجديد الفكر، وإصلاح الواقع، وإطلاق العقل من أغلال الهوى، والزيغ وأوهام الحداثة! هل يستطيع أن ينفي واقعية الإسلام وملاءمته للفطرة ووسطيته وعالميته؟! ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾[1].

ومن المؤلفات التي تدق ناقوس الخطر في الغرب معلنة إفلاس تجربته الحضارية كتاب "نهاية اليقينيات" لعالم الإبستمولوجيا البلجيكي الشهير إيليا بريغوجين (الحاصل على جائزة نوبل في علم الكيمياء) وقد صدر الكتاب في باريس سنة 1995 وكتاب " هزيمة أفلاطون" لأليجر (باريس 1996)، وكتاب " هزيمة الفكر " لألان فنكركروت وقد صدر سنة 1987.

2. الثوابت والمتغيرات:

قال أركون : " ينبغي أن يعلم القارئ أن الإسلام ليس كيانا جوهرانيا لا يتغير ولا يتبدل على مدار التاريخ. إنه ليس كيانا أبديا أو أزليا لا يتأثر بأي شيء ويؤثر في كل شيء كما يتوهم جمهور المسلمين"[2].

يعتبر المؤلف الإسلام وليد الممارسة التاريخية، وخاضعا للتغيير والتبديل. وهو يقول هذا الكلام ليبرر أمر القراءات الحداثية التي تكاثرت في الآونة الأخيرة محاولة تقديم صورة مغايرة لثوابت العقيدة والشريعة وإجماع الأمة، واتفاق علماء الملة، وجمهور المسلمين على الأسس القطعية للإسلام. إنه يزعم أن هذا الدين يتغير. وما الإسلام، في حقيقته، إلا ما قال الله تعالى وقال رسوله صلى الله عليه وسلم. فالمصادر الرئيسية للإسلام وثوابته ومبادئه الكبرى القطعية التي نصت عليها نصوص القرآن والسنة والتي أجمع على ثبوتها وقطعيتها وأصوليتها علماء الإسلام هي ثوابت لا تتغير ولا تتبدل، وليست وليدة الممارسة التاريخية، بل هي مستمدة من الوحي الإلهي. وأما الفروع، والمتغيرات المتلائمة مع أحوال الزمان والمكان والأشخاص، المتجددة بحسب اجتهاد العلماء ومراعاتهم

1. سورة البقرة: 111/2.
2. قضايا في نقد العقل الديني - ص 174.

للمصالح و المقاصد والمآلات والأولويات وفقه الواقع والمتوقع وحاجات العصر فهي ما يمكن أن يتجدد ويتبدل لكن في إطار الكليات المقاصدية الكبرى للإسلام، وضوابط الاجتهاد المعتبر. إن الفهوم البشرية متعددة متنوعة، والاجتهاد يختلف حسب الأدلة والمستندات والأصول المعتمدة ووجهات النظر والآليات الموجهة لعمل المجتهد، والضرورات والمستجدات والمآلات...

فهذا المجال قابل للتجديد، وأما الثوابت القطعية المعلومة من الدين بالضرورة والتي لا يوجد الدين إلا بها ومعها، فلا سبيل إلى تغييرها وتبديلها .وينبغي أن يعي الحداثيون هذا التمييز لكي لا يصروا على خلط الأوراق من أجل الترويج لمفاهيم غربية الأصول علمانية الأهداف عن القرآن الكريم والسنة النبوية. إن الإسلام لا يتغير في نصوصه القرآنية والحديثية، وإنما الذي يتغير ويتجدد هو فهم الناس لهذه النصوص. فما وافق ما كان عليه السلف الصالح كان عين الصواب وإن توسع وجدد النظر، وما خالف ما كانوا عليه كان من قبيل الخطأ والخطل وإن ادعى أصحابه الاجتهاد والتجديد. فقد قال النبي ﷺ: **(تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك)** [1].

وقال: **(تركت فيكم ما إن اتبعتموه لن تضلوا من بعدي: كتاب الله وسنتي)** [2]وفي رواية أخرى: **(كتاب الله وعترتي)**. فكل ما خالف السنة مردود فهما وعملا. قال النبي ﷺ: **(من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد)**[3]. وقال: **(من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار)** [4].

3. المجاز وحدود التأويل:

كثير من أدعياء القراءات الحداثية للقرآن الكريم يركبون على دعوى غلبة المجاز على آياته الكريمات، فيرخون العنان لأوهامهم وتأويلاتهم المنحرفة زاعمين أن مجازية الآيات تحتمل تلك التأويلات. وقال أركون في هذا السياق: " ولغة القرآن

1. أخرجه الحاكم (175/1) و ابن ماجة (43) و أحمد(126/4).
2. أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجة والترمذي وصححه.
3. أخرجه مسلم.
4. أخرجه الترمذي وحسنه.

رمزية أو مجازية في معظم الأحيان. لهذا السبب فإنه لا يزال "يحبل" بالمعاني المتجددة حتى الآن" [1].

ليس القرآن كله مجازا، بل إلى جانب المجاز الذي درسه علماء الإسلام كما في كتاب " مجاز القرآن " لأبي عبيدة معمر بن المثنى، هناك الحقيقة.

والمجاز والحقيقة من دلالات القرآن الكريم التي درست بدقة في إطار علم أصول الفقه، وعلوم البلاغة العربية، وبالخصوص بلاغة القرآن الكريم وإعجازه. ولا ينبغي تعميم دعوى المجاز على كل القرآن وإغفال الحقيقة، وتمرير التأويلات الضالة من خلال ذلك. فلتأويل المجاز ضوابطه وقواعده المنصوص عليها في علوم اللغة والقرآن والأصول.

ومن أخطاء المؤلف في التصور والتقويم والتقدير أنه يماثل بين الخطاب النبوي وخطاب الثورة الفرنسية، وينزل أحدهما منزلة الآخر، يقول: "لقد أسس الخطاب الثوري الفرنسي (مثله في ذلك مثل الخطاب النبوي) انطلاقة جديدة للوجود البشري"[2]. فأي انطلاقة جديدة للثورة الفرنسية تضاهي التأسيس الجديد الكلي للحياة الإنسانية الذي دعا إليه الخطاب النبوي؟!

وفي استعماله لهذه العبارة "الخطاب النبوي" ما فيه: "إن أركون، وإن لم ينف صراحة ربانية المصدر لدى القرآن، فإن في تأكيده صفة "الخطاب النبوي" تقاطعا بينه وبين أصحاب تلك الشبهات، من حيث إصرارهم جميعا على تقليص مساحة التقديس التي يحتلها في نفوس المؤمنين به" [3].

ويتحدث أركون عن "تدهور الوحي" في قوله: إن المؤمنين "يأسفون لتدهور الوحي على أيدي السلالات المالكة ولإفساد البشر لمبادئه أو انحرافهم عنها"[4].

---

1. قضايا في نقد العقل الديني - ص 176.
2. نفسه، ص 177.
3. القرآن الكريم والقراءات الحداثية - مرجع سابق، ص 73.
4. نفسه، ص 179.

حاشا للوحي الإلهي أن يتدهور! ﴿ وكلمة الله هي العليا ﴾[1] ﴿ ومن أصدق من الله حديثا ؟! ﴾[2]، وقد ﴿ تمت كلمات ربك صدقا وعدلا. لا مبدل لكلماته. وهو السميع العليم ﴾[3].

وإنما يتدهور الفكر المبتعد عن نور الوحي، المعرض عن حقائقه، المنحرف عن النهج السليم في تدبره وفهمه والاستمداد منه وتطبيقه.

ويتهم المؤلف الإمبراطوريات الإسلامية بنفس ما يتهم الإمبراطوريات المسيحية مع أن الفارق بين الإمبراطوريتين هو نفس الفارق بين الحق والباطل، بين الدعوة الإسلامية والحملات الصليبية، بين التنوير الإسلامي والتنصير الظلامي الوثني، بين الحضارة العلمية العقلانية الإسلامية وعبقريتها في مختلف الميادين وبين ظلمات العصور الوسطى المسيحية وتعصبها الديني المقيت، ومحاكم تفتيشها الظالمة، وجهالاتها الدينية والعسكرية، حيث حجبت الخرافة العقل، وغطى الظلم العدل، واكتسح العدوان الصليبي مبادئ السلام والمحبة والأخوة التي حملتها رسالة سيدنا عيسى عليه السلام. إن الفارق لا يقاس بين إمبراطوريات إسلامية تفتح العالم لتخرجه من مثل هذه الظلمات إلى نور التوحيد والعدل والأخلاق الراقية، وبين إمبراطوريات وثنية تحمل لواء التنصير المحرف لرسالة السيد المسيح عليه السلام، ورواية الحملات الصليبية، وتغرق في الخرافة والأسطورة والجهل والتخلف!

1. سورة التوبة: 40/9.
2. سورة النساء: 87/5.
3. سورة الأنعام: 115/6

الفصل الثالث
ظروف نقل القرآن الكريم وتدوينه

1. من دلائل حفظ القرآن الكريم:

قال المؤلف على سبيل المقايسة التي جعل نموذجها ومعيارها ما جرى في الغرب: " ويكفي أن نفتح كتب التاريخ الأوروبي لكي نجد صفحات ناصعة تروي قصة ذلك الصراع الهائج، والحامي الوطيس، بين مفكري التنوير من جهة، وبين رجال الدين المسيحيين من جهة أخرى. وبالتالي فإن صراع الإسلام مع الحداثة اليوم لا يختلف في شيء عن صراع المسيحية معها قبل مائتي سنة (أو طيلة مائتي سنة). يضاف إلى ذلك أن الفكر الإسلامي المعاصر فقير جدا من الناحية المعرفية..."[1].

إن أركون يعتقد اعتقادا جازما بأن الإسلام اليوم عاجز عن أن يتحدى الحداثة الغربية على المستوى الفكري[2]، وهذا اعتقاد فاسد، إذ الإسلام لا يستطيع فقط تحدي هذه الحداثة المأزومة الفاسدة المفسدة، ودحض مسلماتها في السياسة والمجتمع والفلسفة والاقتصاد ونظرتها إلى علاقة العلم بالطبيعة وتصورها للإنسان والكون والحياة بل يملك أن يقدم البديل عنها في كل هذه المستويات. وهو بديل قوي التماسك، عميق الجذور، سامق البناء. ولسنا ندري إن كان أركون قرأ - على سبيل المثال - كتاب "روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية" للدكتور طه عبد الرحمان، وقد أشرنا إليه سابقا، ففيه نموذج للتحدي الإسلامي المعاصر للحداثة الغربية.

---

1. قضايا في نقد العقل الديني - ص 180.
2. نفسه، ص 181.

من جهة أخرى، يظن أركون أن القرآن الكريم ظل مجرد خطاب شفهي، وأنه لم يدون إلا لاحقا. والحق أن جمهور علماء المسلمين قد أجمعوا على أن كتابة القرآن في مختلف وسائل الكتابة المتاحة آنذاك كانت موازية لتنزله منجما، حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم قد اتخذ كتابا للوحي منهم زيد بن ثابت[1] رضي الله عنه وأنه صلى الله عليه وسلم كان كلما نزلت آية أمر كاتب الوحي بوضعها في مكان كذا من سورة كذا[2]. لكن أركون ينفي هذا الذي ثبت بأدق مناهج النقد العلمي (نقد السند والمتن ومعرفة الرجال وقواعد الجرح والتعديل). ويقول : "ما الذي أقصده بالظاهرة القرآنية؟ أقصد القرآن كحدث يحصل لأول مرة في التاريخ، وبشكل أدق أقصد ما يلي : التجلي التاريخي لخطاب شفهي في زمان ومكان محددين تماما (الزمان هو بدايات التبشير، والبيئة الاجتماعية ـ الثقافية التي ظهر فيها هي الجزيرة العربية). ألح هنا على الطابع الشفهي للقرآن في البداية، لأنه لم يكتب أو لم يدون إلا فيما بعد. وهذا الخطاب الشفهي رافق الممارسة التاريخية المحسوسة لفاعل اجتماعي يدعى : محمد بن الله. لقد رافق ممارسته التاريخية المتنوعة الجوانب طيلة عشرين عاما (أي حتى وفاته) "[3].

ينتقد المؤلف ما ثبت من اجتماع الحفظ في الصدور والكتابة في السطور للقرآن الكريم في نفس الوقت، أو الجمع بين الخطاب الشفهي ـ على حد تعبيره ـ والخطاب المدون، بقوله: " ولا نتحدث هنا عن طريقة الأصوليين المتزمتين اليوم الذين يقومون بشتى الإسقاطات التعسفية على خطاب شفهي لم يصبح نصا مكتوبا (أو مصحفا) إلا فيما بعد"[4].

والحقيقة أن كتابة آيات القرآن الكريم في سعف النخل أو الجريد وفي اللخاف والعظام العريضة والجلد، كانت مساوقة لتنزله التدريجي (التنجيم) ولحفظه في

---

1. هو أبو خارجة زيد بن ثابت بن الضحاك بن زيد الخزرجي الأنصاري الإمام الكبير شيخ المقرئين والفرضيين مفتي المدينة وكاتب الوحي. من كتاب النبي ﷺ، ينظر «كتاب النبي ﷺ» للدكتور محمد مصطفى الأعظمي ـ المكتب الإسلامي، ط 3. 1401 / 1981 بيروت لبنان، ص : 96 ـ 97.
2. التاريخ الكبير للبخاري: 2 / 1: 381.
3. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص 186.
4. نفسه، ص 187.

الصدور، بدليل عدة نصوص حديثية. فقد بين الشيخ العلامة عبد العظيم الزرقاني رحمه الله كيف جمع القرآن في عهوده الثلاثة: عهد النبي ﷺ، وعهد أبي بكر، وعهد عثمان رضي الله عنهما، فالجمع في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان عبارة عن كتابة الآيات وترتيبها ووضعها في مكانها الخاص من سورها، ولكن مع بعثرة الكتابة وتفرقها بين عسب وعظام، وحجارة ورقاع، ونحو ذلك حسبما تتيسر أدوات الكتابة، وكان الغرض من هذا الجمع زيادة التوثيق للقرآن، وإن التعويل أيامئذ كان على الحفظ والاستظهار.

أما الجمع في عهد أبي بكر رضي الله عنه فقد كان عبارة عن نقل القرآن وكتابته في صحف مرتب الآيات أيضا، مقتصرا فيه على ما لم تنسخ تلاوته، مستوثقا له بالتواتر، والإجماع، وكان الغرض منه تسجيل القرآن وتقييده بالكتابة مجموعا مرتبا خشية ذهاب شيء منه بموت حملته وحفاظه. وأما الجمع في عهد عثمان رضي الله عنه فقد كان عبارة عن نقل ما في تلك الصحف في مصحف واحد إمام، واستنساخ مصاحف منه ترسل إلى الآفاق الإسلامية، ملاحظا فيها تلك المزايا السالف ذكرها مع ترتيب سوره وآياته جميعا، وكان الغرض منه إطفاء الفتنة التي اشتعلت بين المسلمين حين اختلفوا في قراءة القرآن، وجمع شملهم وتوحيد كلمتهم، والمحافظة على كتاب الله من التغيير والتبديل ﴿لا تبديل لكلمات الله. ذلك هو الفوز العظيم﴾[1] [2].

وقال العلامة الزرقاني: "وأجمعت الأمة ـ وهي معصومة من الخطأ في إجماعها ـ على ما في هذه المصاحف وعلى ترك كل ما خالفها من زيادة ونقص وإبدال، لأنه لم يثبت عندهم ثبوتا متواترا أنه من القرآن"[3] ويمكن للقارئ الرجوع إلى كتابنا " الشبه الاستشراقية في كتاب «مدخل إلى القرآن الكريم» للدكتور محمد عابد الجابري، رؤية نقدية" حيث سقنا العديد من البراهين على ثبوت النص القرآني وصحته بالتواتر القطعي اليقيني، ودحضنا الشبهات التي حاكها خصوم الإسلام حول هذا الموضوع.

1. سورة يونس: 46/10.
2. مناهل العرفان 1/ 221 ـ 222.
3. نفسه، 1/ 331 ـ 332.

يثير أركون هذه النقطة ليركز على شفهية الخطاب بوصفها مرحلة سابقة جدا على مرحلة كتابته. وبالتالي فللظنون والأوهام أن تذهب كل مذهب في تخيل ما حصل بين المرحلة الشفهية ومرحلة التدوين. قال: " إن الانتقال من مرحلة الخطاب الشفهي إلى مرحلة الخطاب المدون والمكتوب لم يؤخذ بعين الاعتبار حتى الآن من قبل المفسرين المسلمين المهتمين بأسباب النزول والناسخ والمنسوخ من أجل بلورة الأحكام الفقهية، ولا من قبل المستشرقين الذين يتبعون المنهجية الفيلولوجية، الوضعية والتاريخية. فالخطاب الشفهي تلفظ به النبي طيلة عشرين سنة وفي ظروف متغيرة ومختلفة وأمام جمهور محدد من البشر. ونحن لا يمكن أن نتوصل إلى معرفة هذه الحالة الأولية والطازجة للخطاب مهما حاولنا. فقد انتهت بوفاة أصحابها. لقد ضاعت إلى الأبد. ثم إن عملية الانتقال من مرحلة الخطاب الشفهي إلى مرحلة النص المكتوب والناجز تطرح مشاكل عديدة لا يفكر أحد فيها " [1]. وأضاف: " إن الانتقال من مرحلة الخطاب الشفهي إلى مرحلة المدونة النصية الرسمية المغلقة (أي مرحلة المصحف)، لم يتم إلا بعد حصول الكثير من عمليات الحذف والانتخاب والتلاعبات اللغوية التي تحصل دائما في مثل هذه الحالات. فليس كل الخطاب الشفهي يدون وإنما هناك أشياء تفقد أثناء الطريق، نقول ذلك ونحن نعلم أن بعض المخطوطات قد أتلفت كمصحف عبد الله بن مسعود مثلا، وذلك لأن عملية الجمع تمت في ظروف حامية من الصراع السياسي على السلطة والمشروعية" [2].

وردّنا على هذا الكلام ما أوضحناه في ردودنا على الجابري ويمكن للقارئ الكريم مراجعته. قال عبد الحي اللكنوي رحمه الله : "كان الإمام أبوحنيفة يختم القرآن في كل يوم وليلة مرة وفي رمضان كل يوم مرتين مرة في النهار ومرة في الليل، وقال ابن المبارك كان أبوحنيفة يجمع القرآن في ركعتين. وقال أيضا : أربعة من الأئمة ختموا القرآن في ركعتين: عثمان بن عفان، وتميم الداري، وسعيد بن جبير، وأبوحنيفة " [3]. فهذا يدل على الدرجة العالية لحفظ كتاب الله تعالى في

1. قضايا في نقد العقل الديني، ص 187.
2. نفسه، ص 188.
3. إقامة الحجة، ص 76.

الصدور، والتي كان يتمتع بها هؤلاء العلماء الأعلام، إضافة إلى كتابته في الوسائل المتاحة وقت نزوله، زيادة في التوثيق والإحاطة والصيانة.

يمكن للقارئ الرجوع إلى كتابنا "الشبه الاستشراقية في كتاب **"مدخل إلى القرآن الكريم"** للدكتور محمد عابد الجابري رؤية نقدية "[1].

ويمكنه كذلك الرجوع إلى كتاب" الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين"[2] لمصطفى نصر المسلاتي لاسيما الفصل الخاص بتاريخ ترجمات معاني القرآن الكريم باللغة الإنجليزية (ص 87ـ120).

وهو يشتمل على :

- أول محاولة لتعريف الغرب بمحتوى القرآن الكريم خلال فترة 1096 ـ1270م (ص 87 ـ 96).
- المستشرقون والقرآن (ص 97ـ106).
- صفات قدسية لله (ص 107ـ108).
- الخلاصة (ص 108 ـ110).
- النظرة الجزئية الذاتية لفهم معاني القرآن (ص 110ـ113).
- الشك في جمع القرآن وترتيبه (ص 114 -120).

ومرة أخرى يقع أركون في الخطأ الشنيع والتحريف السافر بسبب قياسه ظروف نقل القرآن الكريم وتدوينه على ملابسات كتابة وتدوين التوراة والإنجيل اللذين هما روايات شفوية بشرية فعلا، بينما القرآن وحي منزل نقل بأمانة كاملة، وجمع وضبط بضوابط دقيقة، وحفظ بحفظ الله تعالى. قال المؤلف: "أعود إلى أهمية التفريق بين مرحلة الخطاب الشفهي ومرحلة الخطاب المدون أو المكتوب وأقول بأنه يتيح لنا أن نلقي إضاءات جديدة ليس فقط على النص القرآني وإنما أيضا على كل النصوص الدينية التأسيسية الأخرى كالتوراة والأناجيل، فهي لم تكتب إلا بعد مرور فترة على وفاة موسى وعيسى" [3]. وقال

1. صدر عن دار الأمان، والدار العربية للعلوم ناشرون، ومنشورات الاختلاف، عام 2009.
2. صدر عن دار إقرأ ط 1 ربيع الأول 1316هـ الموافق 1986م.
3. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص 188.

بسذاجة بالغة ناسيا أو متناسيا ما أحاط به الصحابة حفظ القرآن الكريم من عناية حتى إنهم كانوا يحفظونه في صدورهم أولا بأول ويدونونه في الوسائل المتاحة للتدوين: " وهذا الظرف العام (يقصد الظرف العام للخطاب الشفهي) لا يمكن أن نتوصل إليه إطلاقا لأننا لا نملك شريط تسجيل أو فيلما مصورا يبين لنا الرسول وهو يتحدث إلى أصحابه أو يتلو عليهم القرآن لأول مرة. هذا شيء مضى وانقضى ولا حيلة لنا به. ففي ذلك الوقت لم تكن هناك آلات تسجيل ولا كاميرات تصوير"[1].

نقول: ولكن كانت عناية الله تعالى ولا تزال، تهيء الذواكر القوية، والصدور الصافية لحمل كتاب الله وحفظه، وتعليمه. فإذا كان أرگون مفتونا بالتكنولوجيا الحديثة إلى درجة نسيان قدرة الله سبحانه على حفظ كتابه العزيز إلى قيام الساعة، وتوفير أسباب هذا الحفظ في المسلمين، فإننا نوقن ـ ولله الحمد ـ بأن الله عز وجل من وراء كل شيء محيط، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. فأين ما يخترعه الإنسان من قدرة الله الباهرة؟!

وقال المؤلف نافيا أن يكون القرآن الكريم المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم هو نفس القرآن المنقول إلينا: " كما أننا لم نشهد تلك النقاشات الحامية التي دارت حول تثبيت النسخة الرسمية من المصحف، ولا نعرف عنها إلا ما قاله لنا التراث المرسخ بعد أن انتصر من انتصر وانهزم من انهزم. والتراث الرسمي المفروض بقوة السلطة لا يحتفظ عادة إلا برواية الخط المنتصر ويحذف بقية الروايات الأخرى. ويمكن القول بأن تاريخ إقفال المناقشات الدائرة حول النص القرآني يعود إلى لحظة الطبري (توفي عام 923 م). فقد كان تفسيره بمثابة التأسيس الأولي للأرثوذكسية الإسلامية، أي للخط الرسمي الذي شاع وهيمن فيما بعد بصفته الخط الوحيد الصحيح وما عداه فهرطقة وضلال. هكذا نجد أن هناك صيرورة تاريخية معقدة ومليئة بالصراعات، وهي التي أدت في نهاية المطاف إلى تشكيل المدونة النصية الرسمية، المغلقة والنهائية، بصفتها أمرا واقعا[2] ".

1. نفسه، ص: 188.
2. نفسه، ص 189.

قال الله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة. كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا. ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾[1] .

يتصور أركون أن القرآن الكريم الذي بين أيدي المسلمين اليوم ما هو إلا نتيجة صيرورة تاريخية معقدة ومليئة بالصراعات، وليس مطابقا للأصل !

نقول: إن المسلمين حافظوا على رسم القرآن كما دون وضبط في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهو الرسم العثماني. وقال العلماء إن شروط القراءة الصحيحة ثلاثة:

- أن توافق رسم المصحف العثماني.
- أن تنقل بالتواتر لأن القراءات الصحيحة لا تثبت إلا بالسند الصحيح المتواتر حتى ولو وافقت المصحف الإمام.
- أن توافق وجها من وجوه اللغة العربية.

وجل علماء هذا الفن كانوا ولا يزالون بعيدين عن الصراعات السياسية.

وقد قدم د.الحسن العباقي دليلا معجميا على أن القرآن الكريم كان مكتوبا لا شفهيا فقط إذ قال : " يتضح مما سبق أن للقرآن معنى ماديا، وآخر معنويا، فالأول يستشف من القراءة في الكتاب التي جعلت علة للتسمية بـ" القرآن"، أي إنه كتاب مقروء، والثاني يستشف من دلالة الكلمة على الجمع، وسحب ذلك على جمعه لعدد كثير من السور المتضمنة للقصص والأمر والنهي والوعد والوعيد وغير ذلك[2] . وهذا يدل على أن دلالة كلمة " قرآن" على نص مكتوب وقابل للقراءة إمكان حقيقي، ولا يقل شأنا عن الإمكان الثاني الذي يربطها بالجمع لمضامين متعددة، كما يحيل الرجوع إلى أصل الكلمة، على أكثر من احتمال القراءة واحدة منها، وإيحاء القراءة بوجود نص مقروء أقوى من إيحائها بتلاوة

1. سورة الفرقان: 25/ 32 ـ 33.
2. لسان العرب، ج 1، 128-129.

نص محفوظ عن ظهر قلب، أو بتعبير أدق إن دلالة القراءة على النص المكتوب خطا أقوى من دلالتها على خطاب شفهي" [1].

2. مساهمة المسلمين في العلم الحديث :

ويجمع المؤلف بين متناقضين في تصوره للعلم والإلحاد إذ قال : " فمن الذي سينقذ وضع العالم الذي تحول إلى أنقاض من الفشل والفوضى؟ من الذي سيدشن التاريخ الجديد بعد الإعلان عن "نهاية التاريخ" ؟ هل هو العقل الديني المطهر من انحرافاته وشوائبه والعنف القمعي للعقل العلمي الملحد"[2].

كيف يقبل عقل سليم الجمع بين العلم والإلحاد، في الوقت الذي يؤدي فيه العلم إلى الإيمان، ويؤدّي الجهل أو التقليد الأعمى إلى الإلحاد مثلما تؤدي إليه عوامل أخرى كالوهم والظن الفاسد والجحود والكبر والعناد. فكيف جمع "عقل"أركون بين هذين الضدين اللذين لا يجتمعان : العلم والإلحاد؟!

وقال منكرا كل مساهمة معاصرة للمسلمين في العلم الحديث : " ما هي مساهمتنا في الطب الحديث، أو الصيدلة واختراع الأدوية، أو سبر أغوار الفضاء، أو اختراع الآلات والتكنولوجيا ...إلخ؟ نحن عالة على العالم في الوضع الحالي للأمور. بل إننا عالة عليه ليس فقط في العلوم الفيزيائية والتكنولوجية، وإنما أيضا في العلوم الإنسانية والفلسفية. فلا توجد أي مساهمة فلسفية، عربية أو إسلامية، في النقاش الدولي الدائر حاليا حول مسألة الحداثة وما بعد الحداثة؟ " [3].

إن نفي أي مساهمة للمسلمين في العلم الحديث بهتان مبين. لقد تولد عن ظاهرة هجرة الأدمغة المسلمة إلى الغرب إبداع علمي كبير في البلاد الغربية أنتجته قرائح مسلمة في مختلف مجالات العلوم الحديثة. بل حقق كثير من العلماء المسلمين في هذا العصر تقدما وحضورا متميزين في العلوم الدقيقة. حتى حصل عالم مصري هو أحمد زويل مثلا على جائزة نوبل في الكيمياء. وفي

1. القرآن الكريم والقراءات الحداثية، مرجع سابق-ص 70-71.
2. قضايا في نقد العقل الديني، ص 191.
3. نفسه، ص: 192.

المختبرات العلمية الغربية والقواعد الفضائية وغيرها عقول مسلمة رائدة. وفي البلاد الإسلامية علماء ومخترعون وطاقات هائلة. وأما العلوم الإنسانية الإسلامية فتقدم اليوم كذلك البديل المتكامل الصحيح للعلوم الإنسانية الغربية من منطلق ربانية العلم الإنساني الإسلامي المستند على القرآن والسنة أي على المرجعية الإلهية اليقينية، ومن منطلق ما تراكم في التراث الإسلامي من استكشافات علمية في الميادين الإنسانية المتنوعة، وأخيرا من منطلق تكامل المعارف الإنسانية الإسلامية وفق المنهج الإسلامي تصورا وممارسة.

وأما النقاش الحالي حول الحداثة وما بعدها فهناك نقود فلسفية إسلامية جديرة بالتقدير والتنويه تتجاوز بكثير ما يجري في الغرب من مناقشات إذ تقدم البديل الإسلامي وتؤسس لحداثة إسلامية تنقذ العالم من ويلات العولمة الحداثية أو التغريب العلماني.

الباب السادس

- الفصل الأول : ضرورة الأخلاق
  1. لا فصل في الإسلام بين الدّين والدّولة
  2. منذ البدء كان التوحيد
  3. الأخلاق جوهر حقيقة الإنسان
  4. الإسلام دين الأخلاق
- الفصل الثاني : حقائق التقديس وادعاء العقلانية
  1. اندحار أخلاق الحداثة
  2. من الحلول الأخلاقية الإسلامية
  3. تأسيس الإيمان على البرهان العقلي
  4. بماذا تميّز الإسلام؟
  5. الدين الحق
  6. النقد العاري عن الدليل
  7. العلم والإيمان
- الفصل الثالث : التسامح والتسيب
  1. فقدان التمييز
  2. التسامح والتعصب

الفصل الأول
ضرورة الأخلاق

1. لا فصل في الإسلام بين الدين والدولة :

يستشهد المؤلف بهذه الأبيات لعمر الخيام :

" ونحو تلك الكأس المقلوبة التي تدعى السماء
التي تحتها نعيش ونموت كالحشرات
لا ترفع يديك طلبا للعون
فهي أيضا مغلوبة على أمرها مثلي ومثلك" .

ويعلق على قول الخيام بما يلي :

" كان عمر الخيام عالما مستنيرا وهو يعبر هنا بكل حرية عن الإحساس العميق بالطابع العابر والزائل للحياة ، وعن علاقة الإنسان بالله . أليس مثيرا للتأمل والتفكير أنه يتجرأ على التعبير عن ذلك في بيئة إسلامية تقليدية وفي عز القرون الوسطى ؟ نقول ذلك ونحن نعلم أن اتخاذ مثل هذا الموقف أصبح مستحيلا اليوم في العديد من المجتمعات المدعوة إسلامية . ذلك أنه سوف يقمع حتما ويعتبر تجديفا وكفرا "[1].

إن أركون يحرض المسلمين على مثل هذه الجراءة الحمقاء إذ يحاول توهين أمر التجديف في نظرهم، فهل هذه هي العقلانية والتنوير والعقل العلمي ؟!

وقال :" لقد ظهرت قوى علمانية في المدن الإسلامية الكبرى بين القرنين التاسع / والثالث عشر الميلادي (الثالث / والسابع الهجري) . وكان ظهورها أكثر وضوحا في منطقتي إيران والعراق بين القرنين العاشر / والحادي عشر للميلاد (الرابع / والخامس للهجرة) "[2].

---

1 . قضايا في نقد العقل الديني ـ ص200 .
2 . نفسه، ص 205 .

هل يعي أركون ما يقول ؟!

هل عرف العالم الإسلامي العلمانية التي تعني فصل الدين عن الدولة خلال هذه القرون التي أشار إليها ؟! ماهي الأدلة التاريخية على هذا الزعم ؟! ويقول إن التيارات العقلانية التي شهدها العالم الإسلامي ثم انتقلت إلى أوروبا واختفت كليا في بلاد الإسلام تجعلنا نتساءل : هل يحق للمسلمين المعاصرين أن يرفضوا " التغريب" أو " الاستغراب" كما يفعلون اليوم؟ هل يحق لهم أن يرفضوا الحداثة الأوروبية قبل أن يقوموا بتفحص نقدي شامل وعميق لما يمكن أن ندعوه باللغز التاريخي للنموذج الإسلامي ذاته ؟[1].

فالمؤلف يدعو دعوة صريحة إلى التغريب، ولا يقبل موقف المسلمين منه، وهو موقف رافض بطبيعة الحال، لأن التغريب ـ كما يفهم من اللفظ ذاته ـ مسخ للهوية الإسلامية وتذويب لها في الهوية الغربية، واستئصال لكل مقومات الوجود الإسلامي بما فيها الدين، وجعل هذا الوجود تابعا أو خادما للغرب وثقافته وتراثه وأهدافه. فهل يرضى أي عاقل لنفسه ولأمته بهذا الوضع؟! أما أركون فليس يرضى ذلك فقط بل يدعو إليه ويعمل من أجل حصوله كاملا!

ويعتقد بأن الإسلام " يسمح بالعلمنة والحرية والتمييز بين الدين والسياسة على عكس ما يتوهم الجميع" [2].

كتب أركون هذه الجملة دون أن يقدم دليلا واحدا على ما سطره قلمه، ثم استرسل في حديثه عن موضوع غياب فكرة الإله في الغرب.

وللمسلمين من الأدلة القرآنية والحديثية والعقلية والتاريخية ـ الحضارية مالا يحصى على أن الإسلام دين ودنيا، عقيدة وشريعة، نظام روحي وتنظيم للدولة، فهو ينظم حياة الروح مثلما ينظم حياة المجتمع، ويوجه نحو العبادة الخالصة، مثلما يرشد إلى المنهج الأمثل لتنظيم شؤون الدولة وحفظ مصالح الرعية، وذلك

1. نفسه، ص 206.
2. نفسه، ص 210.

لأنه منهج إلهي شامل متكامل. ويكفي للدلالة على ذلك استحضار النموذج النبوي ثم النموذج الراشدي في الحياة الإسلامية وكلاهما جامع بين الدين والدنيا، بين التنظيم المجتمعي (الدولة الإسلامية) والنظام الروحي العبادي، ونظام المعاملات. ولو كان الإسلام يسمح بالفصل بين الدين والدولة، أو يسمح بالعلمنة لظهر ذلك واضحا في هذا النموذج الأسمى لأن النبي ﷺ كان على بصيرة من ربه، يبين بأقواله وأفعاله المتمثلة في التطبيقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعسكرية والعلاقات الدولية فضلا عن العبادات، مراد الله سبحانه، أي دين الإسلام. وقد كان الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم على نهجه يسيرون، وبسنّته يقتدون، فلم يكن في حياتهم أدنى فصل بين الدين والدولة. كما أن تاريخ الإسلام شهد ازدهار البحث الفقهي في ما اصطلح عليه بـ" السياسة الشرعية" وهو مصطلح ينسف وحده بدلالته العميقة الجلية ما ذهب إليه أركون، حيث جمع هذا المصطلح المركب، بين "الشرع" و"السياسة" باعتبار هذه بناء يقوم على القواعد الشرعية. ولم يكن المسلمون يقبلون إلا بالحكم بما أنزل الله تعالى، إيمانا منهم بدينهم، وتمسكا منهم بعروته الوثقى، وثقة منهم بصلاحيته لتنظيم الحياة بكل مستوياتها، فالإسلام بريء من العلمانية والعلمنة. ولم يقدم المؤلف أدنى دليل يقيم به دعواه العوجاء.

كما أنه يدعي أن عالم الشرق الأوسط القديم جان بوتيرو المختص بحضارات وادي الرافدين من أكادية وسومرية وبابلية قد توصل في كتابه " ظهور فكرة الله الواحد (أو ظهور التوحيد) " إلى أول مرة في التاريخ تظهر فيها هذه العقيدة، فقبل ذلك كان الشائع هو تعددية الآلهة، وليس الإله الواحد [1].

2 . منذ البدء كان التوحيد :

قال النبي ﷺ : **(كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام)**[2].

هذا الحديث يبطل دعوى المؤلف. فهذه النظرية التي دافع عنها لا تصح لأن الدلائل النقلية الصحيحة الثابتة، والبراهين التاريخية المحققة تؤكد أن الأصل الذي

---

1 . نفسه، ص 211 . صدر هذا الكتاب ضمن منشورات غاليمار ـ باريس.

2 . أخرجه الإمام البخاري عن ابن عباس.

كانت عليه عقيدة البشر منذ بداية ظهور الإنسان على وجه الأرض هي عقيدة توحيد الله عز وجل، وأن اعتقاد تعدد الآلهة إنما طرأ على التصور العقدي لدى الإنسان وبعد ذلك ظل الصراع بين عقيدة التوحيد السماوية وضلالات الشرك التي زينتها للناس شياطين الإنس والجن صراعا متواصلا، وكلما طغى باطل الشرك وعمت ظلماته، بعث الله تعالى نبيا أو رسولا مبشرا ومنذرا، يدعو الخلق إلى التوحيد وأن يعودوا إلى الأصل الذي فطرهم الله عز وجل عليه وهو التوحيد الذي أنزل به سبحانه الكتب، وبعث به الرسل، منذ سيدنا آدم عليه السلام. قال الله تعالى مخاطبا آدم وحواء عليهما السلام وذرّيتهما: ﴿فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[1]. وقال سبحانه بعد أن قص علينا قصة إغواء الشيطان لآدم وتوبة أب البشر: ﴿قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين. قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى. ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾[3].

فكان جواب الله لهم على لسان عبده ورسوله هود عليه السلام: ﴿قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾[4].

1. سورة البقرة: 2/ 37 ـ 38.
2. سورة الأعراف: 7/ 24 ـ 27.
3. سورة الأعراف: 7/ 70.
4. سورة الأعراف: 7/ 71.

فالإيمان والتوحيد كانا منذ البدء، أي منذ خلق الله تعالى آدم وزوجه عليهما السلام، ثم بعد أن أهبطا إلى الأرض، احتدم الصراع بين قوى الشر (الشيطان وجنده، والشرك والضلال والفساد الذي يدعو إليه) وبين قوى الخير (الصالحون من ذرية آدم عليه السلام، الذين اتبعوا وصاياه بأن يوحدوا الله سبحانه ويطيعوه).

ولما كثر الفساد، وعم الشرك والضلال أرسل الله رسله تترى ليعيدوا الناس إلى نقاء الفطرة التي خلقوا عليها ﴿فطرت الله التي فطر الناس عليها﴾[1]: دين التوحيد، ويخرجوهم من ظلمات الشرك إلى نور لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وهي الكلمة التي قامت بها السموات والأرضون. وأنزل الله على هؤلاء الرسل الوحي، وكلفهم بتبليغ شرائعه إلى عباده، واشتد الصراع بين المشركين الذين يعتقدون بتعدد الآلهة وبين الموحدين الذين يؤمنون بالله الواحد. وقصص القرآن الكريم يبيّن كل هذا بإيجاز وإعجاز.

بل إن الجن مخاطبون بما خوطب به الإنس من الرسالات الإلهية الداعية إلى التوحيد والطاعة والإصلاح. قال تعالى: ﴿وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين، قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم﴾[2].

وفي القرآن الكريم سورة سميت باسم "الجن". قال الله تعالى: ﴿بسم الله الرحمان الرحيم، قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ...﴾[3].

1. سورة الروم: 30/30.
2. سورة الأحقاف: 46/ 29 ـ 31.
3. سورة الجن: 72/ 1 ـ 2.

وقال سبحانه مبينا رفعة أهل التوحيد وحجته ورسالته التي بعث به جميع الرسل: ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه، نرفع درجات من نشاء، إن ربك حكيم عليم. ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا. ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين. وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين. وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا. وكلا فضلنا على العالمين. ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم. ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده. ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة. فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين. أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده. قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة. وأنا ربكم فاتقون فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون ﴾[2]. وقال: ﴿ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك. ولذلك خلقهم ﴾[3].

3. الأخلاق جوهر حقيقة الإنسان:

قال أركون: " لنلح هنا مرة أخرى على المسألة التالية، وهي أن تجاوز التضاد بين الحضارات لن يتم عن طريق الدعوة إلى اتباع الروحانية والأخلاق. فالمواعظ الأخلاقية لا تحل شيئا. ومن الواضح أنه بعد كل ما قلته سابقا فإن هذا ليس موقفي. لن تحل المسألة عن طريق المواعظ الأخلاقية أو الدعوة إلى ضخ المزيد من الروحانية في الحضارة الحديثة كما يتوهم بعضهم. ولا أقول ذلك لأني ضد الروحانية وضد الأخلاق، وإنما لأن هناك حاجة ملحة الآن لبلورة أسس فلسفية جديدة من أجل التوصل إلى روحانية حديثة وإلى أخلاق عملية محسوسة قابلة لأن تندمج في ممارستنا السياسية والاقتصادية والقانونية. فالروحانية والأخلاق

1. سورة الأنعام: 6/ 83 ـ 90.
2. سورة المؤمنون: 23/ 52 ـ 53.
3. سورة هود: 11/ 118 ـ 119.

التقليدية عفا عليها الزمن ولم تعد بقادرة على التأثير في الحياة الحديثة. أقول ذلك خاصة وأننا نتجه اليوم نحو فضاء جديد للمعرفة والتأويل والممارسة العلمية ينبغي أن نعلم أن الفيزياء والمعلوماتية ثم بشكل أخص علم الأحياء (أو البيولوجيا) هي الآن في طور تغيير الوجود البشري نفسه، بل وحتى تغيير تعريف الشخص البشري ! وتشهد على ذلك المناقشات الجارية حاليا في أوروبا ـ والغرب عموما ـ حول الإجهاض، والإنجاب الاصطناعي، والمسائل الأخرى الكثيرة المتفرعة عن الاكتشافات البيولوجية"[1] .

وأضاف :" نحن نعلم الآن كيف أن المبادئ الدينية التقليدية المتعلقة بالموت والحياة، والجنس، والنسل والزواج، والحرية الجنسية، ومكانة المرأة في المجتمع، قد أصبحت منتهكة أو حتى ملغاة تماما من قبل التحديدات البيولوجية الجديدة"[2] .

نقول : إن الإنسان مخلوق أخلاقي لا صلاح لحياته الفردية والجماعية إلا بالتحلي بالأخلاق الحميدة النابعة من الفطرة الإنسانية، والتخلي من الأخلاق الرذيلة المصادمة لهذه الفطرة. فالأخلاق جوهر الحقيقة الإنسانية. ويمكن الرجوع هنا إلى كتاب «دستور الأخلاق في القرآن» للدكتور عبد الله دراز رحمه الله، وكتاب «سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية» للدكتور طه عبد الرحمان.

4. الإسلام دين الأخلاق :

والإسلام دين الفطرة، أي دين الأخلاق. قال رسول الله ﷺ : «إن الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق وكمال محاسن الأفعال»[3] .

ولذلك فإن ثلاثة في المائة (3%) من الآيات القرآنية فقط هي التي اهتمت ببيان الأحكام الشرعية، في حين أن باقي الآيات (97%) كلها من أجل البناء الأخلاقي للإنسان والمجتمع. وكذلك الأحاديث النبوية الشريفة لا تستغرق منها

1. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص 218.
2. نفسه، ص 218.
3. أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد 188/8 في كتاب البر والصلة، والبغوي في السنة 202/13 كتاب الفضائل الحديث 3622، 3623. وكذلك في مصابيح السنة 41/4 رقم الحديث 4490.

الأحكام الشرعية إلا ألفي حديث، والباقي الآلاف المؤلفة من الأحاديث الأخرى من أجل أن يتحلى الإنسان بالأخلاق الحسنة. وقال النبي ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1]. و«إنما» أداة حصر. فالمعنى أن الرسالة المحمدية لا تخرج عن تحقيق هذا الهدف العظيم: تتميم مكارم الأخلاق. ولهذا كان ﷺ خلقه القرآن. والقرآن هو دستور الأخلاق الإنسانية الإسلامية. وقال الله تعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[2]، وقال: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾[3].

فالإنسانية ملزمة باتباع الرسول الخاتم سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ، ولا سيما في هذا الجانب الحيوي: الأخلاق، التي تشكل منظومة متكاملة في الإسلام. وما وصل الإنسان إلى هذا التردي إلا بسبب عدم اتباعه المنهاج النبوي كما أمره الله سبحانه بذلك في محكم كتابه. إن ما يسميه بعض الحداثيين بـ«عودة الإسلام» هو ضرورة روحية واجتماعية وأخلاقية وحضارية. والأخلاق الإلهية هي الأخلاق التي بينها الكتاب والسنة وهي أخلاق فطرية إنسانية بحيث إن تشريعها الرباني يتلاءم تماما مع تجذرها في فطرة الإنسان. وأما ما يحاول أقطاب الحداثة والعلمانية البحث عنه من أخلاق جديدة ـ تتجاوز تلك التي ينعتونها بالبالية والتقليدية، وتتماشى مع التطورات العلمية الحديثة ـ فهي ليست أخلاقا إيمانية لأنها متعارضة مع الأصول الإلهية للأخلاق الشرعية التي لا صلاح للإنسانية إلا بالتحلي بها. فكلنا يعرف ما تمخضت عنه الفلسفات الوضعية والحداثية من أخلاق المصلحة الفردية، والمنفعة الدنيوية، على حساب حقوق الضعفاء والمهمشين، وعلى حساب المعاني الأخروية والحقائق الباقية، وهذه أخلاق الرؤية المادية الضيقة للحياة والوجود، ليست أخلاقا بالمعنى الصحيح للكلمة بل هي لا ـ أخلاق لأنها داعية إلى الدمار والخراب والتشريد والتجويع والتفقير والأنانية والاستكبار في

1. رواه الإمام مالك في الموطأ في الحديث 1723.
2. سورة القلم: 4/68.
3. سورة الأحزاب: 21/33.

الأرض والحيوانية والإرهاب. لقد شرع الله سبحانه منهاجا أخلاقيا متكاملا يمكن الرجوع إلى آياته في القرآن الكريم وفق هذا البيان:

- من حيث مجال العقوبات حوالي 30 آية.
- من حيث مجال الأحوال الشخصية الأسرية حوالي 70 آية.
- من حيث مجال العلاقات الاقتصادية والمالية والاجتماعية حوالي 10 آيات.
- من حيث المسائل المدنية والتجارية الخاصة بالأفراد فيما بينهم حوالي 70 آية.
- من حيث مجال نظام الحكم وأصوله وعلاقة الحكام بالمحكومين وحقوق الأفراد والجماعات حوالي 10 آيات.
- من حيث مجال أصول المحاكمات الخاصة بالقضاء والشهادة واليمين حوالي 13 آية.
- من حيث العلاقات الدولية سواء مع المسلمين أو غيرهم في السلم والحرب حوالي 25 آية[1]. أما ما ادعاه أركون من أن هذه الأخلاق قد عفا عليها الزمن، فإن القيم الإسلامية العديدة صالحة للإنسانية ما بقيت. والحكم على هذه القيم بالصلاحية الدائمة ثمرة نوعين من النظر: الأول منهما يتعلق بتصورها في ذاتها وإدراك مصدرها الرباني، وثانيهما يتعلق بالممارسة الأخلاقية نفسها، فقد أثبتت التجربة التاريخية والاجتماعية أنه حيثما انتشرت هذه القيم الأخلاقية الإسلامية حل الخير والسلام والازدهار والسعادة والتآخي والوئام والحب، وحيثما غابت حل الشر والصراع والتخلف والشقاء والخواء الروحي والعداوة والبغضاء. ولا يمكن للإنسان أن يحيا حياة طيبة إلا في بيئة تحترم هذه الأخلاق الإسلامية.

1. ينظر «المنهاج الإسلامي في التربية على حقوق الإنسان» ـ مرجع سابق ـ ص 204.

الفصل الثاني

حقائق التقديس وادعاء العقلانية

1. اندحار أخلاق الحداثة:

بخلاف ما زعمه أركون، فإن تجاوز التضاد بين الحضارات إنما يتم عن طريق الإيمان بالأخلاق الفاضلة وممارستها. والإسلام يدعو إلى التعارف والتعاون والتعايش والسلام، ويذكر الإنسانية بأصلها الواحد. قال الله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم. إن الله عليم خبير﴾[1]. وقال: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام. إن الله كان عليكم رقيبا﴾[2].

ودعا الإسلام جميع الأمم إلى كلمة سواء؛ بها تتوحد الإنسانية في واقعها التاريخي كما هي واحدة في أصلها الجنسي، فقال تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾[3].

ومع ذلك فإن الاختلاف بين الحضارات دائم وينبغي أن يكون اختلاف تنوع لا اختلاف صراع وحرب، وأن يكون اختلاف تكامل معرفي لا اختلاف نقمة وتضاد عدواني واستكبار يسحق فيه القوي الطاغي الضعيف الفقير. فالاختلاف الأول نعمة، والثاني نقمة. لهذا دعا الإسلام إلى التعارف، والإقبال على رسالة التوحيد التي توحد القلوب والعقول حول مقصد واحد، وقبلة واحدة، هي الكعبة المشرفة، وحول هدف واحد هو طلب رضوان الله عز وجل بتوحيده وطاعته.

---

1. سورة الحجرات: 13/49.
2. سورة النساء: 1/4.
3. سورة آل عمران: 64/3.

أليس هذا هو الحل الناجع للتضاد بين الحضارات؟ وهل يمكن أن يتوصل الإنسان إلى الإيمان بهذا الحل والعمل بمقتضاه إلا عن طريق المواعظ الأخلاقية؟ أي عن طريق تخليق الحياة الإنسانية بأخلاق القرآن الكريم والسنة الطاهرة؟

إن بحث أركون عن «روحانية» و«أخلاق عملية محسوسة حديثة» قابلة لأن تندمج في ممارساتنا السياسية والاقتصادية والقانونية» بدعوى أن الروحانية والأخلاق التقليدية عفا عليها الزمن ولم تعد بقادرة على التأثير في الحياة الحديثة، هو مجرد جري وراء السراب في صحراء قاحلة انعدمت فيها الأخلاق الصحيحة، وبلغ فيها العطش من الإنسان إلى النبع الحقيقي للقيم الأخلاقية الإسلامية منتهاه.

فبدل أن يدل المؤلف الإنسان على هذا النبع يعده بالبحث عن «أخلاق حديثة» غير الأخلاق الدينية. ومهما حاولت أن تتصور أخلاقا حديثة فإنها لن تخرج عن مسلمات الحداثة الغربية: من مادية، وعقلانية مفصومة عن الوحي، ونزعة دنيوية خالصة، واستهلاكية مفرطة، ومذهب نفعي ضيق في الحياة، وعدمية في تصور معنى الوجود، وعلمنة تبعد الدين عن هذا الوجود وهذه الحياة، وإباحية لا أخلاقية تقنن الشذوذ الجنسي بمختلف أشكاله، وأنواع الانحرافات عن الفطرة السوية، بقوانين تدعي أن العلم الحديث يستوجبها.

2. من الحلول الأخلاقية الإسلامية:

في حين أن للإسلام مواقفه الأخلاقية البناءة القويمة من كل هذه القضايا التي طرح المؤلف: الموت والحياة، والجنس والنسل، والزواج والحرية الجنسية، ومكانة المرأة في المجتمع، والإجهاض والإنجاب الاصطناعي، ومحاولة تغيير خلق الله... ولو أن هذه الحلول الأخلاقية الإسلامية لهذه القضايا المعاصرة أخذت بعين الاعتبار لتجاوزت الإنسانية أزمتها الأخلاقية. فرسالة الإسلام ـ في جوهرها ـ رسالة أخلاقية.

ولا يتبع مناوئوها إلا خطوات الشيطان ﴿إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا

ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله. ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا ﴾[1].

3. تأسيس الإيمان على البرهان العقلي:

وقال المؤلف: «إن العقل الديني يبحث عن تفسيرات متماسكة داخل الحدود الصارمة لعدد كبير من الأديان المختلفة والمنتشرة في شتى أنحاء العالم. ويمكن تحديد هذه الأديان بصفتها أنظمة من العقائد / واللاعقائد (أي أنها تعتقد بمجموعة أشياء وتنفي ما عداها). ونقصد بالأديان هنا جميع أديان البشرية في شتى مراحلها سواء أكانت تعددية أم توحيدية، ذات مصدر شفهي أم كتابي، سائدة في المجتمعات العتيقة البدائية أم في المجتمعات الحديثة و«العقلانية». فالعقل الديني هو ذاته في جميع الحالات، بمعنى أنه يشتغل عن طريق الآليات الداخلية ذاتها. إنه يستوعب التركيبات الخيالية، ويسبح في بحر من الحقائق المتخيلة، ويتعامل مع الكائنات والقوى الرمزية أو القصصية والخارقة للطبيعة، ويعتقد بأنها قادرة على أن تحكم الكون وأن تولد المعجزات طبقا لمنطق المعرفة العجائبية والأسطورية. من المهم أن نؤكد هنا على أن الدين هو نظام من العقائد / واللاعقائد أو نظام من الاعتقاد / واللااعتقاد، ونعرف الاعتقاد (الإيمان) هنا على أساس أنه حالة نفسية تدفع بالمرء إلى أن يضع ثقته كليا في شخص ما أو في شيء ما. ويمكن تعريفه بكل بساطة على أساس أنه الانتساب الفكري إلى عقيدة ما دون البحث عن أسباب هذا الانتساب أو صلاحيته (إنه انتساب عفوي بلا روية أو تفكير: انتساب عاطفي يتم عن طريق القلب وليس عن طريق الرأس أو العقل)»[2].

لقد أدى «المنهج التاريخي الأنتربولوجي المقارن للأديان» بالمؤلف إلى عدم تمييز الإسلام عن غيره من الأديان، بل وضع كل الأديان سماوية وغير سماوية، كتابية وشفهية في مستوى واحد، بنظرة تعميم أو تعويم هلامية، فحكم على الإسلام

---

1. سورة النساء: 4/ 117 ـ 119.
2. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص 219.

والإيمان به، بنفس حكمه على الأديان الأخرى والإيمان بها، في حين أن الإسلام لا يسبح بالمؤمن به في بحر "الحقائق" المتخيلة كما نجد في ديانات أخرى، بل يهديه إلى الحق سواء في ما يتعلق بعالم الغيب أو في ما يتعلق بعالم الشهادة. ثم إن الإسلام يدعو المؤمن به إلى استخدام عقله، والاستدلال على ما يعتقده من معتقدات بدلائل عقلية، وبراهين منطقية. بل القرآن الكريم مليء بالدعوة إلى البرهنة العقلية والفطرية على وجود الله سبحانه، وقدرته وسعة علمه، وعظمة سلطانه، وعلى البعث والنشور والحساب والجنة والنار، وعالم الملائكة وعالم الجن، وحقيقة النبوة والرسالة، وصدق الرسل، وحقيقة المعجزات، وهذه ليست من منطق «المعرفة العجائبية الأسطورية» بل هي حقائق إيمانية مطابقة للواقع الذي أخبر به الوحي. فالإسلام غير الأساطير البدائية! والعقل يصل عن طريق الاستدلال المنطقي والبرهان والاستقراء والتحليل العقلي إلى صحة كل تلك العقائد الإسلامية بالنظر في المخلوقات الدالة على وجود الخالق سبحانه.

قال تعالى: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾[1].

كما يصل العقل إلى هذه الحقائق عن طريق النظر في مطابقة آيات القرآن الكريم للاكتشافات العلمية في كتاب الكون، مما يدل على أنهما ـ القرآن والكون ـ من مصدر واحد، وأن خالق هذا الكون الفسيح هو منزل هذا القرآن الكريم. فالمسلم لا يعتقد في ما يلقى إليه اعتقادا أعمى بلا تفكير ولا روية كما زعم أركون. بل يدعو الإسلام أتباعه إلى إعمال العقل، والاستدلال على الحقائق الإيمانية بالأدلة المقبولة بينما نجد النصرانية مثلا تمنع أتباعها من النظر في حقيقة ما يعتقدون، بل تخبرهم بأن «التثليث» وما إلى ذلك من العقائد النصرانية لا تقبل إعمال العقل وكل ما عليهم هو أن يعتقدوا بها اعتقادا أعمى فقط. فلا

1. سورة البقرة: 164/2.

ينبغي للمؤلف أن يخلط الأوراق، وأن يعمم ويموه على القارئ قصد إيقاعه في حبائل الضّلالات.

4. بماذا تميز الإسلام؟

ونجده يقول بسبب نظرته الوضعية للدين: «وقد استطاعت الأديان أن ترسخ خصوصيتها واستقلاليتها الذاتية عن طريق استخدام استراتيجية الاختلاف والتمايز: هذا ما فعله يسوع الناصري بالقياس إلى التراث اليهودي، وهذا ما فعله محمد بن عبد الله بالقياس إلى العقائد والطقوس اليهودية والمسيحية. وما كان ممكنا ترسيخ المسيحية والإسلام لولا القيام بذلك. ينبغي أن تختلف وأن تكون لك خصوصيتك لكي توجد وتحقق شخصيتك»[1].

نرشد القارئ إلى الاطلاع على كتاب «الأديان في القرآن» للدكتور محمود بن شريف[2]، ومما تضمنه: البشرية والدين، وعقيدة الشرك والمجوسية واليهودية والمسيحية والإسلام.

قال الله تعالى: ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾[3].

وقال: ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير ﴾[4].

---

1. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص 219.
2. صدر عن مكتبة عكاظ للنشر والتوزيع ط 5. السعودية 1984/1404. ص 1 ـ 301 خاصة.
3. سورة الأعراف: 7/ 156 ـ 157.
4. سورة المائدة: 15/5.

كان الله سبحانه يبعث الرسل إلى أقوامهم خاصة، وبعث خاتمهم محمدا ﷺ إلى الناس عامة. قال عز وجل: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا﴾[1]. وقال: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا﴾[2]. وقال: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[3].

ولما كانت رسالة سيدنا محمد ﷺ ناسخة لما قبلها، خاتمة للشرائع السابقة، عامة شاملة، باقية خالدة إلى يوم الدين، صالحة لمختلف أطوار الحياة الإنسانية المستقبلية، جعلها الله سبحانه ملائمة لفطرة الإنسان من جهة، ومشتملة على خصائص تهيمن بها على الرسالات السابقة التي كانت موجهة إلى أقوام مخصوصين من جهة أخرى. ولذلك فإن تميزها ليس نابعا من رغبة النبي ﷺ التلقائية في الاختلاف عن اليهود والنصارى وترسيخ الدين الذي بعث به بمخالفتهم لمجرد تحقيق شخصيته، بل كان الاختلاف والتمايز ـ حتى بالنسبة للمسيحية قياسا إلى اليهودية ـ بوحي إلهي، يتجلى في تجديد الدين، والشريعة وفق مقتضيات الأحوال، والضرورات الحيوية للإنسان الذي وجهت إليه الرسالة، فقد غالى اليهود في المادية، فبعث الله سيدنا عيسى عليه السلام ليسمو بروحانياتهم، لكن النصارى غالوا بدورهم في الرهبانية، فبعث الله تعالى سيدنا محمدا ﷺ بالدين الوسط الذي يجمع بين المادة والروح، بين الدنيا والآخرة، بين أشواق القلب الدينية وحقوق الجسد الحسية، وكانت أمته أمة وسطا، فلا رهبانية في الإسلام.

قال الله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾[4]. وهذه الوسطية التي يتميز بها الإسلام من أبرز خصائصه التي يختلف بها عن سائر الأديان، والتي تفسر بعض مقومات صلاحيته لكل الأزمان. أضف إلى ذلك أن انحراف اليهود

1. سورة الأعراف: 158/7.
2. سورة سبأ: 28/34.
3. سورة الأنبياء: 107/21.
4. سورة البقرة: 143/2.

والنصارى عن الرسالة الحق التي بعث بها موسى وعيسى عليهما السلام، حتى إنهم أحلوا الحرام ـ بسبب انحرافهم وتحريفهم ـ وحرموا الحلال، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا، هو الذي اقتضى عملية التصحيح القرآني الدال على مصداقية وربانية الرسالة. والنّصوص المقدسة الإسلامية قرآناً وسنة في مجال بيان التحريف اليهودي والمسيحي لما أنزل الله تعالى كثيرة جدا. وكلها تبين إلى أي درجة كان يتخبط هؤلاء المنكرون في مزاعمهم التي سماها أركون «احتجاجات نقدية». ولم يعلم أن النقد ليس مجرد المعارضة بغير دليل، بل هو ما يقوم على الدليل وإلا لم يكن نقدا. و«نقد العقل الإسلامي» الذي يدعيه أركون هو من هذا القبيل الفاقد للدليل.

5. الدين الحق:

ثم قال: «بعد أن انتقلت أوروبا من النظام الديني للوجود إلى النظام العلماني للوجود فقد مفهوم «الدين الحق» بشكل مطلق من أولويته، لماذا؟ لأن الحقيقة الدينية تعرضت أيضا للنسبية مثلها في ذلك مثل بقية الحقائق الأخرى (ينبغي ألا ننسى: نحن نعيش في عصر آنشتاين والنظرية النسبية). وبالتالي فقد أصبحت الحقيقة الدينية بحاجة إلى إعادة التأويل والتقييم لكي تستطيع أن تساير التطور»[1].

نقول: لم يكن لدى أوروبا «دين حق» زمن انتصار العلمانية وإنما انحرافات عقدية وسلوكية عن «الدين الحق» الذي بعث به موسى وعيسى عليهما السلام. ولذلك وجد فلاسفة «التنوير» و«الثورة الفرنسية» و«ورواد الحداثة» مداخل عديدة أمكنهم من خلالها إلغاء العقل الديني الأوربي أو إضعافه أو الحكم بنسبية حقيقته الدينية وتجاوزها. لأنها قائمة على التدجيل والتحريف والخرافة والتّخريف. أما الإسلام فحقائقه يقينية مطلقة لأنها من عند الله عالم الغيب والشهادة، لم يطلها تغيير ولا تحريف. فالوحي الإلهي (القرآن والسنة) مطلق لا نسبي. ونظرية آينشتاين في النسبية إنما تصدق على الخلق أي على الكون المخلوق وحقائقه النسبية (قوانينه وسننه ومادته وطبائعه وخصائصه...) وتصدق

1. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص 220.

كذلك على الأفكار التي ينتجها العقل البشري في مختلف المجالات، أما العقائد والحقائق التي مصدرها الوحي الرباني فلا تطالها النسبية، بل هي مطلقة، بحكم أن الوحي قطعي مطلق يقيني لأنه من الله الواحد الأحد الذي أحاط بكل شيء علما.

كان على أركون أن يدرك هذا وإن عاش في عصر آينشتاين والنظرية النسبية!

يميز علماء المسلمين عامة في الإسلام بين الكليات والجزئيات، بين الأصول والفروع، بين ما هو قطعي وما هو ظني، بين الثابت والمتحول، بين الثوابت والمتغيرات ويجزمون بأن ما كان كليا وأصلا قطعيا يقينيا ثابتا لا سبيل إلى تطويره أو تغييره، إذ هو من الثوابت والقواعد التي لا يتصور وجود الإسلام إلا ببقائها وثبوتها واستمرارها، وهذا من المعلوم من الدين بالضرورة، سواء في مجال العقائد أو المقاصد أو العبادات أو المعاملات إلخ، وأما الجانب المتحول والذي يقبل التغيير والمواءمة مع الظروف والمستجدات فهو ما يبنى على تلك الأصول من فروع، وما يرجع به إلى تلك الكليات من جزئيات، وما يفهم في ضوء القطعي من ظنيات. إنه نظام متكامل يسمح للعقل بالاجتهاد، ويحمي في نفس الوقت الأصول والقواعد من تلاعب المتلاعبين، وتأويلات الجاهلين، وتحريفات المبطلين؛ ومن هنا كانت المرونة وقابلية التجديد من سمات هذه الرسالة الخاتمة وظهر ذلك جليا في الإنتاج الفقهي الواسع العميق للمجتهدين من علماء الأمة. كما كانت الصرامة والمحافظة من سمات هذه الرسالة فيما يتعلق بقواعدها وثوابتها التي إليها المرجع في كل عملية اجتهاد وتجديد، وفي كل محاولة تأويل وتفسير.

بهذا جمع الإسلام بين مقومات التجديد وأسس الأصالة، أو بين القواعد الثابتة، ومجالات الاجتهاد المتحركة والمتحولة فكان مسايرا لمختلف العصور منضبطا بأرسخ القواعد وأصحها على الدهور.

من هنا ندرك مدى خطأ أركون في قوله: «لا ريب أن رجال الدين [يقصد علماء المسلمين] يستخدمون العقل ولكنهم يرفضون تطبيق المنهج النقدي على العقائد الدوغمائية التي قدست بفعل مرور الزمن المتطاول»[1].

1. نفسه، ص: 221.

إن هذه العقائد قدسية الأصل والمصدر لم يقدسها الإنسان اعتباطا. والعقيدة هي تصديق جازم يقيني بحقيقة أو حقائق إيمانية. والحقائق الإيمانية كذلك لا تتغير ولا تتبدل.

هل يمكن للإنسان أن يجعل القمر مكان الشمس، والبحر مكان السماء؟! كذلك لا يمكنه أن يغير الحقائق الإيمانية. إن عملية تصحيح عقائدية وسلوكية تمت من خلال الدعوة الإسلامية، حيث أعاد الإسلام مفهوم الدين الحق إلى الحنيفية السمحة، وهذا ما يميزه، وتجاوز بذلك تلك الانحرافات، وذلك بوحي من الله لأن الرسول لم يكن يعلم ما الكتاب ولا الإيمان ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا. وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾[1].

فالإسلام هو دين الصراط المستقيم، والطريق المستقيم هو أقرب الطرق وأوسعها وأبلغها إلى المقصود وأسلمها.

6. النقد العاري عن الدليل:

وقال المؤلف: «لايمكن القول بأن العقل النقدي غائب كليا عن الأديان أو منعدم تماما فيها. فحتى في الأوساط التي تسيطر عليها الأرثوذكسيات الدينية الأشد انغلاقا وصرامة وتخويفا يوجد شيء من الهامش النقدي ويمكن القول مثلا بأن الخطاب القرآني مليء باحتجاجات المعارضين المكيين على محمد. وهي احتجاجات نقدية موجهة إليه من منطلق المعرفة الحسية أو التقليدية التي كانت سائدة في مكة قبل ظهور الإسلام. فقد اتهموه بأنه شاعر أو مجنون...»[2].

كيف يعتبر أركون هذه الأقوال السخيفة نقداً، والقرآن الكريم يسفه عقول هؤلاء المشركين الذين اتهموا النبي ﷺ بمثل هذه الاتهامات ويبيّن اضطرابهم وحيرتهم وتناقضهم: ﴿بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾[3].

---

1. سورة الشورى: 52/42.
2. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص 219 ـ 220.
3. سورة الأنبياء: 5/21.

وقال مدافعا عن نبيه الكريم: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمت ربك بمجنون وإنك لعلى خلق عظيم﴾[1]. وقال: ﴿وما هو بقول شاعر﴾[2].

﴿ولا بقول كاهن﴾[3] وقال: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾[4]. وقال: ﴿فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر سأصليه سقر وما أدراك ما سقر﴾[5] وقال: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين﴾[6] وقال: ﴿قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾[7]. والآيات التي تحكي أقوال هؤلاء المشركين الجاحدين، وتفند ادعاءاتهم، وتدافع عن صدق الرسول كثيرة. إن الثوابت العقدية والتشريعية تسمو على النقد لأنها من الثابت الذي لا يتغير، بل الذي يجب التصديق والإيمان به، مع إعمال العقل في تبينه وبيانه وتبيينه، والبرهنة عليه، بالأدلة المنطقية. وهذا هو مجال العقل بالنسبة للعقائد الإيمانية اليقينية القطعية. وهو مجال واسع سعة هذا الكون.

7. العلم والإيمان:

وقال المؤلف: «لا أعرف فقيها معاصراً واحدا (أو شيخا أو رجل دين) يقبل بإعادة طرح مسألة القرآن كـ «كلام مخلوق» من قبل الله.

لا أحد يقبل بمعالجة هذه المسألة الهامة على ضوء العلم الحديث والمنهجيات اللغوية والتاريخية الحديثة. نقول ذلك على الرغم من أن المسلمين لطالما خاضوا فيها أثناء العصر الكلاسيكي، أثناء ازدهار العقلانية أيام المعتزلة. ولكنها الآن

1. سورة القلم: 68/1-4.
2. سورة الحاقة: 41/69.
3. سورة الحاقة: 42/69.
4. سورة يس: 69/36.
5. سورة المدثر: 74/24-27.
6. سورة الحاقة: 69/45-46.
7. سورة هود: 13/11.

ممنوعة ومحرمة تماما. فكيف يمكن للتحرير أن يحصل في الساحة العربية أو الإسلامية؟ (...) وبالتالي فإن إسلام الأصوليين والمحافظين اليوم أضعف (وأضيق) بكثير من إسلام العصر الكلاسيكي»[1].

- ***أولا:*** لماذا يريد أركون إعادة النقاش حول مسألة «خلق القرآن»؟
- ***ثانيا:*** لماذا يعتبر هذا النقاش علامة على العقلانية والحرية؟
- ***ثالثا:*** لماذا خاض القدامى في هذه المسألة، وماذا كانت النتيجة؟
- ***رابعا:*** هل العقلانية هي القول بـ«خلق القرآن»، وهل المعتزلة «أعقل» من السلف الصالح (جيل الصحابة وجيل التابعين وتابعيهم بإحسان)؟!
- ***خامسا:*** هل انتهى العلماء من مناقشة قضايا العصر، ولم يتبق لهم إلا الخوض في شبهات وتحريفات أثارها أتباع الفلسفة الإغريقية؟!

قال المؤلف: «وأما المسلمون المختصون بالعلوم الدقيقة فيرفضون هم أيضا تطبيق المناهج النقدية الحديثة على التراث. إنهم يرفضون تطبيقها خارج نطاق اختصاصاتهم العلمية (كالفيزياء، والكيمياء...). والشيء المدهش واللافت للانتباه هو تكاثر عدد الأصوليين في أوساط المهندسين والأطباء والفيزيائيين... إلخ. فكنا نعتقد أن التخصص العلمي يبعد عن التعصب فإذا به يقرب منه!»[2].

كنا نودّ لو أن أركون أفاق من دهشته، ليدرك أن نتائج العلوم الدقيقة لا تتعارض مع حقائق الإيمان وعقائد الإسلام، بل يزداد المؤمنون العلماء بظواهر الكون وقوانينه، وسنن الطبيعة التي خلق الله سبحانه، إيمانا إلى إيمانهم، وهذا هو سبب تزايد المؤمنين الذين يسميهم أركون أصوليين في أوساط المهندسين والأطباء والفيزيائيين وغيرهم من أهل الاختصاص في العلوم الدقيقة. فهم يكتشفون كل يوم من الحقائق العلمية ما يؤكد الحقائق الإيمانية التي اكتشفت خلال هذا العصر. وهذا هو معنى الإعجاز العلمي للقرآن الكريم والسنة الطاهرة.

وهذه بعض العناوين في هذا المضمار: «الماء والحياة بين العلم والقرآن» و«المنهج الإيماني للدراسات الكونية» كلاهما لعبد العليم عبد الرحمان حصر، و«الإعجاز

1. نفسه، ص 222.
2. نفسه، ص 222.

النباتي في القرآن» في خمسة أجزاء، للدكتور زغلول النجار، و«تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة» له، و«هداية القرآن في الآفاق والأنفس والإعجاز العلمي» لمحمد إبراهيم شريف، و«الأسرار الطبية والأحكام الفقهية في تحريم الخنزير» لمحمد علي البار، و«دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث» لعز الدين توفيق، و«مباحث في إعجاز القرآن» لمصطفى مسلم.

إن العلماء المسلمين يدركون حدود العقل وحدود العلم الحديث، ويوقنون بربانية مصدر الوحي، فلا عجب أن يرفضوا إخضاع هذا الوحي للمناهج النقدية الحديثة، وهل يعقل أن يكون كلام الله تعالى والوحي الذي أنزل على رسوله سواء في القرآن أو في السنة موضع نقد، وهو من الله العليم الخبير الذي تقدس كلامه وجل علمه، وعظمت قدرته وبهرت معجزاته العقول ماضيا وحاضرا؟! ألم تفتح بحوث الإعجاز العلمي للقرآن والسنة ـ بفضل الله ـ قلوبا غلفا وآذانا صما وأعينا عميا في عصرنا هذا؟!

وليس هذا الموقف الإيماني ـ العلمي لعلماء المسلمين تعصبا كما يدعي أركون، بل هو إذعان لبراهين الحق الساطعة. فالعاقل المنصف لا يجحد الحقائق، ولا يقبل التنازل عنها. هذا ما يعلمنا الإسلام.

إن الإيمان تصديق جازم مطابق للحق عن دليل. وهذه قاعدة لا تتغير، بل هي المنطلق الثابت للمعارف الإيمانية، بل وللعلوم المتنوعة. إن المؤمنين يستدلون بعقولهم على صحة ما يؤمنون به وهذا ما ركز القرآن الكريم على الاهتمام به والإرشاد إليه، لكي يكون الإيمان مؤسسا على قواعد صلبة، راسخة كالجبال. فهو ليس مجرد تسليم بلا برهان. ولذلك لا نفهم من كلام أركون على «الإيمان التقليدي أو التسليمي» و«الإيمان بالمعنى الحديث» إلا التغليط والمغالطة، فهو يتحدث عن «إيمان ما قبل النقد التاريخي» ويقول إنه غير «إيمان ما بعد النقد التاريخي». وإذا رجعنا إلى ما سبق تفنيده من «مسلمات» نقده التاريخي، تبين لنا أنه يريد من قارئه حالة من اللا إيمان تمليها النتائج المغلوطة لذلك النقد حتى يكون صاحبه «مؤمنا» إيمان الحداثة، لا «إيمان ما قبل الحداثة» كما قال! إنه تمويه مفضوح، وتضليل مردود.

الفصل الثالث
التسامح والتسيب

1. فقدان التمييز:

قال المؤلف : «ولكن إذا كان الإسلام قد صاغ كل جوانب الحياة بطابعه طيلة قرون عدة، فهل يعني ذلك أنه يكفي أن نعدل قليلا من المؤسسات والعقائد القديمة لكي تصبح صالحة لمجتمعات القرن الحادي والعشرين؟ ! هل يعني ذلك أن مؤسسة الخلافة أو اللاهوت الأشعري أو الجعفري الشيعي أو تفاسير الطبري أو الرازي أو قانون ابن سينا في الطب أو رؤية الفارابي للمدينة الفاضلة أو المجتمع الحضري لدمشق أو إسطنبول في القرن السابع عشر هي أشياء صالحة لأواخر هذا القرن مع إجراء بعض التعديلات البسيطة عليها؟ بالطبع لا، هذا وهم وسراب، هذا استلاب»[1].

لا يميز أركون بين العقائد الصحيحة والفلسفات الخيالية، بين التفاسير المقبولة والتأويلات الباطلة، بين ما تجاوزه العلم الحديث وما هو من صميم الإسلام الثابت.

قال الإمام أبو الحسن الأشعري: «قولنا الذي نقول به وعقيدتنا التي ندين بها: التمسك بكتاب ربنا عز وجل وسنة نبينا ﷺ وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ونحن بذلك معتصمون».

إن الإسلام قادر على توجيه الحضارة الكونية إلى رشدها وليس فقط الانخراط فيها.

---

1. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص : 225.

2. التسامح والتعصب :

صدر المؤلف بداية فصله عن «التسامح واللاتسامح في التراث الإسلامي» ببيت شعري لشاعر المعرة أبي العلاء المعري، هو :

اثنان أهل الأرض، ذو علم بلا ۞ دين وآخر دين لا علم له

وقد أخطأ المعري حين حصر كل الناس في هذين الفريقين، ولم يعلم أن العلماء العاملين بشريعة الإسلام يجمعون بين الدين والعلم، لأن الدين (العبادة والعقيدة والأخلاق) لا يصح إلا بالعلم تصورا وممارسة؛ وهذه خاصية الإسلام الكبرى إذ يدل المسلم على المسجد، لا ليعبد الله ويصلي فقط، بل ليتعلم العلم الصحيح النافع ويجعله رسالته في الحياة كذلك، فيكون دينه وتدينه مؤسسين على العلم.

وكان على المؤلف أن يستحضر هذا البيت الدال :

إِنَّ الَّذِي حَارَتْ البَرِيَّةُ فِيهِ ۞ حَيَوَانٌ مُسْتَحْدَثٌ مِنْ تُرَابِ

ولو أن المعري فتح عينيه على هؤلاء العلماء العاملين، وما أكثرهم في تاريخ الإسلام، لكان قد بدل رأيه!

ومن ثم فقد كان على أركون الذي استشهد ببيت المعري أن يغير رأيه أيضا، ليكون منصفا، فالدنيا ليس فيها إلا من لا يجمع بين الدين والعلم. وقد تحدث قبل قليل عن علماء الفيزياء والكيمياء والطب المسلمين الذين سماهم أصوليين، واندهش لجمعهم بين الدين والعلم، بل اندهش في الحقيقة، لاستدلالهم بالاكتشافات العلمية الحديثة على صحة الدين.

إن المفكر الفرنسي ڤولتير الذي يستند أركون إلى مبادئه ومبادئ أمثاله في الحديث عن التسامح، والذي يعتبره الحداثيون من كبار فلاسفة الأنوار أو التنوير الداعين إلى التسامح، هو في الحقيقة من كبار المتعصبين الذين أعمى الحقد والتعصب نور عقولهم. وإلا بماذا نفسر كتاباته الحاقدة العنيفة ضد النبي ﷺ

والإسلام[1]. فهو من أبرز الذين أذكوا نار التعصب الديني واللاديني في نفس الوقت، وأثاروا الجماهير الأوروبية ضد الإسلام، وقدموا صورا مشوهة عن نبيه ورسالته. فأين التسامح في كل هذا الحقد والتعصب الأعمى؟!

في حين أنه بلغ من تسامح الرسول ﷺ أنه كان يعود يهوديا كان مريضا وجارا له؛ وقام ذات مرة لجنازة فلما قيل له إنها جنازة يهودي قال: «أوليست نفسا؟!» وفي رواية قال: «قمت لآدميته». ويمكن الرجوع هنا إلى أول معاهدة أبرمها النبي ﷺ مع اليهود عندما هاجر إلى المدينة[2].

أليس هذا منتهى التسامح على الرغم مما كان عليه اليهود من العداوة والمكر للمسلمين؟!

وقال المؤلف إن المسلمين «يسكتون عن القمع الصريح والدائم للحرية الدينية في أرض الإسلام، أو أنهم يقللون من أهمية هذا القمع، أو يبررونه بحجة «حماية» الحقوق المهددة لـ «لدين الحق»...[3].

وكان الأحرى به أن يسمي تلك الحرية التي يدافع عنها ويشكو حالها «بالحرية اللادينية» وليس «الحرية الدينية». لأنها نزعة يريد أصحابها التحرر المزعوم من كل دين وخلق، وهم بذلك يسعون إلى إضفاء الشرعية على «الردة» وعلى «الإلحاد» وعلى «الهرطقة». قال تعالى: ﴿وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾[4]. وهذا ما لا يقبله الإسلام والمسلمون وإن تذرع أصحابه بدعوى الحرية، ورفع القمع المزعوم، وحماية حقوق الإنسان.

---

1. هو ماري أرواي فولتير (1694-1778م) من المفكرين الفرنسيين تثقف في الفلسفة المادية وقاوم رجال السلطة الدينية والمدنية ونقدهم بقلمه اللاذع. كتب في الشعر والتاريخ والمسرح والمراسلة والفلسفة. من مؤلفاته: المحاورات الفلسفية ـ كنديد ـ زئير ـ محمد ـ شارل 12. ينظر ما كتبه عن النبي ﷺ، ليعلم مدى تعصبه وحقده.
2. المنهاج الإسلامي في التربية على حقوق الإنسان ـ مرجع سابق ـ ص 15 ـ 21.
3. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص 229.
4. سورة البقرة: 25/2.

إن المسلمين على نور من ربهم، فهم فعلا على «الدين الحق»، ومن واجبهم أن يحموه من النزعات الإلحادية، والدعوات الهدامة، والتيارات المضادة للدين، وهي تتدثر بدعاوى عصرية مستوردة كـ«الدفاع عن حقوق الإنسان» و«الحرية الدينية» و«التسامح» و«نبذ التعصب». إن حكم الإسلام في الردة واضح، وتشجيعه للتسامح غير المخل بشروط حماية الأمن العقدي للأمة واضح أيضا، فليس التسامح أن يسمح للملاحدة أعداء الدين بنشر سمومهم كيف شاءوا، أو بالطعن في الدين كيف حلا لهم، أو بإعلان ارتدادهم عنه متى أرادوا ذلك وإلا فإن الإسلام لا تقوم له قائمة في أرض تستباح فيها حقوقه ولا تحمى فيها حوزته، ويترك المجال فيها نهبا لأعداء الدين، الذين يريدون أن ينسلخ المسلمون من عقيدتهم التي لا نجاة لهم إلا بالإيمان بها، وأن يتخلوا عن شريعتهم التي لا صلاح لهم إلا باتباعها، ليمكنوا للفكر الغربي الغازي الذي لا يقيم للدين والحقيقة والأخلاق والآخرة وزنا. كل ذلك تحت غطاء شعارات مزيفة كـ«الحرية الدينية» وما إليها.

البـــاب الـــرابـع

- **الفصل الأول : بـراهين العقيدة الصحيحة**
  1. المدرسة الأشعرية
  2. اتباع العلماء أهل الذكر واجب
  3. الحوار والتسامح والحرية الفكرية في الإسلام
  4. السياسة الشرعية
  5. من أدلة مبدأ التسامح في الإسلام
  6. الحرية وزعم التحرر
  7. اتباع الوحي في العقائد لا الفلسفة
- **الفصل الثاني : الخطاب القرآني: البيان والبرهان**
  1. البراهين القرآنية
  2. القلب والعقل
  3. ابن رشد والغزالي
- **الفصل الثالث : التحريف المنهج**
  1. دَيْدَنُ الاستشراق
  2. مناهج مستوردة من أجل التَّضليل

الفصل الأول
براهين العقيدة الصحيحة

1. المدرسة الأشعرية:

ينسب أرگون إلى الإمام أبي الحسن الأشعري أنه يقول: «بأن الله خلق كل شيء، العدل والظلم، الخير والشر، مستدركا بأن الظلم أو الشر قد فعلا عبر شخص آخر غيره، فإن ذلك يعني تقييدا للفعل الإنساني، يعني أن الإنسان غير مسؤول حتى عن أعماله»[1].

ويعتبر أرگون هذا هزيمة للعقل البشري أو تراجعه عن حقه في التوصل إلى حرية الاختيار والإرادة، بمعنى أن الله هو الذي يفعل والإنسان ليس إلا منفذا لا إراديا»[2].

لقد تسربت الأفكار اليهودية والمسيحية إلى بعض مفكري الإسلام عن طريق الحوار والتدريس والاحتكاك ومن هذه الأفكار ما رددته الجهمية من أن الإنسان مجبور تماما على فعل أفعاله، وما رددته المعتزلة من أن الإنسان يفعل الأفعال باختياره ويخلقها بقدرته. وهذان المذهبان في القدر هما نفس مذهبي كل من الأبقوريين القائلين بحرية الإرادة والرواقيين القائلين بأن الإنسان مسير لا مخير. وأرگون ينتقد العقيدة الأشعرية. فكيف دافع أبو الحسن الأشعري عن هذه العقيدة التي اعتبرت مذهب أهل السنة والجماعة؟

يعتبر أرگون أن عقيدة أبي الحسن الأشعري غير صالحة للأزمان التي أتت بعد زمانه[3].

---

1. قضايا في نقد العقل الديني - ص 237.
2. نفسه، ص 237.
3. قضايا في نقد العقل الديني - ص 237.

والحقيقة أنه قد بلغ من صلاحية هذه العقيدة أن كانت ولا تزال عقيدة السواد الأعظم من المسلمين، لوسطيتها، والتزامها بالكتاب والسنة، ووضوحها، واحترامها للعقل، وانضباطها بالنقل، فهي عقيدة أهل السنة والجماعة على مر العصور.

قال الإمام تاج الدين السبكي: «اعلم أن أبا الحسن لم يبدع رأيا ولم ينشئ مذهبا، وإنما هو مقرر لمذاهب السلف، مناضل عما كانت عليه صحابة رسول الله. فالانتساب إليه إنما هو باعتبار أنه عقد على طريق السلف نطاقا وتمسك به وأقام الحجج والبراهين عليه فصار المقتدي به في ذلك السالك سبيله في الدلائل يسمى أشعريا»[1]. وأضاف السبكي رحمه الله: «وقد ذكر سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام أن عقيدته ـ أي الأشعري ـ اجتمع عليها الشافعية والمالكية والحنفية وفضلاء الحنابلة، ووافقه على ذلك من أهل عصره شيخ المالكية في زمانه أبوعمرو بن الحاجب، وشيخ الحنفية جمال الدين الحصيري» وقال الحافظ أبو بكر البيهقي رحمه الله ـ وهو من الطبقة الثالثة من أتباع الإمام الأشعري: «..إلى أن بلغت النوبة إلى شيخنا أبي الحسن الأشعري رحمه الله فلم يحدث في دين الله حدثا، ولم يأت فيه ببدعة، بل أخذ أقاويل الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة في أصول الدين فنصرها بزيادة شرح وتبيين، وأن ما قالوا وجاء به الشرع في الأصول صحيح في العقول، بخلاف ما زعم أهل الأهواء من أن بعضه لا يستقيم في الآراء. فكان في بيانه تقوية مالم يدل عليه من أهل السنة والجماعة، ونصرة أقاويل من مضى من الأئمة كأبي حنيفة وسفيان الثوري من أهل الكوفة، والأوزاعي وغيره من أهل الشام، ومالك والشافعي من أهل الحرمين، ومن نحا نحوهما من الحجاز وغيرها من سائر البلاد، وكأحمد بن حنبل وغيره من أهل الحديث، والليث بن سعد وغيره وأبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري وأبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري إمامي أهل الآثار وحفاظ السنن التي عليها مدار الشرع رضي الله عنهم أجمعين»[2].

1. طبقات الشافعية الكبرى، 365/3.
2. نفسه، 397/3.

وقد قدم الدكتور جمال علال البختي نبذة تاريخية عن تطور المذهب الأشعري حيث بين أن الفكر الأشعري تأسس في المشرق «بين أحضان المدرستين الاعتزالية والسلفية، وكان أبو الحسن الأشعري (324 هـ/ 939 م) ـ الذي يعتبره جل الباحثين رائد المدرسة الأشعرية ـ قد تربى في وسط اعتزالي في بادئ الأمر، ولكن ظروفا تاريخية ونفسية وفكرية دفعته إلى الانقلاب على المعتزلة، وإلى القيام ـ في بداية تحوله ـ بتأسيس مدرسة كلامية تتوسط في منهجها وآرائها بين آراء ومنهج العقلانيين من جهة والنصيين من جهة أخرى.

وهكذا قام بإرساء قواعد مذهب كلامي جديد سمته المنهجية الانطلاق من النص الشرعي، ثم تعزيزه بالأدلة العقلية والبرهانية. وقد كان كتابه «اللمع» خير معبر عن تلك الوسطية التي طبعت المدرسة الأشعرية، بحيث صار ذلك المؤلف دستور المتكلمين السنيين من بعده، نسجوا على منواله وألفوا وفق قضاياه وأسلوبه. إلا أن الأشعري ما لبث أن تراجع حتى عن ذلك المذهب التوفيقي، ومال بصورة واضحة إلى الاتجاه السلفي في العقيدة، وأعلن انتماءه إلى مدرسة ابن حنبل واختار أن يموت على مذهبه، بدليل ما أعلنه في كتبه الأخيرة ككتاب «الإبانة» وكتاب «مقالات الإسلاميين»، وخصوصا في كتابه «رسالة إلى أهل الثغر».

أما المؤسس الحقيقي للاتجاه الأشعري ـ ذي الخواص المعروفة والتوجه العقلي المشهور والمنهجية التأليفية الخاصة ـ فهو أبو بكر الباقلاني (ت :403هـ/ 950م)، الذي شهد الاتجاه الأشعري على يده تطورا كبيرا بعد أن وضع له المقدمات النظرية وأسس قواعده ورتب مباحثه، في كتبه الكثيرة التي من أهمها كتاب «الإنصاف» و«التمهيد» وغيرهما.

كما كان للبغدادي (ت :429هـ/ 1307 م) ـ صاحب كتاب «الفرق بين الفرق»، وكتاب «أصول الدين» وغيرهما ـ، ولابن فورك (ت :406 هـ/ 1015م)، وللإسفراييني (ت :418 هـ/ 1027م)، مؤلف كتاب «التبصير في الدين»، ـ وغيرهم دور كبير في الدفاع عن هذا المذهب وفي التأريخ لقضاياه، وتطوير أساليبه وتوسيع مباحثه، وتعزيز أدلته.

إلا أن الفكر الأشعري لم يعرف التطور المنهجي الحاسم والنوعي إلا على يد أبي المعالي الجويني (ت: 478 هـ/ 1085م) ـ مؤلف «الإرشاد» و«الشامل» و«اللمع» وغيرها من كتب العقيدة ـ وتلميذه الغزالي (ت: 505 هـ/ 1111م) ـ صاحب «الاقتصاد» و«التهافت» وغيرهما من المؤلفات الكلامية والفلسفية ـ اللذين قفزا بالمذهب إلى طور جديد اعتمد فيه الأشاعرة المنطق اليوناني أساسا، واستعملوا الأساليب العقلية والفلسفية بوضوح لإثبات قضايا العقيدة السنية، وقد كان للجويني ـ على المستوى النظري ـ وللغزالي ـ على المستوى التطبيقي ـ الفضل في إلغاء القاعدة المنهجية التي تحكمت في الفكر الأشعري قبلهما، وهي أن «بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول»، فقاما بمراجعة هذه القاعدة وأصدرا حكمهما بعدم صحتها، وبالتالي كان لعملهما ـ في تغيير المنهج الكلامي الأشعري، بالإضافة إلى مجهودات الشهرستاني (ت :548هـ/ 1153م) في نفس الخط ـ بالغ الأثر في الدفع بهذه المدرسة إلى تصدر المذاهب الكلامية والسيطرة الشاملة على الساحة الفكرية والكلامية بالعالم الإسلامي...»[1].

وفيما يتعلق بحديث أركون عن قول الأشعري بصدد قدرة الله المطلقة، فإن ما جاء في كتاب «الإبانة في أصول الديانة» هو ما يلي: «نثبت أن لله قوة كما قال: ﴿أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة﴾[2]، ونقول إن كلام الله غير مخلوق وإنه سبحانه لم يخلق شيئا إلا قال له: كن، كما قال: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾[3]، وإنه لا يكون في الأرض شيء من خير أو شر إلا ما شاء الله، وإن الأشياء تكون بمشيئة الله عز وجل، وإن أحدا لا يستطيع أن يفعل شيئا قبل أن يفعله، ولا يستغني عن الله ولا يقدر على الخروج من علم الله عز وجل، وإنه لا خالق إلا الله وإن أعمال العباد مخلوقة لله

1. عثمان السلاجي ومذهبيته الأشعرية، دراسة لجانب من الفكر الكلامي بالمغرب من خلال "البرهانية" وشروحها ـ د. جمال علال البختي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ المغرب ـ دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى 1426هـ/ 2005م، ص 23 ـ 25.
2. سورة فصلت: 15/41.
3. سورة النحل: 40/16.

مقدرة كما قال سبحانه: ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾[1][2]». ويوضح الإمام الجويني مقصود الإمام أبي الحسن الأشعري هنا بقوله: «كل مقدور لقادر، فالله تعالى قادر عليه وهو مخترعه ومنشئه»[3]

2. اتباع العلماء أهل الذكر واجب:

قال المؤلف: «ضمن هذا الغموض أو الالتباس يحصل المرور المقنع أو المتنكر من المستوى الديني العالي بصفته رعشة روحية أو اتصالا بما هو إلهي، إلى مستوى الأيديولوجيا بصفتها تقنيعا للواقع تحت ألبسة التعالي، والتنزيه والروحانية، والأنطولوجيا، والتقديس وهكذا يؤدلج الدين أدلجة حقيقية... إن عدم قدرة الناس على التمييز بين هذين المستويين من الدين هو الذي يجعلهم يتبعون بشكل أعمى رجال الدين باعتبار أن كلامهم يمثل كلام الله، وبالتالي عصيانهم عصيان لله!... وقد سيطر هذا الوهم الكبير على البشرية المسيحية والإسلامية طيلة قرون وقرون. بل ولا يزال مسيطرا في الناحية الإسلامية حتى الآن بسبب التخلف التاريخي الذي يعاني منه المسلمون على كافة المستويات، أما البشرية الأوروبية فقد تخلصت منه منذ عصر التنوير والقرن التاسع عشر»[4].

يكمن خطأ المؤلف في اعتباره طاعة العلماء (الذين هم أولو الأمر إلى جانب الأمراء أو الخلفاء) في ما يوضحونه من الشرائع، ويدلون عليه من الأحكام، ويبينونه للناس من أمور دينهم، اتباعا أعمى. والحق أنه اتباع عن بصيرة لأن الله تعالى أمر المؤمنين باتباع العلماء في ما يرضيه سبحانه. فقال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾[5].

---

1. سورة الصافات: 96/37.
2. الإبانة عن أصول الديانة، دار الأنصار ـ القاهرة، الطبعة الأولى ـ 1397هـ، تحقيق فوزية توفيق محمود، ج 1، ص 23.
3. كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت، الطبعة الثالثة، 1416 هـ/ 1996م. تحقيق أسعد تميم، ص 173.
4. نفسه، ص 238.
5. سورة النساء: 59/4.

قال كثير من المفسرين إن المراد بأولي الأمر هنا العلماء. وقال النبي ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر»[1]. وقال: «من سئل عن علم علمه ثم كتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار»[2]، وقال: «بلغوا عني ولو آية...»[3].

قال الله تعالى: ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين ﴾[4]، وقال: ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به. ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم. ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا ﴾[5]. فهؤلاء العلماء الذين يستنبطون الأحكام الشرعية، ويفتون الناس بحكم الله في ما يستفتونهم فيه من قضايا هم وحوادثهم المتجددة، هم موقعون عن الله تعالى كما نبه إلى ذلك الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله في كتابه «إعلام الموقعين عن رب العالمين».

فالعلماء الراسخون العاملون بعلمهم الذين يفتون الناس عن بصيرة، هم أهل للفتوى، ومن واجب المسلم أن يطيعهم ويقبل فتواهم وحكمهم لأنهم على الطريق المستقيم علما وعملا ـ وهم أولو الألباب والبصائر ـ. وإلا تصدى للفتوى الجهال، فضلوا وأضلوا. وقد قال النبي ﷺ: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين»[6].

---

1. أخرجه ابن حجر في فتح الباري 337/8 والمتقي الهندي في كنز العمال رقم 28679 والقرطبي في تفسيره 41/4.
2. أخرجه الإمام أحمد في المسند 6263/2، 305 في مسند أبي هريرة، وأبو داود في السنن 4 / 67 ـ 68، كتاب العلم باب كراهية منع العلم (9). الحديث 3658، والترمذي في السنن 29/15 وقال «حديث حسن».
3. أخرجه البخاري في صحيحه 496/6 كتاب أحاديث الأنبياء 60 الحديث 3461.
4. سورة المائدة: 92/5.
5. سورة النساء: 83/4.
6. أخرجه البخاري في الصحيح 164/1 الحديث 71 ومسلم في الصحيح 718/2 الحديث 1037/98 وهو من الأحاديث المتفق عليها.

وقال: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رءوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»[1]. وقال: «لأن يهدي الله بك رجلا خير لك من حمر النعم»[2].

فاتباع هؤلاء الهداة العلماء ليس اتباعا أعمى، بل هو بأمر من الله سبحانه، وعلى سنة رسول الله ﷺ، إذ هم ورثته، وحاملو رسالته من بعده. وإنما الاتباع الأعمى يكون من العمي ـ بصيرة وفكرا ـ لعمي أمثالهم.

3. الحوار والتسامح والحرية الفكرية في الإسلام:

ويعتقد أركون بأن مفهوم التسامح الديني ظهر لأول مرة ضمن السياق التاريخي للثورة العقلية والسياسية الأوروبية [3].

وقال إن حقوق الإنسان التي أعلنتها الثورة الفرنسية هي مستقلة تماما عن حقوق الله بمعنى أن لكل إنسان الحقوق ذاتها بصفته إنسانا فقط، أي بغض النظر عن دينه أو مذهبه أو عرقه أو أصله وفصله. هذا في حين أن الإنسان الوحيد الذي كان يتمتع بكافة الحقوق في العصور اللاهوتية القديمة كان هو الإنسان المسلم في المجتمع الإسلامي..[4] بمعنى أن المؤلف يتهم الإسلام بعدم احترام حقوق الأقليات الدينية أو العرقية أو غيرها. وهذا غير صحيح. بل التاريخ يفند مزاعم أركون.

وكان عليه أن يعلم أن الإسلام أقام علاقة طيبة مع أهل الذمة والذمي هو غير المسلم الذي يقيم مع المسلمين في ديارهم بمقتضى عقد يعقده معهم، وهو عقد أبدي يسري عليه وعلى ذريته من بعده وبه يصبح له ما للمسلمين وعليه ما عليهم. وقد أحاط الإسلام هذه الفئة من الناس بعناية فائقة، ونظر إليهم المسلمون نظرة احترام وتقدير في كل ما يتعلق بشؤونهم ويتمثل ذلك في الوفاء

1. أخرجه البخاري.
2. أخرجه البخاري في الصحيح باب فضائل الصحابة الحديث 34. 58/4، 73، 123/5، 171.
3. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص 240.
4. نفسه، ص 241.

لهم بالعهد، واحترام ديانتهم وأنفسهم وأعراضهم وأموالهم. حصل هذا قبل الثورة الفرنسية وما يسمى بعصر التنوير بقرون عديدة.

«وسمة التسامح في الإسلام لا يمكن أن يدرك عمقها ومستواها إلا إذا أعيدت إلى سياقها التاريخي الذي تمت فيه، وهو سياق انعدم فيه أي حديث عن التسامح وأي مناداة بحقوق الآخرين في الاستمتاع بحرياتهم الدينية وبالعيش على النمط الذي يختارونه لأنفسهم.

ومن هذه الزاوية يجب أن ينظر إلى الحضارة الإسلامية لا على أنها مجرد حضارة تؤمن بالتسامح وتعيشه، وإنما يجب أن ينظر إليها على أنها الحضارة التي تفرّدت به في محيط عالمي كان يعيش ثقافة أخرى متناقضة.

وسمة التسامح في الحضارة الإسلامية لا يمكن أن تعرف قيمتها أيضا إلا حيثما توضع بإزاء وضع مخالف عاشته ثقافات أخرى تمكنت من التغلب في بعض فترات التاريخ على بعض المناطق التي حكمها المسلمون، فاتجهت في إصرار عجيب وإجماع مجتمعي مطلق على تنفيذ سياسة الاستئصال الديني والعرقي والاقتلاع الحضاري، فرفضت أن يعايشها من لا يؤمن بعقيدتها فضلا عن أن تكون له حقوق في ظلها، وعملت على طمس كل أثر مادّي أو علمي يشهد للمستوى المعرفي والفني الذي بلغته الحضارة الإسلامية زمن تألقها»[1].

فما أجهل الكتاب الحداثيين بدين الإسلام وبشريعته وتاريخه!

وقال المؤلف إن الإسلام ـ كبقية الأديان السماوية ـ يزعم أنه يحتكر الحقيقة الصحيحة أو المطلقة وحده باستثناء الدينين الآخرين [2] وهذا في الحقيقة ليس زعما بل هو الحق الواضح لكل منصف إذا أخذنا بعين الاعتبار أن المقصود بالدينين الآخرين هنا اليهودية والمسيحية المحرفتان. فمن طبيعة الحال الاعتراف بأن الإسلام وحده الدين الحق، بينما دخل على غيره من الأديان من التحريف

1. التأصيل الشرعي للتعامل مع غير المسلمين، مصطفى بن حمزة منشورات مجلة «المجلس» التي يصدرها المجلس العلمي الأعلى الطبعة الأولى 1431هـ/ 2010م ـ ص 101-102.
2. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص 243.

والتشويه والتبديل ما ألقى به في دائرة الضلال والشرك والفساد. نقول هذا مع الإشارة إلى وجوب استبدال كلمة «يحمل» بكلمة «يحتكر» قال الله تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾[1]. وقال: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه. وهو في الآخرة من الخاسرين﴾[2].

ويزعم أركون أن «التسامح» كلمة مشتقة حديثة العهد في اللغة العربية، ليوهم قارئه بأن الإسلام لم يعرف التسامح ولم يدع إليه. والواقع أن القاموس الإسلامي غني بالمصطلحات الدالة على معاني التسامح ابتداء من «العفو» و«البر» إلى «الحوار» و«التحاور» و«الصفح»... فليست العبرة بالألفاظ وإنما بالمعاني والدلالات.

إن الإسلام لا يمنع حرية التعبير عن الآراء. ويمكن الرجوع هنا إلى كتب الملل والنحل، والمناظرات بين المسلمين، وبينهم وبين أهل الأديان الأخرى، وأشكال الحوار، وازدهار الحرية الفكرية في العالم الإسلامي.. كل ذلك مما يدل على انتشار وسيادة مبدأ التسامح. ويمكن كذلك مراجعة هذه المؤلفات: «الحوار في القرآن: قواعده ـ أساليبه ـ معطياته» لمحمد حسين فضل الله[3] وكتاب «العقائد (أديان الشرق الأقصى ـ الأديان الكتابية ـ أشهر الفرق الإسلامية الحالية)» لعمر عنيات[4]. وكتاب «الفرق والمذاهب الإسلامية منذ البداية ـ النشأة ـ التاريخ ـ العقيدة ـ التوزيع الجغرافي» لسعد رستم [5] وكتاب «فضائل الحوار في القرآن الكريم»[6] لمولاي منير القادري البودشيشي. ونذكر مرة أخرى بأن التسامح لا يعني الفوضى ولا الحرية الفوضوية اللامسؤولة ولا التحلل من الدين الحق، ولا فتح الباب للإلحاد والمروق من الدين. فهذا ما لا يقبله الإسلام والمسلمون. قال الله

1. سورة آل عمران: 19/3.
2. سورة آل عمران: 85/3.
3. دار التعارف للمطبوعات، ط 5. 1407 / 1987.
4. صدر عن دار العصور للطبع والنشر ط 1928.
5. صدر عن دار الأوائل، سورية ط 1. 2004.
6. صدر باللغة الفرنسية عن دار الكرامة، وقام بنقله إلى اللغة العربية ذ. الصديق محمد بوعلام، ولم تنشر الترجمة بعد.

تعالى: ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى.. ﴾[1].

«ووجه التميّز بين الحضارة الإسلامية وغيرها أن الإنسان المسلم كان يجد دائما في النصوص الشرعية وفي الأحكام الفقهية ما يردعه ويمنعه من أن يعتدي على حقوق غير المسلمين وما يدينه إن هو اعتدى، بينما كان غير المسلم يجد السند القوي لعدوانه على المسلمين في المؤسسات القائمة، ومنها المؤسسة الدينية بل إنّ كثيرا من الأحكام كانت تصدر بين جنبات تلك المؤسسة وكانت تنفذ بأيدي رجالها وبمباركتهم»[2].

فماذا يريد أركون للمجتمعات الإسلامية؟

يريد لها تطبيق مفهوم «التسامح» كما هو في الأنظمة الديمقراطية المتقدمة لأوروبا الغربية. قال: «فإن القانون الخاص بالتجديف والكفر أو جريمة انتهاك المحرمات قد حذف من دساتيرها أو أبطل بكل بساطة. لم يعد أي كاتب يدان بتهمة الكفر، وذلك لأن الإيمان أصبح مسألة شخصية»[3]. هذا ما يريده دعاة العلمانية في بلاد الإسلام!

ويدعو المؤلف ـ على غرار أساتذته الغربيين ـ إلى تنقية البرامج المدرسية للتعليم الديني الإسلامي مما يسميه الإيمان المتعصب الظلامي[4].

يقع كثير من الحداثيين في خلط ولبس كبيرين عندما يتحدثون عن هذا الذي يريدون تحقيقه ويحاولون الدفاع عن مرادهم بهذه الآية التي لا تدل على مقصودهم، وهي قوله تعالى: ﴿ لا إكراه في الدين. قد تبين الرشد من الغي ﴾[5].

ولكي نزيل الالتباس حول فهم هذه الآية الكريمة، نقول إنها أول إعلان عالمي عن حق الإنسان في اختيار العقيدة التي يؤمن بها، وأول إعلان كذلك عن احترام عقل الإنسان وإرادته. لكنه بمجرد أن يختار دين الإسلام عن اقتناع يصبح واحدا من الأمة المسلمة ولا يجوز له الارتداد عن دينه.

---

1. سورة الزمر: 7/39.
2. التأصيل الشرعي للتعامل مع غير المسلمين، مرجع سابق ص 103.
3. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص 245.
4. نفسه، ص 246.
5. سورة البقرة: 256/2.

4. السياسة الشرعية:

ويندب المؤلف حظ الإيديولوجيات المعاصرة في العالم الإسلامي قائلا: «وأما في العالم الإسلامي أو العربي، فلم تستطع أية أيديولوجيات حديثة أن تصبح دينا جماهيريا على الرغم من بعض المحاولات والنجاحات الجزئية في الخمسينيات والستينيات. وذلك لأن الدين التقليدي (أي الإسلام) لا يزال هو المسيطر، ولم يتعرض للنقد التاريخي الذي تعرضت له المسيحية في الغرب»[1].

والحقيقة أن في هذا الصمود الذي سجله أركون للإسلام أمام مختلف التيارات الأديولوجية لعبرة لكل معتبر! ولن يجدي النقد التاريخي شيئا في زحزحة الإسلام عن إقناع العقول ونشر النور. لأنه دين رب العالمين الذي لا تبديل لكلماته.

وحاول المؤلف إضفاء العلمية على العلمنة بتمييزه بين الوظيفة الروحية للدين والتي يعتبرها وظيفته الأساسية (المعنى الروحي المنزه والمتعالي) وبين الدين بتركيباته اللاهوتية ـ الرسمية، أي كمؤسسة متضامنة مع السلطة[2]، أو المعنى القانوني، الرسمي، السلطوي، أو الذي يخلع المشروعية على السلطات السياسية[3].

والواقع أن الفصل بين الجانبين الروحي والتشريعي، وإبعاد الجانب الثاني عن الحياة، وقصر مفهوم الدين على الجانب الأول هو بدعة العلمانية الكبرى وهي بدعة يرفضها الإسلام بطبيعته لأنه دين إلهي جامع بين الدين والدنيا، بين الروح والمادة، بين المسجد والحكم كما ذكرنا سابقا.

لقد أقام القرآن الكريم للناس شريعة هي معجزة الشرائع ولاتزال المنهل العظيم الذي لابد للعالم أن يستقي من ينابيعه نظما للحكم سوية وقواعد للسلم عالية.

---

1. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص 236.
2. نفسه، ص 237.
3. نفسه، ص 237. 1. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص 230.

ولذا كان لابد للإسلام أن يقر دستورا قيما وشرعة باهرة لانتظام حياة الأمم والشعوب في سياسة الحكم والعلاقات الأممية إلى جانب الشرعة الأخلاقية والاجتماعية القاضية بتنظيم حياة المجتمع البشري كله.

وكان لابد لنشر رسالة الإسلام من قيام حكم سياسي نظامي ملأ ثلاثة أرباع المعمور بشرعته عدلا وعلما. وبهر ممالك الغرب والشرق بديبلوماسيته نظاما وانتظاما خلال عشرة قرون تامة منذ بزوغ الإسلام. وقد ذكر الماوردي في كتابه «الأحكام السلطانية» العدالة الجامعة وجعل صفات أهل الإمامة أو الرئاسة للسلطة الحاكمة وهذه شروطها الجامعة:

1. العدالة الجامعة لشروطها وتعني التحلي بالفرائض والفضائل والتخلي عن المعاصي والرذائل.
2. العلم بالدين وبمصالح الأمة وسياستها الدنيوية.
3. الرأي والحكمة المؤديان إلى اختيار من هو للإمامة أصلح وبتدبير المصالح أعلم.
4. العلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام.
5. سلامة الحواس والأعضاء.
6. الرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح.
7. الشجاعة والنجدة المؤدية إلى حماية البيضة وجهاد العدو.
8. النسب لورود النص فيه.

5. من أدلة مبدأ التسامح في الإسلام:

ويدعي أركون أن الإسلام لم يكن يعرف التسامح وأن هذه المسألة حديثة العهد في تاريخه[1]. كما يدعي أنه ليست هناك كتب أو (قوانين) تنص على هذه المسألة[2].

وإليك هذه النصوص القرآنية والحديثية التي نصت على مبدأ التسامح في الإسلام:

---

1. نفسه، ص 230.
2. نفسه، ص 230.

1. من القرآن الكريم:

قوله تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم. إن الله يحب المقسطين﴾[1]

وقوله تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن. فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم. وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾[2].

وقوله عز وجل: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله. لا نفرق بين أحد من رسله﴾[3]

وقوله سبحانه: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن. إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿لا إكراه في الدين﴾[5] وقوله: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾[6]. وقوله سبحانه: ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان﴾[7].

---

1. سورة الممتحنة: 8/60.
2. سورة فصلت: 41/ 24 ـ 25.
3. سورة البقرة: 285/2.
4. سورة النحل: 125/16.
5. سورة البقرة: 256/2.
6. سورة العنكبوت: 46/29.
7. سورة المائدة: 5/5.

2. الحديث النبوي:

وأما الأحاديث النبوية الدالة على أن الإسلام دين التسامح فنذكر منها ما رواه ابن عباس أن النبي ﷺ سئل فقيل له: أي الأديان أحب إلى الله؟ فكان جواب المصطفى ﷺ «الحنيفية السمحة». أي دين التوحيد، دين السماحة واليسر. ومنها حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أفضل المؤمنين رجل سمح البيع، سمح الشراء، سمح القضاء، سمح الاقتضاء»[1].

وروى ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، قال: «ألا أخبركم بمن يحرم على النار أو من تحرم النار عليه؟! قال: «كل قريب هين لين». وهذه صفات عباد الله السمحاء فالإسلام دعا إلى السماحة مع القريب والبعيد، المسلم وغير المسلم. ولا شك أنَّ هذا الخلق كان سبب دخول كثير من الأعاجم في الإسلام أفواجا بعد ما لمسوه من المسلمين في تعاملهم معهم. ولا يعني التسامح التنازل أو الحياد تجاه المخالف في العقيدة، بل هو احترام متبادل واعتراف بحقوقه.

تفاخر صفوان بن أمية مع رجل، فقال صفوان: أنا صفوان بن أمية بخ بخ.

فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: ويلك إن كان لك دين فإن لك حسبا، وإن كان لك عقل فإن لك أصلا، وإن كان لك خلق فإن لك مروءة، وإلا فأنت شر من حمار»[2].

يتبين من خلال النصوص السابقة، ومن خلال تنزيلها في واقع التاريخ الإسلامي، أن مسألة التسامح كانت ولا تزال في إطار «المفكر فيه» ولا تدخل في ما سماه المؤلف بـ«اللامفكر فيه» أو ما يستحيل التفكير فيه في النطاق الإسلامي[3].

ويدعي أركون ـ إضافة إلى هذا ـ أن هناك مسائل عديدة أخرى يستحيل التفكير فيها في النطاق الإسلامي ويمكننا أن نقول عن هذه المسائل إنها مما نظر

---

1. أخرجه الطبراني في معجمه الأوسط ورجاله ثقات.
2. الدين والعقل والخلق، في "العقد الفريد" لابن عبد ربه 247.
3. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص 230.

فيه علماء الإسلام، وبينوا وجه الحق والباطل فيه، وحذروا المسلمين من مغبة مفاسد النظر في تلك المسائل. وهذا ليس منعاً للتفكير وإنما هو توجيه وترشيد للتفكير. فالمسلم يعرف الحق من كتاب ربه وسنة نبيه، وهو مأمور بألا يقتفي ما ليس له به علم، وبألا يتبع الشبهات والظنون، وما لا دليل عليه. ولذلك فإنه بقدر ما يتوقى تلك المفاسد بقدر ما يكرس جهوده الذهنية للاجتهاد في ما ينفعه وينفع أمته. وأما ما حذر منه الشارع الحكيم، وبين خطره، فما الفائدة من وراء شغل الذهن والوقت به؟! اللهم إلا على سبيل التحذير منه، وبيان مضاره ومفاسده كما هو حال المذاهب الهدامة، والتيارات الفاسدة، والشبهات المضللة...

إن حرية الفكر في الإسلام تتنافى مع اتباع الأباطيل والشبهات، بل إن تلك الحرية هي نفسها دليل المسلم إلى الطريق المستقيم السليم في الفكر، الطريق الذي يجنبه الخوض في ما يضره ولا ينفعه أصلا.

ويصنف د. الحسن العباقي المواضيع التي تؤرق أركون في هذا الصدد إلى صنفين: «الأول ـ مواضيع أشبعت بحثا في كتب التراث، وإن كانت لا تزال حبلى بالقضايا الخلافية المنتظرة لمزيد من البحث والتدقيق، أما مصادرها فهي تستعصي على العد، ومنها كل ما يتعلق بالقرآن الكريم كقضية التدوين، والجمع، والحفظ، وموقع الثابت والمتغير من التشريع، ثم مسألة الوحي، وقضية خلق القرآن وما راج عنها. من دون إهمال تاريخ علوم الحديث دراية ورواية وغيرها. فمع أن مظان هذه المواضيع تعد بالمئات إن لم تكن بالآلاف، يعدها أركون من باب غير المفكر فيه، ويدعي أنها لم تمس إلا مسا خفيفا!

طبعا الأمر ليس على هذه البساطة وأركون لا يتجاهل ذلك الكم الهائل من المؤلفات التي تناولت هذه المواضيع بالدراسة، إنه يتحدث عن التناول الإشكالي، أي ما يصطلح عليه عملية الأشكلة، ويعرفها بقوله: «أقصد بالأشكلة جعل الأشياء إشكالية أو التشكيك في بدهيتها وصحتها»[1]. فكل ما قيل عن تلك المواضيع لاثقة به عنده، وكأنها لم تزل عذارى، لم تخدش أقلام العلماء عبر تلك القرون المتطاولة عذريتها»[2].

1. الفكر الإسلامي ـ نقد واجتهاد، ص 199.
2. القرآن الكريم والقراءات الحداثية ـ مرجع سابق، ص 39-40.

ولو شاء باحث أن يعرف قيمة التسامح في الإسلام فعليه أن يقرأ ما سنه هذا الدين الحنيف في أدب الحرب.

إن الإسلام عندما أقر الحرب ودعا إليها كوسيلة لرد الظلم والعدوان، وإقرار الأمن والسلام، والتمكين لدعوة الحق، وإتمام نورها، وحماية من آمن بها، وحمل لواءها، قد أحاطها بالتشريع الذي يحقق هدفها ويمكن من الوصول إلى الغاية منها، أي نصر الحق وخذلان الباطل؛ فكما أرشد الإسلام إلى إعداد القوة المادية أرشد إلى عناصر أخرى هي ما عبر عنه بأدب الحرب، وهو جانب لا يقل أهمية وفعالية عن القوة المادية في الوصول إلى النصر. وهذه سنة المصطفى ﷺ ومن سار على نهجه تؤكد ذلك. وقد حقق صلاح الدين الأيوبي رحمه الله الانتصارات لجيوش المسلمين بالإيمان والانضباط والقوة المادية ولكن كذلك بأدب الحرب حتى غدا مثلا يضرب في ذلك.

قال الله تعالى: ﴿ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون﴾[1].

إن التسامح في الإسلام داخلي وخارجي. أي أن الإسلام يعلم المسلمين التسامح فيما بينهم[2]، وفيما بينهم وبين غيرهم من الملل والنحل، ذلك أنه دين الحوار، والمناظرة، والحجة واحترام الرأي الآخر، لكن في حدود احترام الحقيقة، والإنصاف والنزاهة، وطلب الحق، وابتغاء الحكمة، وعدم الإخلال بأي قاعدة من قواعد العقيدة والشريعة، مما هو معلوم من الدين بالضرورة، قال تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم من ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾[3]. وأما التسامح بمعنى قبول الباطل، والتنازل عن الحق، أو السماح بنشر العقائد والمبادئ المنحرفة، فهذا شيء لا يقبله ديننا، لأنه دين جاء من أجل البناء لا الهدم، ومن أجل الإصلاح لا الإفساد. فإذا كان الخصم مستعدا لقبول الحقيقة بعد الاقتناع بها

1. سورة الأنفال: 8/ 7ـ8.
2. ينظر تاريخ المذاهب الإسلامية مثلا وأقوال أئمتها في بعضهم البعض.
3. سورة النحل: 125/16.

تسامحنا معه في حدود المعقول، وأما إذا كان مصرا على إفساد عقائد الناس مهما أبدينا له من حجج تنقض أقواله وتفندها، فلا ينفع معه تسامح ولا حوار، ما دام لا يقنعه إلا أن يرى المسلمين في مثل ضلاله وهذا هو القصد من وراء إطلاق شعارات مثل «الحرية الدينية» و«التسامح» وكأن الإسلام في حاجة إلى من يعلمه أبجدية هذه المبادئ التي احترمها ومارسها المسلمون على وجهها الصحيح قرونا طويلة. فقول الله تعالى: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها. والله سميع عليم﴾[1]، ليس فتحا لباب التضليل والتدجيل، وإنما هو احترام لعقل الإنسان إذ لا فائدة من دين يتبعه صاحبه دون أن يكون مقتنعا به، كما هو حال النصارى مثلا. ومع هذا يزعم المؤلف أن مسألة التسامح لم تطرح بشكل صحيح حتى داخل الإسلام نفسه![2] ويزعم أن في الإسلام تعصبا[3].

قال تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾[4].

6. الحرية وزعم التحرر:

قال أركون: «لا يستطيع المسلم المعاصر أن يتخيل ولو للحظة واحدة أنه يمكن فصل الدين عن السياسة، أو الجامع عن الدولة. هذه هي إحدى سمات اللامفكر فيه أو المستحيل التفكير فيه داخل الفكر الإسلامي أو العربي المعاصر». وهذه السمة تشكل عقبة حقيقية أمام الانتقال إلى الحداثة أو الدخول إلى جو الحداثة ومواجهة كل التحديات التي يطرحها العقل الحديث»[5].

ويسمي المؤلف هذا سياجا مغلقا.

---

1. سورة البقرة: 256/2.
2. قضايا في نقد العقل الديني - ص 231.
3. نفسه، ص 231.
4. سورة آل عمران: 64/3.
5. قضايا في نقد العقل الديني - ص 234.

نقول: بل يستطيع المسلم أن يفكر في ذلك ليتبين مدى خطورة فصل الدين عن الدولة، ومدى العواقب الوخيمة على النظام السياسي والاجتماعي، وعلى مكانة الدين الحق في حياة الناس العامة، وقبل ذلك وبعده، مدى أثر هذا الفصل في الابتعاد عن الله سبحانه، وبالتالي وقوع سخطه، وحلول عقابه، وتفاقم مشكلات المجتمع. لأن الفصل يعني إبعاد الكتاب والسنة عن تنظيم المجتمع ونظام الدولة، والحكم بغير ما أنزل الله. فالمسلم يستطيع أن يفكر في هذه المسألة ليتبين كل هذه المخاطر، ويعلم، في نفس الوقت، مدى حجية وصلاحية النظام السياسي الإسلامي الذي لا يفصل بين الدين والدولة بل يجعل الدين أساس الدولة، والدولة حامية للدين.

وينسب أركون العنف إلى الإسلام مثله مثل سائر الأديان قائلا: «العنف ـ التقديس ـ الحقيقة، هذه هي الأركان الثلاثة لكل تراث مشكَّل ومُشَكِّل للكينونة الجماعية، أو للوجود الجماعي على الأرض. ولا تخلو منها أمة من الأمم أو قبيلة من القبائل أو دين من الأديان. والجماعة مستعدة للعنف من أجل الدفاع عن حقيقتها المقدسة...»[1].

والحق أن الإسلام ليس دين عنف، بل هو ينبذ العنف، ويدعو إلى السلام والرفق، ويحرم القتل ظلما أي بغير حق؛ وأما الجهاد فقد شرع لمحاربة العنف نفسه، وأي عنف أخطر من عنف أعداء الدين الذين ﴿لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة. وأولئك هم المعتدون﴾[2] ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة. وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[3]. فهذا الجهاد الإسلامي ليس عنفا بل هو مشروع من أجل القضاء على العنف وحالة اللاأمن الروحي والعقدي والاضطهاد الديني.

---

1. نفسه، ص: 235.
2. سورة التوبة: 10/9.
3. سورة البقرة: 217/2.

وأما الحقيقة فهي في الإسلام مطلقة عندما تتعلق بالوحي، ونسبية عندما تتعلق بالاجتهاد البشري.

وأما التقديس فإن المسلم لا يقدس إلا ما قدس الشرع.

إذن فالجهاد (لا العنف) والحقيقة والتقديس أمور مضبوطة في الإسلام بضوابطها الشرعية. وميزان الشريعة أعدل ميزان في الوجود.

فالتسامح الذي هو الصفح والعفو والإحسان، ويقابله التعصب والتطرف والغلو والتعنت، مبدأ إنساني لا يقوم به خير قيام إلا الإسلام. فبينما يقبل أهل الإسلام بينهم بوجود أديان مخالفة ومغايرة لدينهم، ويرفضون إكراه الناس على ترك دينهم ومللهم، ولديهم قوانين ونظم عادلة تطبق عليهم وعلى من يعيش إلى جانبهم من أهل الأديان الأخرى، يسوم أقوام آخرون الأقليات المسلمة وغير المسلمة سوء العذاب، وبينما لا يحارب الإسلام الثقافات والحضارات، بل يتفتح عليها، ويقر تعدد الأديان والعقائد وأن ذلك بمشيئة الله: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾[1]، يمنع البعض المسلمين من بناء المآذن، والمساجد، ويمنع المسلمات من ارتداء الحجاب!

ثم يتحدث أركون عن مصيره المؤلم في ديار الغربة والاستلاب بطريقة غير مباشرة إذ يقول عن هذه الفئة التي ثارت أو تمردت على دين وتراث وهوية أوطانها الأصلية وراحت تطلب في الغرب ظلال الأمان والحرية المزعومة: «فليس لهم جمهور لا في بلدانهم الأصلية التي انقطعوا عنها، ولا في بلدان الغرب التي لجأوا إليها طلبا للأمان والحرية الفكرية وبالتالي فهم معلقون في الهواء، منبتو الجذور»[2].

1. سورة هود: 11/ 118 ـ 119.
2. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص 261.

7. اتباع الوحي في العقائد لا الفلسفة:

وليس الإسلام وريث الفلسفة الإغريقية كما زعم المؤلف[1]. بل هو رسالة إلهية تحمل شريعة ربانية تدحض الفلسفات المنحرفة وتهيمن على الكتب السماوية السابقة، وبهذا المعنى ليس الإسلام تقليداً لليهودية والمسيحية كما زعم كثير من المستشرقين وأتباعهم، كما أومأ إلى ذلك المؤلف بقوله: «إن الإسلام وريث التراث الإغريقي السامي (أي الفلسفة الإغريقية ـ التراث الديني التوحيدي). وقد أثر في هذا الفضاء وتأثر به على مر العصور»[2]. والحقيقة التي يجب تأكيدها هنا هي أن الإسلام هو الدين الخاتم، وهو الناسخ للأديان السماوية السابقة، والمهيمن عليها، والصالح للإنسان إلى قيام الساعة، قال الله تعالى: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين﴾[3]، وقال تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾[4].

قال أركون: «يصعب أن نفرض على الروح بطريقة قسرية ذلك التصور القديم عن وجود الله بصفته المرجعية المطلقة الصالحة للجميع واللزمة للجميع. هذا ما لا يستطيع المسلمون المعاصرون أن يفهموه، لأنهم غير قادرين على مواجهة التساؤل الفلسفي المتعلق بوجود الله. إنهم غير قادرين على طرح مشكل الله أو وجود الله كإشكالية مطروحة على التساؤل، لأننا عندئذ نصطدم بالخط الأحمر للتساؤل، أي بالخط الذي يستحيل تخطيه أو تجاوزه، بالمستحيل التفكير فيه»[5].

يرى أركون أن اعتماد تصور الله بوصفه مصدرا للوحي والتشريع الصالح لتنظيم المجتمع لم يعد ممكنا في عصرنا. بل ويشكك في حقيقة صلاحية وإلزامية مرجعية الإسلام عن وجود الله سبحانه ويجعلها عرضة للاستشكال والتساؤل الفلسفيين.

---

1. نفسه، ص 269.
2. نفسه، ص 269.
3. سورة آل عمران: 85/3.
4. سورة المائدة: 3/5.
5. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص 276.

وهذا ما قاله مشركو قريش من قبل: ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ﴾[1].

كان على المؤلف وأمثاله أن يتأملوا تأملا عقليا ـ قلبيا صافيا عميقا جملة من الظواهر الكونية وأن ينظروا في دلائلها الواضحة. فظاهرة حدوث الكون من أعظم الأدلة على وجود الخالق سبحانه. وهذه الظاهرة تقوم عليها عدة براهين علمية مستمدة من الأنظمة الكونية: قوانين الحرارة والحركة الإلكترونية والطاقة الشمسية والجاذبية. وكذلك ظاهرة الحياة نشأتها وتنوعاتها، وظاهرة الإرادة والأخلاق الإنسانية، وظاهرة الإجابة الإلهية لأدعية البشر أينما كانوا وكيفما كانوا، وظاهرة الهداية، في عوالم النبات والحيوان والإنسان، وظاهرة الإبداع، وظاهرة الحكمة، وظاهرة العناية، وظاهرة الوحدة بتجلياتها في السببية والطبيعة والتوحيد، ودلالات كل هذه الظواهر على الله تعالى وأسمائه الحسنى: وجود الله وقدمه وبقاؤه ومخالفته للحوادث وقيامه تعالى بذاته ووحدانيته وقدرته وإرادته وعلمه وحياته وسمعه وبصره وكلامه...[2] قال الله عز وجل: ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين، وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون وويل يومئذ للمكذبين. ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا وجعلنا فيها رواسي شامخات، وأسقيناكم ماء فراتا... ﴾[4].

---

1. سورة الأنعام: 6/92 ـ 93.
2. ينظر بصدد تفصيل كل هذه المباحث كتاب الشيخ المرحوم سعيد حوى وهو بعنوان: «الله جل جلاله» مرجع سابق.
3. سورة الحجر: 15/19 ـ 22.
4. سورة المرسلات: 77/20 ـ 27.

وإيمان الإنسان بالله عز وجل بناء على هذه البراهين، وثقته برحمته وسعة علمه، وتصديقه بمشيئته الطليقة تأسيسا على هذه الأدلة، يقتضي منه المسارعة إلى العمل بشريعته، واعتماد منهجه في الحياة الفردية والجماعية. وأما الذين يزعمون أن تصور وجود الله بصفته المرجعية المطلقة الصالحة للجميع والملزمة للجميع، لم يعد مناسبا لهذا العصر الحداثي، فلم ينظروا في البراهين التي قدمنا، ولم يتدبروا آيات الإعجاز القرآني المتنوعة، وبشارات الكتب الإلهية السابقة بخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ، ولم يتأملوا نبوءاته، وبشاراته، وسنته الطاهرة، وسيرته العطرة، ولذلك أنكروا الدين الحق، والتصور الحق لوجود الله سبحانه. فمشكلتهم أنهم عطلوا عقولهم عن النظر في الآيات القرآنية والكونية نظر المتجرد من الهوى، المتنزه عن التقليد، المتحرر من الأوهام والشبهات والظنون والفلسفات الواهية!

ويجب أن نضيف إلى هذا أن معرفة الله عز وجل ليست بدون قواعد أو حدود أو مصادر موثوقة، بحيث يؤول كل واحد وجود الله ويتصوره على حسب رؤيته وعصره كما زعم المؤلف. بل قال الله تعالى محددا الوظيفة الأولى لرسوله الكريم: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾[1].

فالسنة النبوية الصحيحة المحفوظة هي مصدر المعارف الثابتة المتعلقة بالعقائد الإسلامية عن وجود الله سبحانه وذاته وصفاته وأفعاله وكتبه وأحكامه ووعده ووعيده ومخلوقاته من الملائكة والإنس والجن والأحياء في هذا الوجود ومكوناته، وعن اليوم الآخر والقدر خيره وشره. فمن زعم زعما يتعارض مع أصل من أصول السنة العقدية فهو مردود عليه.

ولذلك كانت عقيدة أهل السنة والجماعة المستخلصة من الكتاب والسنة هي العقيدة الصحيحة مهما موه المموهون ومكر الماكرون، لأنها عقيدة مضبوطة بميزان الشرع الحكيم كتابا وسنة.

1. سورة النحل: 44/16.

ويتصور المؤلف أنه لكي يتقدم المسلمون فإنه ينبغي عليهم أن يعيدوا النظر في العلاقة القديمة بين الإنسان والله؟ ثم أن يعيدوا النظر في التصور القروسطي عن الله (تصور مظلم، قسري، مرعب) كما زعم أرگون[1].

وما البديل الذي يقدمه عن ذلك التصور سوى جنيالوجية الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه، أي منهجه الأصولي ـ النّشوئي حيث قال: «ينبغي أن نطبق المنهجية الجنيالوجية على النطاق اللغوي والفكري العربي لكي نعرف كيف تشكلت فكرة الإله الواحد فيه لأول مرة»[2]. ويتوهم أن التصور المقرر في العقائد الإسلامية عن وجود الله سبحانه تصور يشل الحركة ويمنع من تفتح طاقات الإنسان وتحقيق ذاته على وجه الأرض.

ويكفي لدحض توهم المؤلف هنا أن نذكره بالفتوحات العلمية والحضارية والإنسانية الهائلة التي حققها المسلمون وكان وراء تحقيقهم لها أمر جوهري لا محيد عنه إن أرادوا نهضة حضارية جديدة هو: عقيدة التوحيد الراسخة وتطبيق الشريعة السمحة.

بل يدعو المؤلف بصريح العبارة إلى التحرر من تصور هذه العقيدة ومبادئ هذه الشريعة، فيعتبر الربا مثلا أو الفائدة ومنعها في هذه الشريعة الربانية معرقلا لسير عمل البنوك، ومقابل ذلك يدعونا إلى أن نتعلم فكرة الله من دروس الفلسفة الحديثة (كالفيلسوف نيتشه ومن على شاكلته!) قال: «إن التصور القروسطي المظلم والقمعي عن الله والتأله قد مات، أو ينبغي أن يموت. لماذا؟ لكي يفسح المجال لتصور آخر أكثر رحابة ومحبة وغفرانا»[3].

طبعا فإن ما يروق له هو صورة عقيدية وتشريعية ليست فيها أحكام تحريم، وليس فيها نهي ولا وعيد، ولا تخويف، ولا محاسبة ولا معاقبة. صورة تتماشى مع البهيمية الشهوانية الإباحية ومع الترهات الفلسفية الوهمية! قال الله تعالى: ﴿بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة﴾[4].

1. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص 279.
2. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص 281.
3. نفسه، ص 282.
4. سورة القيامة: 75/ 5 ـ 6.

الفصل الثاني
الخطاب القرآني: البيان والبرهان

1. البراهين القرآنية:

قال أرگون: «ونلاحظ أن الطابع الإبداعي، الرمزي والمجازي المتفجر يطغى في الخطاب القرآني على الطابع المنطقي، العقلاني الاستدلالي، البرهاني القائم على المحاجة. ونلاحظ أيضا أن موطن الفهم والإدراك الحسي والعاطفي هو القلب وليس الرأس. بمعنى أن مفهوم العقل في القرآن لا ينفصل عن الحساسية والخيال والشعور. وكذلك فإن المعنى يوحى عن طريق المجاز والمثل والحكمة والرمز، أكثر مما يحدد عن طريق المفاهيم الاستدلالية المنطقية»[1].

يجب أن ننبه هنا إلى أن الخطاب القرآني خطاب رباني معجز يتوجه به المولى عز وجل إلى كل كيان الإنسان. وهذا المعنى لا يمكن فهمه حق الفهم إلا باستحضار مفهوم «الفطرة». فالفطرة الإنسانية هي جوهر الإنسان، وفيها تتكامل عدة مواهب في الذات الإنسانية. ومصطلح «القلب» القرآني هو الذي يجمع بين هذا البعد الفطري الأخلاقي في الإنسان من جهة، وبين البعد العقلي بفاعلياته المتنوعة من ذكاء، وتفكر، وتذكر، وتخيل، واعتبار إلخ.

والحقيقة أن كثيرا من خصوم الإسلام يدعون أن الخطاب القرآني خطاب بياني لا خطاب برهاني. وبين أيدينا كثير من الآيات القرآنية التي تدحض دعواهم والتي هي أعظم دليل على البناء الاستدلالي المنطقي البرهاني لهذا الخطاب حيث البرهنة العقلية، والمحاجة والحوار العقليين، وإلى جانبهما ما يدعمهما من قنوات إقناعية متنوعة متكاملة حيث يستعمل الخطاب القرآني المجاز والمثل والاستعارة والحكمة وما يثير الشعور والعاطفة ولكن هذه القنوات لا تطغى على البناء

1. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص 283.

الاستدلالي البرهاني بل هي نفسها، في عمقها، مبنية بناء برهانيا منطقيا. وسر هذا البناء التماسك والتناسب والمقدمات المؤدية إلى نتائج ثابتة، بل هذه الاستدلالات يؤيدها العلم الحديث (تنظر الاكتشافات العلمية ومطابقتها للإعجاز العلمي في القرآن والسنة).

ولنقدم بعض النماذج في هذا الباب:

قال الله تعالى: ﴿ والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها. إن في ذلك لآية لقوم يسمعون وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين، ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا. إن في ذلك لآية لقوم يعقلون وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئا. إن الله عليم قدير والله فضل بعضكم على بعض في الرزق فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء. أفبنعمة الله يجحدون؟! والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة. ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمت الله هم يكفرون؟! ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السماوات والأرض شيئا ولا يستطيعون فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون؟! الحمد لله. بل أكثرهم لا يعلمون وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم. ولله

غيب السماوات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب. إن الله على كل شيء قدير والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا، وجعل لكم السمع والبصر والأفئدة لعلكم تشكرون ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله. إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين. والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحرّ وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين. يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها. وأكثرهم الكافرون﴾[1].

فانظر كيف بنيت النتائج الصحيحة في هذه الآيات الكريمات على المقدمات الثابتة، أو بالاصطلاح المنطقي: كيف أسس التالي على المقدم، ضمن هذه السلسلة البرهانية الاستدلالية القرآنية التي استعملت فيها عدة منبهات شعورية وعاطفية وتخييلية أو مجازية كالمثل، وحيث كان الاستدلال بالمخلوقات على تنوعها ـ سواء في عالم النبات أو في عالم الحيوان أو في عالم الإنسان ـ على وجود الخالق وقدرته وعنايته وإحاطة علمه، وفي ذلك أعظم الأدلة على صحة التوحيد وبطلان الشرك. أفلا تخاطب هذه الآيات البينات العقل الإنساني بالبراهين المنطقية، والأدلة العلمية القطعية؟ أليس بناؤها بناءا استدلاليا برهانيا، وإن استعملت فيه بعض وسائل التنبيه والتوضيح وإثارة الشعور وتشغيل الخيال والطاقة المجازية أو الاستعارية في الإنسان؟

ومثل هذا في القرآن الكريم كثير. بل يمكن أن نتحدث عن «البراهين القرآنية» في هذا الكتاب العزيز كنوع من الاستدلال والمحاجة والإقناع يسمو فوق أقوى البناءات الاستدلالية الإنسانية لأنه من عند العليم الخبير بعقل الإنسان وعاطفته، وبوجوه الدلالات وأنواع الإقناعات التي يزخر بها خلقه وصنعه العجيب.

1. سورة النحل: 16 / 65 ـ 83.

ويمكن تنويع الأمثلة على هذه «البراهين القرآنية» سواء في ظاهرة العناية، أو دليل الهداية، أو دليل الإبداع الإلهي. ويمكن أن نعزز كل هذا بأدلة الاكتشافات العلمية الحديثة ومطابقتها للآيات القرآنية العديدة. وكان على المؤلف أن يرجع إلى دراسات الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ليقف بنفسه على نوع آخر من «البراهين القرآنية».

فهذه كلها آيات أي علامات يستدل بها العقل السليم على حقائق الألوهية والخالقية والإبداع والعناية الربانية والعلم الإلهي المحيط: ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم أنتم بشر تنتشرون ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة. إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين. ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله. إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها. إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون وله من في السماوات والأرض كل له قانتون وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه. وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم.. ﴾[1].

2. القلب والعقل:

ولا ينبغي فهم مصطلح «القلب» كما جاء في القرآن الكريم على أنه مجرد مركز للحساسية والخيال والشعور كما فهم المؤلف، وإلا لو كان هذا الفهم الحاصر صحيحا فما معنى الدعوة القرآنية إلى العقل والتفكر بواسطة هذا

1. سورة الروم: 30/ 20 ـ 27.

القلب؟ قال الله تعالى: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها؟﴾[1] وقال: ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾[2]. وقال: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها..﴾[3]. فالعقل، والفقه، والاعتبار، والتفكر، والتأمل، والتدبر، كلها أفعال للقلب بمفهومه القرآني. فسبحان الذي جعل هذه اللطيفة الربانية التي هي حقيقة الإنسان، جامعة بين البرهان العقلي، والوجدان الشعوري! لكن أدعياء «العقلانية» يحسبون ـ خطأ ـ أن عمليات الفكر وفاعليات الفهم والتذكر والتعلم والاستنتاج والاستقراء... كل ذلك يتم في الرأس فقط، كما ألمع إلى ذلك المؤلف بقوله: «ونلاحظ أيضا أن موطن الفهم والإدراك الحسي والعاطفي هو القلب وليس الرأس»[4]. ولم يدركوا أن مصدر كل تلك العمليات والفاعليات هو القلب، لأن العقل نفسه هو فعل قلبي، فالقلب ـ بمفهومه القرآني ـ هو مصدر الفكر، وإرادة المعرفة. وما يتم في الدماغ من عمليات ليس إلا مرآة للإشارات القلبية.

والعقل بمفهومه المنطقي والاستدلالي قوام فحوى الخطاب القرآني، ما دام القرآن خطابا برهانيا إعجازيا موجها إلى ملكات العقل الإنساني المختلفة، وليس إسقاطا من الفلسفة الأرسطية؛ وكذلك الإشارات العلمية القرآنية المطابقة لأحدث الاكتشافات العلمية ليست من قبيل الإسقاط، بل هي سبق قرآني علمي منذ ما يزيد على أربعة عشر قرنا.

ويزعم المؤلف أنه ليس في القرآن الكريم تحليل مفهومي أو منطقي للظواهر وإنما فيه فقط دعوة إلى مجرد الربط أي إقامة علاقة معينة أو رؤية هذه العلاقة بين شيئين: بين السماء والتعالي، بين الأرض والنعم التي رزقنا الله بها، بين الرعد وغضب الخالق وجبروته ... إلخ[5].

---

1. سورة الحج: 46/22.
2. سورة ق: 37/50.
3. سورة الأعراف: 179/7.
4. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص 283.
5. نفسه، ص 285.

نقول: نحن لا ننفي وجود هذا الربط في القرآن الكريم لكننا نثبت، إلى جانبه، وجود التحليل المفهومي والمنطقي للظواهر والذي أنكره أرگون. لنقرأ، على سبيل المثال، قوله تعالى عن نشوء السحاب ونزول المطر وعلاقة كل ذلك بظواهر طبيعية أخرى:

﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله، فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين. فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيي الأرض بعد موتها. إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير ﴾[1].

وقال عن كروية الأرض ودورانها واختلاف زمن الليل والنهار على مدى السنة، وعلاقة الشمس والقمر بذلك، ودورانهما في الفضاء: ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك. والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾[2].

فانظر كيف اجتمع في الآية ما سماه المؤلف بالربط، والتحليل المفهومي المنطقي أو العلمي.

وقال تعالى عن الحاجز بين الماء العذب والماء المالح في البحر ـ وهذه حقيقة من أحدث ما اكتشفه العلماء ـ: ﴿ وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا ﴾[3]. وقال عن كروية الأرض: ﴿ يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ﴾[4].

1. سورة الروم: 30/ 48 ـ 50.
2. سورة فاطر: 13/35.
3. سورة الفرقان: 53/25.
4. سورة الزمر: 5/39.

«وقد عبر القرآن الكريم عن التكوير : فوصف تكور الليل على النهار وتكور النهار على الليل وكما يقول د. بلاشير Blachier في ترجمته للقرآن إن «كور» معناها لف.

وهذه العملية يعبر عنها القرآن الكريم بكل دقة... وكأن اكتشاف استدارة الأرض قد تم في عصر التنزيل رغم أن اكتشاف العلم لذلك لم يأت إلا مؤخرا وقد أكد رواد الفضاء أنهم شاهدوا تعاقبا سريعا للظلام والنور على سطح الأرض بسبب دورانها المحوري أمام الشمس... فالحركة سببت الزمن... والزمن ناتج عن الحركة... فالزمن ـ إذن ـ حركة .. والحركة زمن.

ومن هذا يتضح أن السبق العلمي للحقائق الكونية ومنها حقيقة كوكب القمر كان للقرآن الكريم، وحسبه في ذلك إعجازا»[1].

ولهذا نقول إن مفهوم العقل في القرآن الكريم ليس تجريديا محضا، ولا مركزا على الواقع تركيزا خالصا، ولا مجازيا صرفا، بل قد جمع بين التجريد والواقعية والمجاز في انسجام معجز.

ومن ثم يتضح تهافت قول أركون: «لكأن الخطاب القرآني يشكل عالما كاملا من الآيات والرموز، وليس من خلال التحليل المباشر للواقع المادي المحسوس كما يفعل العقل الفلسفي، أو عقل علماء الكيمياء والفيزياء والبيولوجيا. ولذلك فإن كلمة سماء أو أرض أو شمس أو قمر أو رعد أو برق أو نجوم... إلخ، ينبغي ألا تخدعنا فهي ليست مقصودة لذاتها، أي بمعناها الفيزيائي المحسوس، وإنما مقصودة بمعناها الرمزي والمجازي»[2].

لقد قدم القرآن الكريم إشارات علمية صحيحة في مختلف مجالات العلوم الدقيقة والإنسانية، بل سبق الاكتشافات العلمية الحديثة التي شهد له روادها بالتقدم والأسبقية والإعجاز.

---

1. الإعجاز العلمي في الإسلام ـ القرآن الكريم ـ مرجع سابق ـ ص 52.
2. قضايا في نقد العقل الديني ـ ص 285.

3. ابن رشد والغزالي:

يقر المؤلف بهزيمة فكر ابن رشد أمام فكر الغزالي وإن اتهم هذا الفكر ـ خطأ ـ بمحاربة العقل والعقلانية، لكن أركون لا يرجع انتصار فكر الغزالي إلى قوة الأدلة، ومتانة الأسس المعرفية التي بنى عليها منهجه، واستخلص في ضوئها الحقائق التي دافع عنها، في ظلال القرآن والسنة، بل أرجع ذلك إلى «تقلص الأطر الاجتماعية المحبذة للمعرفة» أي انهيار «البورجوازية» التجارية في بغداد والعواصم الإسلامية الأخرى[1].

عن أي بورجوازية يتحدث أركون؟!

أليس هذا إسقاطا لمقولة حديثة على التاريخ الإسلامي؟ والحقيقة أنه لم يستطع تفسير انهزام الرشدية المقلدة للأرسطية أمام إبداعية الغزالي، وأصالته، وتماسك براهينه، وتجذرها في العقيدة والتصور المنهجي الإسلاميين.

ذلك أن هذه العقيدة وهذا التصور على نقيض مبادئ تلك الفلسفة الدخيلة مهما ادعى أركون! والإسلام لا يقبل أي فلسفة فاسدة، ولا يمكنها أن تجد في المجتمع الإسلامي مكانا مقبولاً، وإن انتشرت حيناً، فإنها إلى زوال وشيك.

إن فكر الإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله فكر عقلاني نقدي بخلاف ما يدعيه خصومه.

قال ابن سبعين الإشبيلي:

«فالفارابي هو أفهم فلاسفة الإسلام وأذكرهم للعلوم القديمة، وهو الفيلسوف فيها لا غير، أما ابن سينا فهو كثير الطنطنة قليل الفائدة وأكثر كتبه مؤلفة ومستنبطة من كتب أفلاطون والذي فيها من عنده فشيء لا يصلح. وابن رشد بدوره مفتون بأرسطو ويكاد يقلده وأكثر تواليفه من كلام أرسطو: إما يلخصها وإما يمشي معها في نفسه...»[2].

---

1. نفسه، ص: 301.
2. معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي ص 22.

الفصل الثالث
التحريف المنهج

1. ديدن الاستشراق :

يتحدث أرگون عن مشروع «الموسوعة الكبرى للقرآن الكريم» الذي قال إن مكتبة «بريل» في هولندا ستتحمل مسؤوليته، وهي التي نشرت سابقا «الموسوعة الإسلامية» ونحن نعلم مدى التحريف الذي في هذه الموسوعة، والذي يمكن أن ننعته بالتحريف المنهج، أو التشويه المغرض لحقائق الإسلام وسيرة رسوله ﷺ وتاريخ المسلمين.

إن المعرفة التي يملكها معظم مفكري أوروبا عن الإسلام مبنية على التقارير المشبوهة التي أعدها المتعصبون من النصارى واليهود وأعوانهم عن الإسلام، وقد أدت هذه التقارير إلى انتشار عدد كبير من الافتراءات والأخطاء الفادحة. وكل ما وجدوه في الإسلام من خير ومزايا تجاهلوه، واختلقوا الأكاذيب ونسبوها إليه من أجل تشويهه وتحريفه.

ويمكن أن نرجع إلى نموذج من نماذج هذا التحريف في هذه الموسوعة وهو يتعلق باسم «محمد» ﷺ لندرك مدى ما ينتظر الموسوعة المعتزم إصدارها عن القرآن الكريم والتي يقول عنها أرگون إن «كل مصطلح قرآني سوف يثير مادة كاملة أو تبنى عليه مادة كاملة». فمن التحريفات البارزة في الموسوعة الإسلامية والتي يغلب على الظن أن تسير على منوالها البحوث حول مواد هذا المشروع الجديد: «الموسوعة الكبرى للقرآن الكريم» لأنها ستصدرها نفس المكتبة التي أصدرت الموسوعة الإسلامية؛ ولأن المستشرقين الذين يطبل لهم أرگون ويزمر لا يخرجون عن الخطة التي انتهجها سابقوهم، إن لم يكونوا أفدح أخطاء وأعظم خطرا، وأنكى تشويها، خاصة مع الدعوة إلى «قرآن جديد» أو حذف آيات معينة

من الذكر الحكيم، ومع تصاعد العدوان على مقدسات المسلمين؛ ومن هذه التحريفات الافتراء على النبي محمد ﷺ، وعلى القرآن الكريم.

جاء في كتاب مصطفى نصر المسلاتي «الاستشراق السياسي»: «وإذا كانت المسيحية قد اتخذت من مشكلة الصفات الإلهية مدخلا لحل مشكلات التثليث في العقيدة المسيحية، فإننا نجد المستشرقين أساءوا فهم هذه الصفات»[1]. وإذا قرأت هذا الكتاب تبين لك ما كانوا يكتبون من ترهات في «دائرة المعارف الإسلامية»، خاصة المستشرق ماكدونالد[2].

2. مناهج مستوردة من أجل التضليل:

إن أركون يريد تفكيك أصول الدين وأصول الفقه الإسلامي، أي العقيدة والشريعة، بتطبيق العلوم الإنسانية والاجتماعية عليها، كما طبقت من قبل على التراث المسيحي. قال: «وذلك لأنه يوجد في النسخة الأصولية للإسلام شيء من الفكر الإسلامي. وهذا الشيء هو الفكر الأصولي المعتمد على أصول الدين وأصول الفقه. وهذه الأصولية التي تشكل المرجعية الكبرى للمسلمين اليوم لم تتعرض حتى الآن لمراجعة نقدية جادة على ضوء علم التاريخ الحديث، وعلم الألسنيات الحديثة، وعلم الاجتماع، وعلم النفس التاريخي وبقية العلوم الإنسانية والاجتماعية»[3].

إننا نلاحظ على كتابات أركون ما لاحظه د. الحسن العباقي كذلك من استعمال منهجيات في غير محلها، وتحميل النصوص ما لا تحتمل مع خلط الشبهة بالدليل، وغزارة التكرار والدوغمائية وغياب النقد الذي طالما دعا إليه.

وكما رأينا، فإن أركون يدعي تطبيق العلوم الإنسانية الحديثة على القرآن والسنة والفكر الإسلامي من أجل التوصل إلى الحقيقة والمعرفة العلمية.

---

1. الاستشراق السياسي، ص 99.
2. ينظر على الخصوص ص 97-106.
3. قضايا في نقد العقل الديني-ص 329.

وما دام قد أنكر حقائق الإسلام، وشكك في نصوصه المقدسة، فهذا دليل على أن تلك المناهج التي اتبعها داحضة توصل الباحث إلى الباطل لا إلى الحق. إذ لا يمكن أن يجتمع في عقل سليم صحة النص القرآني والسني من جهة، وسلامة تلك المناهج التي اعتمدها أركون وشكك بناء عليها في تلك الأصول المقدسة.

ومع ذلك فالمؤلف يسحب تلك المناهج المحرفة على الدين الإسلامي والتاريخ والحضارة الإسلاميين معتمدا على مؤلفين غربيين مثل بيير بول، وهانزجورج غادمي، وجاك دريدا، وبورديو، وبول ريكور، وكارل ماركس، وميشل فوكو. وهم فلاسفة عصر الحداثة. فهو يستعير مثلا مصطلح «اللامفكر فيه» من بعضهم. وفي هذا تبعية واضحة لمناهج منقولة مستنسخة غير مأصولة ولا مقبولة. وهي تتناقض مع دعوى الاستقلالية والأصالة المنهجية، ونقد المركزية الأوروبية ومن ثم فلا نبالغ إذا قلنا إن أركون في حالة استلاب. وهنا ينبغي أن نميز مع مالك بن نبي[1] ـ رحمه الله ـ بين نوعين من التثاقف مع الغرب كما أوضح ذلك في كتابه «مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي»: الأول يتمثل في انتقاء الأفكار الصالحة التي يمكن أن يستفاد منها في صناعة الحياة والبناء الحضاري، والثاني يتمثل في استيراد الأفكار الفاسدة الميتة التي هي عبارة عن أعراض جانبية للثقافة الغربية، يسمي الأول غذاء، والثاني عفنا.

لم يراع أركون خصائص ومميزات الحقل التداولي الإسلامي عند تطبيقه للمناهج المستوردة وإنما تعمد تحريف تلك الخصائص الأصولية (القرآن الكريم والسنة الطاهرة) والحضارية المؤسسة للهوية الإسلامية. بل سعى إلى تجاوزها ليطبق المناهج الغربية الحداثية على الإسلام كما طبقت على المسيحية. فليست العلاقة بين الدين والدولة في الإسلام هي نفس العلاقة بينهما في الغرب أو المسيحية المحرفة.

1. فيلسوف إسلامي جزائري عاصر أركون وتوفي سنة 1971.

قال برنارد لويس:

«لم تنشأ أمام محمد وأصحابه مشكلة الاختيار بين الله وقيصر، ذلك الفخ الذي لم يقع به المسيح، وإنما وقع في حبائله كثير من المسيحيين، ففي الإسلام لا يوجد قيصر بل الله وحده... فالواقع أنه لم يكن يوجد في المفهوم الإسلامي مقابل حقيقي لمثل تلك الأضداد، ديني ودنيوي، روحي وزمني، كهنوتي وعلماني. ولم يظهر مثل هذا التضاد إلا بعد وقت طويل جدا حين استحدثت كلمات جديدة للتعبير عن مفاهيم جديدة»[1].

وينتقد أرگون الاستشراق وهو لم يخرج من شرنقته. ويلاحظ قارئ مؤلفاته تلبيسا وتخييلا وتضليلا، وتوظيفا لمصطلحات رنانة، لإضفاء فخفخة على ما يسميه بـ «مشروع نقد العقل الإسلامي». ومن ذلك: «التحليل الألسني التفكيكي» و«مناهج التاريخ المقارن للأديان» وعلوم النفس والأنثربولوجيا والاجتماع التاريخي و«الأرثوذوكسية الدينية» إلخ. وإننا لنعجب كيف تكرمه قطر بجائزة الدوحة عاصمة للثقافة القطرية، مع أنه مفكر يهاجم مهاجمة صريحة ثوابت الإسلام؛ ويستعمل كافة الأساليب الظاهرة والخفية لتحريف قواعد الدين الإسلامي، والتشكيك في ثوابت العقيدة والشريعة الإسلامية، وخلخلة مقومات الهوية الإسلامية.

وثمة تطابق كامل بين أطروحات أرگون الفكرية وأطروحات كبار مفكري الحداثة الفرنسيين. وهو يركز على تيار اللاعقل في الفلسفة الفرنسية الحديثة (الجنون، الشعر، الخيال، الأسطورة). ومن ثم لا غرابة إن فقد المؤلف تمييزه الفطري بين الحق والباطل إلى درجة أنه اعتبر القرآن الكريم والسنة الشريفة كتابات مؤسطرة. وفي ما يلي بعض الشواهد من كتبه على سيطرة فلسفة اللاعقل على فكره:

---

1. نقلا عن كتاب «السلطة في الإسلام» لعبد الجواد ياسين، ص 10 ـ 11.

يقول نافيا وجود هذه الأضداد: «العقل / الإيمان، قانون الوحي / قانون بشري وضعي، حقيقة / ضلال، صواب / خطأ، خير / شر، معنى مجازي / معنى حقيقي» إنها الآن «في طريقها للامحاء والتجاوز»[1].

ويقول ناقدا التراث الإسلامي الذي يكفر الملل والأديان الأخرى ويقسم الناس إلى مؤمنين وكافرين، معتبرا العلماء المسلمين الذين يصرحون بهذا الحق الجلي أنهم: «ما كان في إمكانهم أن يتحرروا من النظرية اللاهوتية القائلة بالدين الحق من جهة وبالنحل والأهواء الضالة من جهة أخرى»[2].

1. تاريخية الفكر العربي الإسلامي ـ مركز الإنماء القومي، بيروت، ص 24 ـ 25.
2. من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني ـ مرجع سابق ـ ص 6.

الخـاتمـة

لقد تبين لنا، بعد هذه الجولات النقدية مع كتاب محمد أرگون «قضايا في نقد العقل الديني، كيف نفهم الإسلام اليوم؟» أنه يضع القرآن الكريم في مستوى واحد مع الكتب المحرفة، والضلالات الملفقة من الديانات الوضعية، والتحريفات الكهنوتية. كما أنه يدعو إلى الفصل بين المجالين السياسي والديني. إلى غير ذلك من أقواله الخاطئة، المتهافتة، وهو بذلك يساهم في تشويه صورة الإسلام والهجوم عليه إلى جانب أساتذته من المستشرقين والعلمانيين، وقد صدق أحد منتقدي فكره إذ قال: «حقا إن أرگون أشد على الإسلام هجوما من مفكري الروم».

لكن محاولته باءت بالفشل، ومخططاته أصيبت بالشلل. فهذا جورج طرابيشي مثلا يقول: «إن محمد أرگون، بعد نحو من عشرة كتب وربع قرن من النشاط الكتابي، قد فشل في المهمة الأساسية التي نذر نفسه لها «كوسيط بين الفكر الإسلامي والفكر الأوروبي»، فأرگون لم يعجز فقط عن تغيير نظرة الغرب «الثابتة» «اللامتغيرة» إلى الإسلام، وهي نظرة «من فوق»، و«ذات طابع احتقاري» بل هو قد عجز حتى عن تغيير نظرة الغربيين إليه هو نفسه كمثقف مسلم (!) مضى إلى أبعد مدى يمكن المضي إليه بالنسبة إلى من هو في وضعه من المثقفين المسلمين في تبني المنهجية العلمية الغربية وفي تطبيقها على التراث الإسلامي. ويقول أرگون: «على الرغم من أني أحد الباحثين المسلمين المعتنقين للمنهج العلمي والنقد الراديكالي للظاهرة الدينية، إلا أنهم ـ أي الفرنسيين ـ يستمرون في النظر إليّ وكأني مسلم تقليدي! فالمسلم في نظرهم ـ أي مسلم ـ شخص مرفوض ومرمي في دائرة عقائده الغريبة ودينه الخالص وجهاده المقدس وقمعه للمرأة وجهله بحقوق الإنسان وقيم الديمقراطية ومعارضته الأزلية والجوهرية للعلمنة... هذا هو المسلم ولا يمكنه أن يكون إلا هكذا!! والمثقف الموصوف

بالمسلم يشار إليه دائما بضمير الغائب فهو الأجنبي المزعج الذي لا يمكن تمثله أو هضمه في المجتمعات الأوروبية لأنه يستعصي على كل تحديث أو حداثة».

ويضيف طرابيشي: «ويبدو أن واقعة بعينها هي التي أوصلت «سوء التفهم» هذا إلى ذروته. ففي 15 آذار / مارس 1989 نشر أركون في صحيفة «اللوموند» الفرنسية مقالة حول قضية سلمان رشدي أثارت في حينه «لغطا» كبيرا ومناقشات حامية الوطيس وقد طورت ردود الفعل التي استتبعتها شعورا حقيقيا بالاضطهاد لدى أركون ـ وعلى حد تعبيره بالذات، كانت «ردود فعل هائجة بشكل لا يكاد يصدق» سواء في الساحة الفرنسية أو الأوروبية، و«كان الإعصار من القوة، والأهواء من العنف، والتهديدات من الجدية بحيث أن كلامي لم يفهم على حقيقته، بل صنف في خانة التيار المتزمت! وأصبح محمد أركون أصوليا متطرفا!! أنا الذي انخرطت منذ ثلاثين سنة في أكبر مشروع لنقد العقل الإسلامي أصبحت خارج دائرة العلمانية والحداثة».

ولايكتم أركون أن تلك الهجمات العنيفة قد أشعرته «بالنبذ والاستبعاد، إن لم أقل بالاضطهاد... وعشت لمدة أشهر طويلة بعد تلك الحادثة حالة المنبوذ، وهي تشبه الحالة التي يعيشها اليهود أو المسيحيون في أرض الإسلام [1]. عندما تطبق عليهم مكانة الذمي أو المحمي». يقول جورج طرابيشي: «إن تلك الحادثة كانت شديدة الإيلام لمحمد أركون إلى حد أنها حملته على الكلام عن العلاقة بين الغرب والإسلام على نحو ما يتكلم حسن حنفي مثلا.. وعلى هذا النحو نجده

1. نقول ردًا على هذه التهمة: لم تأب سماحة الإسلام على أهل الذمة العمل في الدولة الإسلامية، بل أقرتهم على العمل في مزارعهم ومرافق إنتاجهم في سبيل دفع خراج معين يوضع على القادرين وعلى الأرض الصالحة للزراعة. فالإسلام يرعى لأهل الذمة حقوقهم ويحدب عليهم، كما يرعى للمسلمين حقوقهم ويحدب عليهم. ولا يرضى الإسلام أن يتمتع فريق من الناس بالأموال ويحرم الآخرون، ولا أن يترك في دياره محتاجا إلا كفاه، ولا فقيرا إلا أخذ بيده مسلما كان أو غير مسلم. والإسلام لا يدعو إلى بغي على من خالفه ولا يريد للذميين ذلا واحتقارا شريطة ألا يعتدوا على المسلمين ولا يظاهروا على عداوتهم أو يمنعوا سير الدعوة. كما أن المسلمين استعملوا أهل الذمة في بعض الوظائف فعمر بن الخطاب رضي الله عنه اصطنع بعض أسارى قيسارية كتابا له ووظفهم في الدولة. وتوسع معاوية رضي الله عنه في إلحاق النصارى بخدمته وكان له طبيب نصراني وكافأه معاوية بوضع الخراج عنه وولاه خراج حمص.

يقول: «إن مقالة اللوموند كلفتني غاليا بعد نشرها. وانهالت علي أعنف الهجمات بسببها. ولم يفهمني الفرنسيون أبدا أو قل الكثيرون منهم، ومن بينهم بعض زملائي المستعربين على الرغم من أنهم يعرفون جيدا كتاباتي ومواقفي. لقد أساءوا فهمي ونظروا إلي شزراً... ونهضوا جميعا ضد هذا المسلم الأصولي(!) الذي يسمح لنفسه بأن يعلن أنه أستاذ في السوربون، ويا للفضيحة ! ! لقد تجاوزت حدودي...»[1].

ومسك ما نختم به هذا الكتاب قول الحق سبحانه: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم. قل إن هدى الله هو الهدى. ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير﴾[2].

والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

وسلم تسليما كثيرا

المؤلفان

1. من النهضة إلى الردة ـ جورج طرابيشي ـ ص 133 ـ 134. وقد نقل كلام أركون السابق من كتابه «الإسلام ـ أوربا ـ الغرب» ص 106، 105، 139، 126، 101).
2. سورة البقرة: 120/2.

ملاحـــق

○ الملحـق الأول :

في السياسة الشرعية

○ الملحـق الثـاني :

فـي نقـد العلمانيـة

○ الملحـق الثـالث :

فـي نقـد الحـداثـة

الملحق الأول
في السياسة الشرعية

1. لا يقوم ولا يصلح أمر المسلمين إلا بما قام وصلح به أمر أولهم.

2. قال تعالى: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به، إن الله كان سميعا بصيرا. يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا﴾[1].

3. أداء الأمانات ← • الولايات • الأموال = ← القانون الإداري والمالي

4. الحكم بالعدل ← • حدود الله • حقوق الناس = ← القانون الجنائي

5. الشورى والولاية.

6. الولايات: ← تولية الأصلح.

«من ولي من أمر المسلمين شيئا، فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين»[2] وفي الصحيحين عن النبي ﷺ: أن قوما دخلوا عليه فسألوه ولاية فقال: «إنا لا نولي أمرنا هذا من طلبه».

1. سورة النساء: 4/ 58 ـ 59.
2. أخرجه الحاكم في صحيحه.

7. قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم﴾[1].

8. قال النبي ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه في الإمارة: «**إنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها**»[2].

9. وقال: «**إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة. قيل: يا رسول الله: وما إضاعتها؟ قال: إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**»[3].

10. وقال: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فالإمام الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها، وهي مسؤولة عن رعيتها، والولد راع في مال أبيه، وهو مسؤول عن رعيته، والعبد راع في مال سيده، وهو مسؤول عن رعيته، ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**»[4].

11. وقال: «**ما من راع يسترعيه الله رعية، يموت [يوم يموت] وهو غاش لها، إلا حرم الله عليه رائحة الجنة**»[5].

12. قال ابن تيمية رحمه الله: «**الخلق عباد الله، والولاة نواب الله على عباده، وهم وكلاء العباد على نفوسهم**»[6].

13. اختيار الأمثل فالأمثل. قال ابن تيمية رحمه الله: «إذا عرف هذا فليس عليه [أي الوالي] أن يستعمل إلا أصلح الموجود، وقد لا يكون في موجوده من هو صالح لتلك الولاية، فيختار الأمثل فالأمثل في كل منصب بحسبه، وإذا فعل ذلك بعد الاجتهاد التام، وأخذه للولاية بحقها، فقد أدى الأمانة، وقام بالواجب في

---

1. سورة الأنفال: 28/8.
2. أخرجه مسلم في صحيحه.
3. أخرجه البخاري في صحيحه.
4. أخرجاه في الصحيحين.
5. أخرجه مسلم.
6. السياسة الشرعية لإصلاح الراعي والرعية تحقيق محمد ابراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور - الشعب القاهرة ص 24.

هذا، وصار في هذا الموضع من أئمة العدل المقسطين عند الله تعالى، وإن اختل بعض الأمور بسبب من غيره، إذا لم يمكن إلا ذلك، فإن الله تعالى يقول: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾[1]. ويقول: ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾[2]...»[3].

14. الولاية لها ركنان: القوة والأمانة والقوة في كل ولاية بحسبها. والأمانة ترجع إلى خشية الله، وألا يشتري بآياته ثمنا قليلا، وترك خشية الناس، كما قال ابن تيمية رحمه الله[4].

15. الأصلح في كل ولاية بحسبها.

16. أهمية معرفة الأصلح، وذلك إنما يتم بمعرفة مقصود الولاية، ومعرفة طريق المقصود «فالمقصود الواجب بالولايات إصلاح دين الخلق الذي متى فاتهم خسروا خسرانا مبينا، ولم ينفعهم ما نعموا به في الدنيا، وإصلاح ما لا يقوم الدين إلا به من أمر دنياهم وهو نوعان: قسم المال بين مستحقيه، وعقوبات المعتدين، فمن لم يعتد أصلح له دينه ودنياه»[5].

17. قال النبي ﷺ: «**أحب الخلق إلى الله إمام عادل، وأبغضهم إليه إمام جائر**»[6].

18. وقال: «**سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله**» وذكر منهم بل أولهم: «**إمام عادل**»[7].

19. وقال ﷺ: «**أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك**»

ويدخل في هذا القسم: الأعيان، والديون الخاصة والعامة، مثل رد الودائع، ومال الشريك، والموكل، والمضارب، ومال المولى واليتيم، وأهل الوقف ونحو ذلك، وكذلك وفاء الديون من أثمان المبيعات وبدل القرض، وصدقات النساء، وأجور المنافع ونحو ذلك.

---

1. سورة التغابن: 16/64.
2. سورة البقرة: 286/2.
3. السياسة الشرعية ـ ابن تيمية ـ مرجع سابق، ص 25.
4. نفسه، ص 27.
5. نفسه، ص 35 ـ 36.
6. أخرجه الإمام أحمد في المسند.
7. أخرجاه في الصحيحين.

قال ابن تيمية: «وهذا القسم يتناول الولاة والرعية، فعلى كل منهما أن يؤدي إلى آخر ما يجب أداؤه إليه، فعلى ذي السلطان ونوابه في العطاء، أن يؤتوا كل ذي حق حقه، وعلى جباة الأموال، كأهل الديوان أن يؤدوا إلى أهل السلطان ما يجب إيتاؤه إليه. وكذلك على الرعية الذين يجب عليهم الحقوق، وليس للرعية أن يطلبوا من ولاة الأموال ما لا يستحقونه،.. ولا لهم أن يمنعوا السلطان ما يجب دفعه إليه من الحقوق، وإن كان ظالما، كما أمر به النبي ﷺ، لما ذكر جور الولاة، فقال: «أدوا إليهم الذي لهم، فإن الله تعالى سائلهم عما استرعاهم»[1]... وليس لولاة الأموال أن يقسموها بحسب أهوائهم».

«والذي على ولي الأمر أن يأخذ المال من حله، ويضعه في حقه، ولا يمنعه من مستحقه»[2].

19. وعلى إمام المسلمين أن يقسم بالعدل وطبقا لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ أموال الغنائم والصدقات والفيء. ومصارفها يبتدأ فيها بالأهم فالأهم من مصالح المسلمين العامة، ومن المستحقين ذوو الحاجات والصحيح أنهم يقدمون في العطاء كما قال ابن تيمية رحمه الله.

20. وأما الأحكام التي تشمل حدود الله وحقوق الناس فإن مقصودها الأكبر هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذا من أهم وظائف الوالي إذ به يصلح أمر الناس، ويستقيم شأن المجتمع. وإنما جعلت العقوبات والتعازير لهذا المقصد العظيم. فإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. والحدود الشرعية لها مقاصد إنسانية فيها رحمة بالإنسان، ومراعاة لمصلحته في الدنيا والآخرة.

21. ومن أهم وظائف الوالي إقامة الجهاد وتنظيمه ﴿حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾[3].

---

1. السياسة الشرعية ـ مرجع سابق، ص 43.
2. نفسه، ص: 45.
3. سورة الأنفال: 29/8.

22. قال ابن تيمية رحمه الله: «لا غنى لولي الأمر عن المشاورة، فإن الله تعالى أمر بها نبيه، فقال: ﴿فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر﴾[1]. وقد روي عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: «لم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ». [...] وأولو الأمر صنفان: الأمراء والعلماء وهم الذين إذا صلحوا صلح الناس، فعلى كل منهما أن يتحرى في ما يقوله ويفعله طاعة الله ورسوله واتباع كتاب الله»[2] وقال رحمه الله: «يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين إلا بها، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بد لهم عند الاجتماع من الحاجة إلى رأس»[3].

وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة. قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[4].

23. تناول فقهاؤنا فقه السياسة ضمن أبواب الفقه العام، كما بحثوا أحكامه في كتب متخصصة، ومن ثم فإن فقه السياسة قد أشبع بحثا ودراسة وطبق في مختلف مراحل تاريخنا وظل المسلمون يحرصون أشد الحرص على تطبيقه، إذ أن العمل به عمل بأمر الله الذي له وحده الحكم والأمر، والذي أوجب على عباده العمل بشرعه وحكمه: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا﴾[5].

24. بين الفقه السياسي ما يلزم لحفظ المجتمع العام من نصب الإمام وشروط استحقاقه للإمامة وما يجب له من الطاعة، وعليه من المشورة والعمل بالشريعة

1. سورة آل عمران: 159/3.
2. السياسة الشرعية ـ مرجع سابق ـ ص 182.
3. نفسه، ص 184.
4. نفسه، ص 186.
5. سورة الأحزاب: 36/33.

وإقامة العدل بين أصناف الرعية، مسلمين أو غير مسلمين، ثم قسم السلطة فجعلها خططا، وهي الإدارات المدنية، ومنها القضاء، وبالجملة فقد استقصى الشؤون الاجتماعية فكان بذلك نظاما عاما للمجتمع البشري، تام الأحكام لم يدع شاذة ولا فاذة، وهو القانون السياسي لدول الإسلام. وإن انتظام أمر دول الإسلام في الصدر الأول وبلوغها غاية لم تدرك بعدها في العدل والنظام لدليل واضح على ما كان عليه الفقه من الانتظام وصراحة النصوص، وصيانة الحقوة ونزاهة القائمين بتنفيذ أوامره بما لا يوجد الآن (. . .) كما أنه لا يعرف شرع مزن بين المصالح الدينية والدنيوية وصير هذه عين هذه وبين قانون الاجتماع البشري والعدالة التامة بوجه يعم جميع المصالح الاجتماعية كالشرع الإسلامي. ولذلك كان الخليفة الأعظم عندنا رئيسا دينيا ودنيويا معا، فهو جامع وظيفتين عظيمتين ولذا عرفوا الإمامة العظمى بأنها رياسة عامة في الدين والدنيا توجب للمتصف بها أن يطاع فيما يستطاع.

ثم إن الفقه الإسلامي هو بأمر إلهي فالعمل به طاعة الله، وعدم العمل به معصية متوعد عليها في الدنيا والآخرة»[1].

1. في فقه السياسة ـ د. إسماعيل الخطيب، مرجع سابق، ص 16 ـ 17.

الملحق الثاني
في نقد العلمانية

من أوجه النقد التي تقتضيها تناقضات واضطرابات العلمانية وتهافت مقولاتها:

1. تهميش علاقة الإنسان بربه، وإحلال الإنسان محل الإله ـ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ـ فيصبح الإنسان هو مركز هذا الكون! وهو المرجعية العليا للقيم! وهذا يؤدي إلى اندحار الإنسانية، واندثار الإنسان.

2. غرض العلمانية إباحة ما حرمه الدين في مختلف مجالات الحياة. فليس هناك في المجتمع العلماني سلطان للدين على الناس. بل هم همل يفعلون ما يشاءون من المحرمات دون رقابة دينية ولا اجتماعية ولا سياسية ولا ثقافية.

3. الحيلولة دون الحكم بما أنزل الله، لإفساح المجال للحكم بالأهواء والمصالح والنزعات والشهوات. لكي يزداد الأغنياء ثراء والفقراء فقرا. ومهما حاول الإنسان أن يضع قوانين لا دينية عادلة ومنصفة فإنها تبقى بعيدة كل البعد عن العدل والمساواة والإنصاف والأخوة والمصلحة التي جعلها الله روح شريعته السمحة. إذ من طبيعة البشر إذا حكموا آراءهم المتشعبة، وأهواءهم المتضاربة، في قضايا المجتمع الإنساني، أن يميلوا عن الحق ميلا عظيما. وهذا ما يأباه الإسلام الذي جعل الدين بنظمه العادلة، وشرائعه المتوازنة، حاكما للمجتمع، ولم يجعل المجتمع مشرعا للأحكام بدلا عن خالق الإنسان.

4. اعتقاد العلمانيين بإمكانية إصلاح حال الإنسان من خلال الطرق المادية، دون التصدي لقضية الإيمان سواء بالقبول أو الرفض كما قال الفيلسوف جون هوليوك 1817ـ1906. وهذا ما أثبتت التجربة زيفه إذ ما زادت الطرق المادية الإنسان إلا فسادا وأزمة واغترابا واستلابا وهلاكا.

5 . سعي العلمانيين إلى تطبيع الإنسان أي أن يكون ظاهرة طبيعية أو مجرد شيء، ومن ثم يبيحون الشذوذ الجنسي. وهذا ما يتعارض مع الفطرة الإنسانية السوية.

7 . إنكار الغيب والمطلق، مع أن العلم الحديث طافح بالدلائل على وجود الله تعالى، ووجود عالم الغيب.

8 . العلمانية هي فصل الكنيسة عن الدولة، وليس في الإسلام كنيسة ولا كهنوت. بل كل مسلم يؤمن بالله ورسوله يصلي لله تعالى بلا واسطة، ودور علماء الدين إرشاد الناس وتوجيههم لا تقديم صكوك الغفران المزعومة والاستيلاء على خيراتهم. فالحرية الدينية للمسلم مكفولة، واستقلالية شخصيته محفوظة، وحقوقه مضمونة. ولم يثر الفلاسفة على الكنيسة إلا لخرقها الحرية والحقوق، ومعارضتها الجاهلة للعلم والعلماء. وهذا ما لا وجود له في الإسلام البتة، لأنه دين يشجع على العلم، ويحفظ الحرية الفكرية، والدينية، والشخصية وكامل الحقوق الإنسانية. فالعلمانية لا سياق لها في بلاد المسلمين، ولا تتوفر الدواعي التي دعت الغربيين إليها. هذا مع أنها ـ أي العلمانية ـ هي نفسها وبال أكثر من وبال ظلم الكنيسة، لأنها أبعدت الإنسان الغربي عن الدين وقيمه، فصار يعيش بلا معنى، خاوي الروح، فاقدا للحقيقة، منذ انحرف رجال الكنيسة عن الدين الحق (الإسلام) الذي بعث به سيدنا عيسى عليه السلام، ومنذ ثارت العلمانية والعلمانيون على هذه الكنيسة الجاهلة الجائرة، دون أن ترشد الناس إلى الدين الحق، بل أنكر العلمانيون الغيب، وقطعوا مع الدين، والوحي، والحقائق المطلقة. وهذا ما يريد أذنابهم في العالم الإسلامي الوصول إليه بشعارات متلونة مختلفة.

الملحق الثالث
في نقد الحداثة

من وجوه النقد التي ركز عليها ألان تورين[1] في مناقشته التقويمية لفكر الحداثة:

1. اقتصاد السوق: اختفاء أي إشراف كلي على النشاط الاقتصادي، واستقلاله عن الأهداف الخاصة بالسلطة السياسية أو الدينية.
2. أعطت الحداثة الأولوية لعملية تدمير الماضي.
3. إن القرن العشرين هو قرن سقوط الحداثة حتى وإن كان هو قرن غزو التقنية.

ونضيف إلى هذه النقود:

4. ارتباط منظومة الحداثة الغربية بالإمبريالية الغربية.
5. الجوانب المظلمة للحضارة الغربية الحديثة أدخلت العالم في حربين غربيتين (عالميتين لأنهما جرتا العالم كله إلى أتون الحرب).
6. تزايد إنتاج أسلحة الفتك والدمار.
7. تزايد تغلغل الإعلام في الحياة الخاصة للناس، مما زاد من تنميطهم.
8. تزايد هيمنة اللذة والملذات والشهوة والمشتهيات على الجماهير.
9. إفراط الاستهلاك من أجل الاستهلاك.
10. تزايد الإباحية ومعدلات الطلاق بشكل لم يسبق له مثيل.
11. ظهور أزمة المعنى والأزمة المعرفية والأزمة البيئية.

---

1. في كتابه «نقد الحداثة» ترجمة أنور مغيث، المجلس الأعلى للثقافة.

12 . ظهور الاتجاهات الفكرية المعادية للإنسان مثل الفاشية والنازية والصهيونية والبنيوية .

13 . تهافت نظريات التنمية .

14 . تشييء الإنسان ، وتسليع المرأة واستغلال جسدها في مختلف أغراض المجتمع الحداثي .

15 . التظاهر والكذب والادعاء والنفاق السياسي والاجتماعي والاستهانة بالقيم الأخلاقية .

16 . الأنانية وتغليب الحريات الفردية والمصالح الذاتية على صيانة المجتمع من المفاسد والشرور .

17 . استفحال الجريمة المنظمة وغير المنظمة .

18 . الاتجار العالمي في المخدرات والخمور ومختلف المفاسد والموبقات .

19 . تسخير الجماهير من أجل الثراء الفاحش لحفنة من المتسلطين إعلاميا وسياسيا واقتصاديا .

20 . معاداة الدين والقطيعة مع الشرائع السماوية .

21 . اختراق الأخلاق حتى في ميادين العلوم .

22 . نزعة التمركز الغربي حول الذات وإنكار حقوق الغير في الاختلاف والوجود .

23 . التسيب بدل الحرية المسؤولة واللاعقل بدل التعقل والتعقيل .

24 . تشجيع الشذوذ بمختلف أنواعه ، وتضليل الشباب ، وإفقادهم الثقة في الدين والقيم الخلقية .

25 . محاولة تنميط الإنسان والعالم في قالب حداثي ينفي الخصوصيات والهويات (بدعوى العولمة) .

المصادر والمراجع

■ **القرآن الكريم**

برواية حفص.

■ **الدراسات القرآنية**

1 ـ الإعجاز العلمي في الإسلام ـ القرآن الكريم ـ محمد كامل عبد الصمد.

2 ـ في ظلال القرآن ـ سيد قطب.

3 ـ مجاز القرآن ـ أبو عبيدة معمر بن المثنى.

4 ـ مع قصص السابقين في القرآن ـ د. صلاح عبد الفتاح الخالدي.

5 ـ الإشارات العلمية في القرآن الكريم ـ د كارم السيد غانم.

6 ـ التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن ـ حنفي أحمد.

7 ـ القرآن وإعجازه العلمي ـ محمد إسماعيل إبراهيم.

8 ـ مع الطب في القرآن الكريم ـ دياب وقرقور.

9 ـ المعجزة العلمية في القرآن والسنة ـ عبد المجيد الزنداني.

10 ـ من روائع الإعجاز في القرآن ـ الفندي محمد جمال الدين.

11 ـ الجامع لأحكام القرآن ـ القرطبي.

12 ـ دستور الحكم والسلطة في القرآن والشرائع ـ رأفت شفيق شنبور.

13 ـ الشبه الاستشراقية في كتاب «مدخل إلى القرآن الكريم» رؤية نقدية ـ عبد السلام البكاري والصديق بو علام.

14 ـ مدخل إلى القرآن الكريم، عرض تاريخي وتحليل مقارن ـ د. محمد عبد الله دراز.

15 ـ مدخل إلى القرآن الكريم: التعريف بالقرآن ـ د. محمد عابد الجابري.

16 ـ دستور الأخلاق في القرآن ـ د. عبد الله دراز.

17 ـ مواقع العلوم في مواقع النجوم ـ الإمام البلقيني .

18 ـ المفردات في غريب القرآن الكريم ـ الراغب الأصفهاني .

19 ـ روح المعاني ـ الألوسي .

20 ـ تفسير القرآن العظيم ـ ابن كثير .

21 ـ معجم الألفاظ والأعلام القرآنية ـ محمد إسماعيل إبراهيم .

22 ـ مناهل العرفان في علوم القرآن ـ الشيخ عبد العظيم الزرقاني .

23 ـ الأديان في القرآن ـ د . محمود بن شريف .

24 ـ الماء والحياة بين العلم والقرآن ـ عبد العليم عبد الرحمان حصر .

25 ـ الإعجاز النباتي في القرآن ـ 5 أجزاء ـ د . زغلول النجار .

26 ـ تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ـ د . زغلول النجار .

27 ـ هداية القرآن في الآفاق والأنفس والإعجاز العلمي ـ محمد ابراهيم شريف .

28 ـ دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث ـ عز الدين توفيق .

29 ـ مباحث في إعجاز القرآن ـ مصطفى مسلم .

30 ـ الحوار في القرآن : قواعده ـ أساليبه ـ معطياته ـ محمد حسين فضل الله .

31 ـ فضائل الحوار في القرآن الكريم ـ مولاي منير القادري البودشيشي

32 ـ مباحث في علوم القرآن ـ صبحي الصالح .

33 ـ القرآن الكريم والقراءات الحداثية ، دراسة تحليلية نقدية لإشكالية النص عند محمد أركون ـ د . الحسن العباقي .

34 ـ مقدمة في الدراسات القرآنية ـ فاروق النبهان .

35 ـ الإتقان في علوم القرآن ـ جلال الدين السيوطي .

36 ـ البرهان في علوم القرآن ـ بدر الدين الزركشي .

■ السنة والحديث

37 ـ السنة والعلم الحديث ـ عبد الرزاق نوفل.

38 ـ موسوعة الإعجاز العلمي في الحديث النبوي ـ عبد الرحيم المرديني.

39 ـ سنن ابن ماجة.

40 ـ كنز العمال، المتقي الهندي.

41 ـ تخليص الحبير، ابن حجر.

42 ـ جمع الجوامع ـ السيوطي جلال الدين.

43 ـ المغني عن حمل الأسفار في الأسفار ـ العراقي.

44 ـ أمالي الشجري.

45 ـ صحيح الإمام مسلم.

46 ـ سنن الترمذي.

47 ـ فتح الباري بشرح البخاري ـ ابن حجر.

48 ـ سنن النسائي.

49 ـ مصابيح السنة ـ البغوي.

50 ـ المعجم الكبير ـ الطبراني.

51 ـ رؤية نقدية لكتاب «السنة والإصلاح» للدكتور عبد الله العروي ـ عبد السلام محمد البكاري والصديق محمد بوعلام.

52 ـ السنة والإصلاح ـ عبد الله العروي.

53 ـ التاريخ الصغير ـ الإمام البخاري.

54 ـ تذكرة الموضوعات ـ الفتني.

55 ـ كشف الخفا ـ العجلوني.

56 ـ الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ـ ابن حجر.

57 ـ الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ـ السيوطي جلال الدين.

58 ـ الأسرار المرفوعة ـ علي القاري.

59 ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل.

60 ـ سنن أبي داود.

61 ـ سنن الدارمي.

62 ـ المستدرك ـ الحاكم النيسابوري.

63 ـ التاريخ الكبير ـ الإمام البخاري.

64 ـ مجمع الزوائد ـ الهيثمي.

65 ـ المعجم الأوسط ـ الطبراني.

■ السيرة والشمائل المحمدية

66 ـ معجزات الرسول، ألف معجزة من معجزات الرسول ـ د مصطفى مراد.

67 ـ فقه السيرة، دراسات منهجية علمية لسيرة المصطفى عليه السلام وما تنطوي عليه من عظات ومبادئ وأحكام ـ د. محمد سعيد رمضان البوطي.

68 ـ السياسة الإسلامية في عهد النبوة ـ عبد المتعال الصعيدي الأزهري.

69 ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ القاضي عياض.

70 ـ نور اليقين في سيرة سيد المرسلين ـ الشيخ محمد الخضري.

71 ـ كتاب النبي ﷺ ـ د. محمد مصطفى الأعظمي.

■ العقيدة

72 ـ الفصل بين الملل والنحل ـ ابن حزم.

73 ـ رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين وجواب القاضي أبي الوليد الباجي عليها ـ دراسة وتحقيق الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي.

74 ـ تأصيل العقيدة وتأويل آياتها عند علماء المغرب خلال القرنين (5ـ6 هـ) ـ د. عبد السلام محمد البكاري.

75 ـ الإبانة عن أصول الديانة ـ أبو الحسن الأشعري.
76 ـ مقالات الإسلاميين ـ أبو الحسن الأشعري.
77 ـ عثمان السلالجي ومذهبيته الأشعرية، دراسة لجانب من الفكر الكلامي بالمغرب من خلال «البرهانية» وشروحها ـ د. جمال علال البختي.
78 ـ العقائد (أديان الشرق الأقصى ـ الأديان الكتابية ـ أشهر الفرق الإسلامية الحالية) ـ عمر عنيات.
79 ـ الفرق والمذاهب الإسلامية منذ البداية (النشأة ـ التاريخ ـ العقيدة ـ التوزيع الجغرافي) سعد رستم.
ـ الله جل جلاله ـ د. سعيد حوى.

■ الفقه وأصوله

80 ـ الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء ـ ابن عبد البر.
81 ـ الرسالة ـ للإمام المطلبي محمد ابن ادريس الشافعي.
82 ـ البهجة شرح التحفة للتسولي.
83 ـ الجواهر الثمينة.
84 ـ الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ـ الحجوي.
85 ـ الفروق ـ القرافي شهاب الدين.
86 ـ في فقه السياسة ـ د. إسماعيل الخطيب.
87 ـ كتاب الخراج ـ أبو يوسف.
88 ـ الأحكام السلطانية ـ أبو الحسن الماوردي.
89 ـ الذهب المسبوك في وعظ الملوك ـ محمد الحميدي.
90 ـ التبر المسبوك في نصيحة الملوك ـ أبو حامد الغزالي.
91 ـ سراج الملوك ـ محمد بن الوليد الطرطوشي.
92 ـ السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ـ ابن تيمية.
93 ـ الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ـ ابن قيم الجوزية.
94 ـ إكليل الكرامة في تبيان مقاصد الإمامة ـ سيد صديق حسن خان.

95 ـ التراتيب الإدارية ـ عبد الحي الكتاني.
96 ـ إعلام الموقعين عن رب العالمين ـ ابن قيم الجوزية.
97 ـ إتحاف السادة المتقين ـ مرتضى الزبيدي.
98 ـ تاريخ المذاهب الإسلامية ـ الشيخ محمد أبو زهرة.
99 ـ إقامة الحجة ـ عبد الحي اللكنوي.
100 ـ الأسرار الطبية والأحكام الفقهية في تحريم الخنزير ـ محمد علي البار.

■ علم التصوف

101 ـ الرسالة القشيرية في علم التصوف ـ الإمام عبد الكريم القشيري.

■ التراجم والطبقات

102 ـ طبقات الشافعية الكبرى ـ تاج الدين السبكي.
103 ـ تاريخ الصحابة.
104 ـ طبقات ابن سعد.
105 ـ أسد الغابة ـ ابن الأثير.
106 ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ ابن عبد البر.
107 ـ سير أعلام النبلاء ـ الذهبي.
108 ـ صفة الصفوة ـ ابن الجوزي.
109 ـ معجم الفلاسفة ـ جورج طرابيشي.
110 ـ الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر العسقلاني.

■ التاريخ

111 ـ عيون الأخبار ـ ابن قتيبة
112 ـ تاريخ الطبري.
113 ـ تاريخ جرجان ـ السهمي.
114 ـ تاريخ الإسلام ـ د. حسن إبراهيم حسن.

■ اللغة

115 ـ لسان العرب ـ ابن منظور.

116 ـ القاموس المحيط ـ الفيروز آبادي.

■ مقارنة الأديان

117 ـ إظهار الحق ـ 4 أجزاء ـ رحمت الله بن خليل الرحمان الكيرانوي.

■ الاستشراق

118 ـ علماء وحكماء من الغرب أنصفوا الإسلام ـ د. حسيني حسيني معدى.

119 ـ قالوا عن الإسلام. رسائل إلى سلمان رشدي من كبار مفكري وفلاسفة العالم المسيحي ـ سيد حافظ أبو الفتوح.

120 ـ شهادات وإشادات علماء الغرب وأدبائه بقدر الإسلام ونبيه الكريم ﷺ ـ الصديق بن محمد بن قاسم بوعلام.

121 ـ تراث الإسلام ـ أرنولد.

122 ـ موسوعة المستشرقين ـ الدكتور عبد الرحمان بدوي.

123 ـ الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين ـ مصطفى نصر المسلاتي.

■ كتب عامة

124 ـ الفكر العربي، محمد أركون.

125 ـ نزعة الأنسنة في الفكر العربي، محمد أركون.

126 ـ الإسلام في عصر العلم ـ محمد العمراوي.

127 ـ الفكر الأصولي واستحالة التأصيل ـ محمد أركون.

128 ـ رسالة في اللاهوت والسياسة ـ سبينوزا.

129 ـ فضل العلم ومزية العلماء ـ ذ. الصديق بن محمد بن قاسم بوعلام.

130 ـ تأملات في مفهوم الحرية، الصديق بن محمد بن قاسم بوعلام.

131 ـ ليت البابا يقرأ ـ د. تامر مير مصطفى.

132 ـ المائة الأوائل ـ مايكل هارت.

133 ـ العلوم عند العرب، ترتيب وتعاريف ونصوص، يوسف فاخوري.

134 ـ المساواة في الإسلام ـ د. علي عبد الواحد وافي.

135 ـ المنهاج الإسلامي في التربية على حقوق الإنسان ـ عبد السلام البكاري.

136 ـ اليهود: تاريخهم ـ عقائدهم ـ فرقهم ـ نشاطاتهم ـ سلوكياتهم ـ الحركة الصهيونية والقضية الفلسطينية ـ رجاء عبد الحميد عرابي.

137 ـ حياة الحيوان ـ الدميري.

138 ـ روح الحداثة، المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية ـ د. طه عبد الرحمان.

139 ـ المنهج الإيماني للدراسات الكونية ـ عبد العليم عبد الرحمان حصر.

140 ـ العقد الفريد ـ ابن عبد ربه.

141 ـ الفكر الإسلامي، نقدو اجتهاد ـ محمد أركون.

142 ـ السلطة في الإسلام ـ عبد الجواد ياسين.

143 ـ تاريخية الفكر العربي الإسلامي ـ محمد أركون.

144 ـ من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني ـ محمد أركون.

145 ـ نقد الحداثة ـ ألان تورين.

146 ـ سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية ـ د. طه عبد الرحمان.

147 ـ دور أهل الحل والعقد في النموذج الإسلامي لنظام الحكم ـ د. فوزي خليل.

148 ـ من النهضة إلى الردة ـ د. جورج طرابيشي.

149 ـ الإسلام ـ أوروبا ـ الغرب ـ محمد أركون.

150 ـ نحو منهجية للتعامل مع التراث الإسلامي ـ دورة تدريبية ـ لجماعة من المؤلفين.

■ مجلات ودوريات

151 ـ مجلة الواضحة ـ العدد 3 (1426 هـ/ 2005م).

أركون ونقد الفكر الاسلامي

د. عبد السلام محمد البكاري
الصديق محمد بو علام

إنّ الآفاق التي توسع فيها نظر أقطاب هذا العقل هي التي شقت للإنسانية الطريق نحو التقدم العلمي منذ عصر النهضة. ولا شك أن دعوة الإسلام إلى العلم، والبحث، والاجتهاد، والسير في الطلب، وطلب الحكمة، والإصلاح، وتعمير الأرض، دعوة تفتح هذه الآفاق باستمرار ولا تسدها.

وقد كان علماء الإسلام، سواء في مجالات العلوم الشرعية أو في مجالات العلوم الطبيعية. على وعي بهذا الفتح الذي فتحه الإسلام أمام المعرفة الإنسانية فهبوا للدؤوب على البحث والتحصيل والاكتشاف. وهذه أسماؤهم خالدة في تاريخ الفكر الإنساني شاهدة على ذلك.

إن البحث العلمي في الحضارة الإسلامية بحث متحرر من كل القيود التي تتنافى مع حرية النظر الموضوعية والواقعية والوضوح والابتكار. وما يجب أن نصفه بالدوغمائية هو الجمود على الأفكار المستوردة غير المناسبة لطبيعة المرجعية الإسلامية لأمتنا، والتحجر في الدعوة إلى التبعية، والانسلاخ من جذور الهوية الإسلامية بدعوى «النقد» أو «العقل النقدي». هذا العقل الذي يتطلب ـ هو نفسه ـ نقدا جذرياً، يكشف خلفياته الاستلابية، ورؤيته العلمانية، وتهافته المنهجي. وقد تضمن هذا الكتاب أدلّة دحض دعوى تطبيق النَّقد المزعوم على نصوص الوحي.

ISBN: 978-614-02-1226-8
9 786140 212268
ISBN: 978-9938-90-263-1
9 789938 902631
كلمة KALIMA
عالم المعرفة للنشر والتوزيع
دار الأمان الرباط
منشورات ضفاف DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com
جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com - www.nwf.com